إصلاح الأفراد والمجتمعات في الإسلام

الطبعة الثانية محدثة ومنقحة وبإخراج جديد

فوزي محمد أبوزيد

دار الإيمان والحياة



الكتاب	إصلاح الأفراد والمجتمعات فى الإسلام
المؤلف	الشيخ فوزي محمد أبوزيد
الطبعة الثانية	٢١ جمادى الثانى ١٤٣٣هـ، ١٢ مايو ٢٠١٢م
الطبعة الأولى	٢٣ أكتوبر ٢٠٠١
رقم الكتاب	الكتاب رقم ٢٥ من المؤلفات المطبوعة
سلسلة	الدين والحياة (الكتاب الثامن)
عددالصفحات	٢٥٦ صفحة
المقاس	١٥ سم * ٢١ سم
الورق	٨٠ جم
الطباعة الداخلية	١ لون
ورق غلاف	كوشيه لميع ٢٥٠ جرام
طباعة غلاف	٤ لون، سلوفان لميع
تحت إشراف	دار الإيمان والحياة، ١١٤ ش ١٠٥ ، المعادى، القاهرة، ج م ع، ت: ٢٥٢٥٢١٤٠-٢-٠٠٢٠،
طبع	دار نوبار للطباعة
رقم إيداع محلي	٢٠١٢/٨٢٣٩

شُكر

أتقدم بوافر الشكر، وعظيم التقدير، لرجال اللجنة العلميَّة في الجمعية العامة للدعوة إلى الله؛ على هذا المجهود العظيم في إخراج هذا الكتاب المبارك، الذي لا غنى عنه لكل مسلم، غيور على دينه، وحريص على أمته في عصرنا هذا .

وقد قاموا – جزاهم الله عَزَّ وَجَلَّ عنا خيراً – باستخراج كلّ النصوص التي تتحدث في موضوع كتابنا هذا (إصلاح الأفراد والمجتمعات) من تراثنا المطبوع والمخطوط، ومن الشرائط المسجلة، وغيرها ، وأضافوها بتنسيقٍ بديع، وحرصٍ بالغ، إلى الطبعة الأولى من هذا الكتاب .

وقاموا – بارك الله فيهم – بضبط الآيات القرآنيَّة، وتخريج الأحاديث النبويَّة، ليصبح هذا الكتاب في طبعته الثانية صورةً رائعةً لعمل منسَّق موزون، يضع برنامجاً كاملاً لإصلاح الأفراد والمجتمعات في كافة المجالات وفي كل التخصُّصات، على هدى من ديننا الإسلامي الحنيف، ومطابقاً للعلم العصري الحديث . . .

فبارك الله عَزَّ وَجَلَّ في كل من ساهم في إخراج هذا الكتاب، أو طباعته، أو نشره؛ في نفسه وأهله وماله ووقته وعمله .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلف

مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على ما أولى به وأنعم، والصلاة والسلام على الحبيب المختار، زعيم أهل الإصلاح، وسيد أهل الصلاح، وعلى آله وصحبه وورثته والقائمين بدعوته إلى يوم العرض على الملك الفتاح، وبعد ...

كنا قد وضعنا هذا الكتاب كمفاتيح إصلاحية للمجتمعات الإسلامية والمسلمين عموماً أفراداً وجماعات.

وفي هذا الوقت الذي تمرُّ به البلاد العربيَّة والإسلاميَّة الآن، حيث حدثت في كثير منها إنتفاضات شعبية للقضاء على نظم الإستبداد، وللرغبة في تحويل أنظمتها إلى الحياة الديمقراطية ولتطبيق قوانين العدالة الإجتماعية التي أسَّستها ودعت إليها الشريعة الإسلاميَّة، والأخذ بمتطلبات الحياة العصريَّة التي توافق التعاليم القرآنيَّة والسُنة النبويَّة، على كافة مناحي الحياة السياسيَّة والإقتصاديَّة والإجتماعيَّة والتعليميَّة والنيابيَّة وغيرها.

فقد بدا لنا بناءاً على طلب كثير من القُرَّاء، ونظراً للظروف الحاضرة المُلحَّة في المجتمعات العربية عقب الثورات التي اندلعت بها أن ننظر في المنهج الإسلامي من جديد لنأخذ منه القواعد الأساسية التي ينبغي أن تؤسَّس عليها المجتمعات العربية والإسلامية العصرية الحديثة، لتُلبِّي مطالب الثوار ومتطلَّبات العصر، وتجعل هذه الشعوب تعبر الكبوة الكبيرة التي مكثت فيها هذه السنين الطوال، وتلحق بل وتتفوق على سائر الدول الحديثة والمتقدمة كما حدث قبلاً.

وقد وجدنا بفضل الله ﷻ أن المنهج الإسلامي الإصلاحي للأفــراد والمجتمعات صالحاً لكل عصر، ويصلح تطبيقه في كل بيئة وفي كل مجتمــع حيث أنه يواكب أحدث ما وصل إليه العلم الحديث ولا يتعــارض معــه، ويأخذ بأحدث الأساليب التي يتم بها وعليها نهضة الأمم والشعوب.

فهذا المنهج يقوم على أساس:

بناء الفرد أولاً على القيم الإنسانية الفاضلة.

وقيام المجتمعات على العدالة المطلقة، وعلــى المــساواة في الحقــوق والواجبات، ويبني الإقتصاد على حرية التملك، ويضع نظاماً دقيقاً لتوزيــع الثروات، ونظاماً سامياً لتوزيع المكتسبات.

ويبني سياسة ساسته وحكّامه على الصراحة والوضوح وعدم اللجوء إلى المكر والخداع والنفاق.

ولهذا تكتسب الآداب قدراً كبيراً في منظومة القيم الإسلامية التي ينبني عليها تقدم الأمم وازدهارها، وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٩٧النحل).

وقد أعدنا إخراج الكتاب بعد تحديثه بما يناسب الوقــت، وإضــافة بعض من خطبنا ومحاضراتنا فيما جدَّ من أحداث.

وأخرجنا الكتاب في طبعته الثانية في ثوب جديد، وفى صورة وضــع تصور منهجى أو دستور إيماني لإصلاح الأفراد والمجتمعات في الإسلام أقرب منها كمحاضرات أولقاءات في الموضوع، مسترشدين في ذلك بقوله تعالى:

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٨٨هود)

أسأل الله ﷻ ..... أن يجعل كتابنا هذا معيناً لكل من أراد الـــصلاح والإصلاح، وأن يبارك نهضة شعوبنا، وأن يولِّي من يصلح أمورنا، وأن يطهِّر مجتمعاتنا من النفاق وأهل سوء الأخلاق، وأن يجعلنا جماعة المؤمنين أجمعــين أخوة متآلفين متحابين متعاونين متوادين عاملين بقول رب العالمين:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٠الحجرات).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فوزي محمد أبوزيد

الجميزة، غربية، الأحد، ١٩ صفر ١٤٣٢هـــ، ٢٣ يناير ٢٠١١م

البريد : الجميزة ــ محافظة الغربية ،جمهورية مصر العربية
تليفون : ٥٣٤٠٥١٩-٤٠-٠٠٢٠، فاكس :٥٣٤٤٤٦٠-٤٠-٠٠٢٠
موقع الإنترنت : WWW.Fawzyabuzeid.com
البريد الإليكترونى : fawzy@Fawzyabuzeid.com
fawzyabuzeid@hotmail.com,
fawzyabuzeid@yahoo.com

مقدمة الطبعة الأولى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله المنعم الجواد، واسع الجود والعطاء والإمداد، وكنوز فضله وكرمه فوق خيال كُمَّل العباد.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الهدى والرشاد، ووسيلتنا إلى الله يوم التناد؛ صلى الله عليه وآله الأمجاد، وأصحابه مِنْ الفقهاء والزهَّاد، ومَنْ تبعهم بخير إلى يوم الميعاد.. وبعد ...

فهذه عدة ندوات ومحاضرات دُعينا لإلقائها .. بعضها في الكليات الجامعيَّة، وبعضها في قصور الثقافة، والنوادى الرياضيَّة، والجمعيات العلميَّة، الهدف منها جميعاً تنمية الوعى الديني لدى الشباب، وربط الدين بالحياة، ومحاربة الدعاوي العلمانيَّة -التي تَفْصِلُ بين الدين والحياة - والتدليل على أن الدين الإسلامى وضع المناهج الكاملة لإصلاح الفرد في بيته أو في عمله أو في مجتمعه، لنفسه أو لزوجه أو لأولاده أو لأهل مجتمعه، وبيَّنها بياناً شافياً، ووضَّحها توضيحاً دقيقاً، سرُّ قوله سبحانه:

﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ﴾ (٣٨الأنعام).

ويجمع بين هذه المحاضرات أنَّها تبين منهج الاسلام في إصلاح الفرد، وكذا منهجه في إصلاح المجتمعات، ذلك المنهج الربَّانىُّ المُنَزَّهُ عن الهوى والأغراض، الشامل لجميع البيئات، الجامع لكل الأشفية النفسية، والعصبية

والإقتصادية، والإجتماعية والسياسية. ويشير إلى ذلك قــول الحــق ﷻ في محكم الكتاب:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٢الإسراء).

والإسلام يجعل مفتاح إصلاح المجتمعات – في أى جهة من الجهات – هو إصلاح الأفراد، وأساس إصلاح الأفراد هو إصلاح القلوب والنفوس، ولا يكون ذلك إلا بشريعة المليك القدوس.

أسأل الله ﷻ أن يوفِّق إخواننا المؤمنين أجمعين لما فيه صلاح أحــوالهم وإصلاح مجتمعاتهم في الدنيا وسعادتهم في يوم الدين:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ (٨آل عمران).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

مساء الثلاثاء، السادس من شعبان ١٤٢٢ هـــ،

الموافق للثالث والعشرين من أكتوبر ٢٠٠١ م.

فوزي محمد أبو زيد

الباب الأول
الإصلاح بين المنظور الغربي والإسلام
الفصل الأول
العالــم والإصلاح

صوتان عاليان! القوة! والمال!

هل صلاح الحال بكثرة الأموال؟!

هل قوة الثقافة الغربية الحديثة هي الحل؟

دلائل على فشل العلم والثقافة الغربية

- فشل محاولة تحريم الخمر في أمريكا
- إباحة التدخين وتجميله دعائياً مع ضرره القاطع!
- إباحة المخدرات وتقديمها في هولندا!
- تحطُّم خرافة حرية ممارسة الجنس بأمان!

الفصل الثاني
مدخل إلى المنهج الإسلامى للإِصْلاحِ

إطلالة من وراء الغيوب!

أولاً: من يقـــود قاطــرة الإصلاح ؟

ثانياً: التربية الإيمانية سرُّ النهضة الإصلاحيـــــة

التربية الإيمانية مفجِّر الطاقات الربانيَّة

صور باقية لتأثير التربية

أبو بكر الصدِّيق

المقداد بن عمرو

الإمـام الشـافعي

رجالٌ الواحد بألف

عزل خالد بن الوليد

عقبـــة بن نافـــع

أبو أيـــوب الأنصاري

نـــور الديـــن زنـــكي

صلاح الدين الأيـــوبـــي

السلطان محمد الفاتح والقسطنطينية

دولة المـرابطين والمـوحدين

الدولة العثمانية والسلطان سليم

الســـلطان عبـد الحميد

وفي العصـــر الحـــــديث

إذاً التَّربية الإيمـــانية هي المخرج

الباب الأول: الإصلاح بين المنظور الغربي والإسلام

الفصل الأول: العالم والإصلاح

في هذا الوقت الحالي الذي تمرُّ به البلاد العربية والبقاع الإسلامية، حيث حدثت الكثير من الإنتفاضات الشعبية للقضاء على النظم الإستبدادية، وظهرت رغبة الشعوب القوية في تحويل أنظمة هذه البلاد إلى الحياة الديمقراطية السليمة، وتطبيق قوانين العدالة الإجتماعية التي أسَّستها ودعت إليها الشريعة الإسلاميَّة، والأخذ بمتطلبات الحياة العصرية التي توافق التعاليم القرآنية والسُنَّة النبويَّة، على كافة مناحي الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية.

وانطلقت الألسنة من عقالها! وأخذت الناس كلها تتكلم وتتجادل وتتحاور وتتساءل أين سبيل الإصلاح وطريق الفلاح؟ كيف يمكن إصلاح أحوال البلاد والعباد، الأفراد والمجتمعات؟ ما حل ما نحن فيه من معضلات ومشكلات؟ بل ما الطريق لسعادة البشرية؟ السؤال الجديد! القديم! ... وإجابة السؤال .. أو الحلُّ ... هو موضوع كتابنا الذى بين يديك!

صوتان عاليان! القوة! .. والمال!

إخواني الكرام! عندما يقدح كل واحد منا زناد فكره للبحث عن باب طريق الإصلاح؟ ويمعن النظر إلى ما يحفل به العالم اليوم من نظريات وفروض أو سلوكيات وأخلاق! أو صراعات وخلافات وشقاق أو اتفاق! تري عجباً! ... ترى أنظمة قائمة لم تكن موجودة منذ سنين! وأخرى قد أنهارت بعد أن كانت ملء السمع والعين! وثالثة تصارع للبقاء! ودول

متقدمة وأخرى فقيرة! ومجتمعات تحتضر! وأخرى وليدة!

وتزداد حيرة الواحد منا وقد يتوه العقل البشري المحدود في خضم ذلك الطوفان الجارف! ويتشابك التساؤل كيف السبيل إذاً إلى سعادة البشرية وهناءة كل إنسان في تلك البرية؟ في وسط تلك الأمواج العاتية!

ومن وسط كل تلك المعمعة! يبرز للعيان ويصك الآذان صوتان جهوريان! لهما اليوم الغلبة والسلطان وعلو الشأن!. المال والقوة!

المال! ... لا يحتاج لمقال! فقسم من الخلق عريض يدَّعون أن صلاح الحال لا يكون إلا بكثرة المال! وهكذا يظن الكثيرون بلا جدال!

وصوت القوة هنا ... هى قوة العلم الحديث والحضارة الغربية! فآخرون كثيرون أيضاً يقولون: إنما صلاح الحال بأن تميل مع الغرب حيث مال! حيث تجد القوة والرفعة والمنعة ويفيض عليك الجاه مع الأموال!!

ودعونا نستخدم الأسلوب العلمي ونناقش هذين الرأيين أولاً!... لا لكى نفنِّدَهما، ولكن لنرى جوانب الحقِّ فيهما لنحكم بأنفسنا: هل المال أو قوة الغرب الحديث؛ هل يمسكان مفاتيح إصلاح الأحوال؟ حقاً!!

هل صلاح الحال بكثرة الأموال؟!

وهذا قول الكثيرين هذه الأيام! يقولون أن إسعاد البشرية في المال! ويدَّعون أنَّ إصلاح الأحوال في مصر بكثرة الأموال!

وأنا أردُّ مباشرة على هؤلاء بسؤالين! السؤال الأول: لو صحَّ هذا الإدعاء! فلمَ نجد ٩٩% من مشاكل البشر والقتال والتحاسد والبغض

والتآمر بسبب الصراعات على جمع المال والتحكم بمصادر الثروة؟ أليست الحقيقة! هل من معارض؟!

ألم يكن معلم البشرية ﷺ يقول لأصحابه منبهاً ومحذِّراً مما تجرُّه كثرة الأموال على الناس !! ... بل ويقسم ﷺ: { فَوَاللّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ. وَلكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا. وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ }[١]

فكثرة المال تنتهي بالإستكثار من الشهوات والإغراق في الملذات! والتنافس والحسد والبغضاء والمكر والخديعة!! وفي النهاية يصمُّ ويعمى!

ولذا ورد في الأثر أنَّ هارون الرشيد لما بنى قصره المنيع في حاضرة ملكه، وقد زخرف مجالسه وبالغ فيها وفي بنائها، صنع وليمة عظيمة لا مثيل لها، ودعى وجهاء مملكته ومنهم الشاعر أبو العتاهيّة بعد توبته، فقال له: يا أبا العتاهية صف لنا ما نحن فيه من نعيم الدنيا!، فأنشأ يقول:

عش ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة القصور
تسعى عليك بما اشتهيت لدى الرواح إلى البكور
فاذا النفوس تقعقعت عن ضيق حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ما كنت إلا في غرور

فبكى هارون، فقال وزيره للشاعر معاتباً: طلبك الخليفة لتسرّه، فأحزنته، فنهاه هارون: أن دعه، فإنه رآنا في عمىً فكره أن يزيدنا منه.

ولكى نتثبَّت؛ دعونا نسأل رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق الذى علَّمه مولاه ما ينفع أمته إلى يوم لقاه، .. يانبي الله: أو ليس إذا كثر

١ صحيح مسلم، عن عروة بن الزبير

المال تنصلح الأحوال؟ وتنتهي مشاكل الحياة! هكذا نظنُّ! فيرد علينا الخبير ﷺ: { يَشِيبُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِيبُ مَعَهُ اثنَتَان: الحِرْصُ وَطُولُ الأَمَلِ }[٢].

أى لا! لأنه كلما يشيب ابن آدم يزيد حرصه على الدنيا، ويشيب معه أى يزيد أمله فيها! وينسى الحميد المجيد ﷻ. وكلما يحصِّل! يريد المزيد ولايشبع ! ويزيدنا ﷺ بياناً ويقول ضارباً المثل ومجلِّياً الأمر: { لَو كَانَ لابن آدَمَ وَادٍ من ذَهَبٍ- وليس جنيهات - لابتَغَى إلَيه ثَانياً، وَلَو كَانَ لَهُ ثَانٍ، لابتَغَى إليه ثالثاً، ولا يَملأُ جَوفَ ابن آدَمَ إلا التُّرابُ }[٣]

أى ببساطة وبلغة الساعة! لو جاءتنا مساعدات بكلِّ ما في خزانات الدول العربية والأجنبية من أموال وثروات! فصار لكل واحد في بلدنا واد كامل مملوءاً ذهباً! فلن يكتفى وسيطلب وادياً ثانياً! لن يشبع الناس!!

لأنه مادام وصف الأفراد "ابن آدم" كما قال ﷺ في الحديث فلن يشبع من المال ومن الحرص عليه والحرص على عمره وعلى الدنيا وما فيها من متاع!!!! أما لو صار صفة الأفراد صفة "المؤمن" فشأنه شأنٌ آخر!

والسؤال الثاني لمن يدعون أن كثرة الأموال تصلح الأحوال: هل رأيتم المجتمعات التي كثرت أموالها وأصاب أهلها تخمة المال قد انصلحت أحوالها؟ وعاش أهلوها في سعادة حقة لا ينغصها عليهم شيء؟ أم أنهم أيضاً أصابتهم أمراض أخرى، ربما أشدُّ فتكاً وضراوة!؟ أظنكم جميعاً تعرفون الإجابة! شرقاً وغرباً .. شمالاً وجنوباً! .. المال وحده! مفسدة!!!

ولذلك لو رسمنا سبل إصلاح الحال على معالجة نقص المال، وتوفير الرفاهية في كل مجال؟ فستجدون أنَّ كلَّ هذه الأمور شأنها مثل طبيب أتاه

٢ متفق عليه عن أنس بلفظ: ("يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مِنْهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ وَالأَمَلُ).
٣ زاد المعاد في هدي خير العباد، روى فى الصحيحين

مريضٌ عنده دمِّل في جسمه امتلأ بالقيح والصديد، فوصف له علاجاً مسكِّناً خارجياً بمرهم، فهل هذا العلاج الظاهري سينهي الداء؟! .. لا! ربما يرتاح المريض وقتاً قصيراً! لكن لا يلبث أن يعاوده الداء وأشدَّ مما كان! فالمسكِّنات ليست حلاً! لذلك فالطبيب الناجح هو من يقتلع أصل ومكمن الداء مِنْ جسدِ مَنْ به هذا الداء ... لا الذى يعالج العرض الناتج عن الداء!

فكثرة المال فحسب! ليست إلا علاجاً ظاهرياً ومسكنا خارجياً لأعراض مرض المجتمع! فإذاً ليست السعادة ولا صلاح الحال بكثرة المال!

والآن فلنأتِ إلى الصوت الثاني العالي! والذي يرغي ويزبد ويصيح ليفرض على الناس الإصلاح بقوة وعلم الغرب وحضارته الحديثة! وإلا وصموا معارضيهم بالتخلف والرجعية والحياة في القرون الوسطى! وربما جيَّشوا لهم الجيوش! الباطنة حيناً! والمتلوِّنة حيناً! والحقيقية حيناً آخر!!!

هل قوة الثقافة الغربية الحديثة هي الحل؟

ولنلج معاً هذا الرواق من كتاب الحل، هل إنهاء مشاكل البشرية وإسعاد الإنسانية هو الثقافة العلمية الحديثة؟ وقوة الحياة الغربية المتحررة!

هل صدقوا في زعمهم ذلك؟ هل السعادة في العلم والحياة الغربية وما أنتجته عقولهم من قوانين وضعية ومفاهيم آنيَّة أسموها الحلم الغربى؟ ذلك النموذج الذي يحاولون فرضه اليوم على العالم كله بالترغيب أو بالترهيب، بدعوى أنهم يمنحون الخلق إكسير السعادة ومفتاح جنة الدنيا؟ بل ويضحون بأبنائهم فيرسلون الجيوش والأساطيل لتدَّك حصون الطغاة، ويحرروا الخلق من الإستبداد والفساد والدين والرجعية أيضاً!! فيبيدوا الفقر وينشروا الديمقراطية والإصلاح! .ولا بأس لو قتل من هؤلاء الهمج بضع عشرات أو

مئات الألوف أو دمرت مدن بأكملها فهذا ثمن زهيد للحرية والحياة الجديدة!. .... وهذا الزعم أن قوة الثقافة والحياة الغربية هو الحلُّ سيأخذ منا ردًّاً أطول لتشعب الحجج! وكثرة الخداع واللجج!

وأنا أجيب على هؤلاء وأقول أولاً لو أن البشرية اتبعت الثقافة العلمية الحديثة بعد تقنينها بالأخلاق الدينية، ربما تؤدي إلى السعادة، لكنها إذا أطلقت بدون قيود دينية – وهذا بيت القصيد فيما يريدون فرضه– كانت كما ترى في أماكن كثيرة سبباً رئيسياً لتدمير المجتمعات الإنسانية ولو بعد حين! وخذوا أمثلة على ذلك من العلم والحياة الغربية الحديثة!

فالعلم الحديث عندما نستطلع رأيه في الكثير من الأمور الحياتية المتنوعة! تجده يكاد يتفق على أضرار كثير منها وخطرها وأثرها المدمر على المجتمع وأفراده وعلاقاته وسعادته في النهاية! ولكنى أسأل: هل استطاع نفوذ العلم الحديث، أو قوة المجتمعات الغربية وسلطانها .. هل تمكنوا من منع تلك الأمور المتفق على تمام العلم بأضرارها مع توفُّر القوة اللازمة لمنعها؟!

دلائل على فشل العلم والثقافة الغربية

للأسف! النتيجة فاشلة! فاشلة!! عجز العلم الذى هو دين أوربا وأمريكا الآن فهم يدعون أن دينهم هو العلم وما قرره العلم من حقائق ثابتة وقوانين مقننة ومؤسسة على الملاحظة والتجربة، ويجعلونها هي الدين الذي يحرصون عليه ويدعون إليه... فشل العلم وفشلت القوة وفشلت الثقافة الغربية الحديثة، وفشلت الحياة الغربية حتى في أرقى الدول تقدمًا وحضارة ومدنية، فشلوا في منع الكثير مما اتفقوا جميعا على ضرره، بل وأحياناً كثيرة ما اسْتُغِلَ العلمُ نفسه، وروَّضَ لخدمة مصالح فئة ما.

والدلائل على ما نقول لا تعدُّ ولا تحدُّ، ولكن نكتفى بذكر نماذج متنوعة على ذلك، ثم نتناول بعضها بقليل من التفصيل على سبيل المثال:

- الخمور والدخان والمخدرات: تعاطى/زراعة/صناعة/ إتجار.
- إباحية وتقنين الممارسات الجنسية بكل أنواعها من الجنس العابر والجنس الجماعى والمثلية وغيرها ولكل فئات المجتمع!!.
- صناعة وتجارة الجنس: المواقع، الأندية، البيوت، الأفلام، الكتب، المجلات، الألعاب، الأدوية، والمنشطات.
- حمل الأسلحة النارية الشخصية بغرض الدفاع عن النفس.
- من أخرج الإيدز من المختبر للشارع؟! من تسبب في جنون البقر وأنفلونزا الخنازير والطيور! ويعدُّ الآن أنفلونزا الخيول؟!
- من الذى أجبر العالم – زوراً وقهراً– على شراء لقاحات أنفلونزا الخنازير وباع للعالم كله بلايين الكمامات وملايين أطنان المطهرات من إنتاج المصانع الأمريكية والأوربية؟!
- من الذى يقود حملة تقويض مؤسسة الزواج في العالم كله؟ ويدمر صلة الأرحام ويجعل العقوق حقوق؟!
- من الذى أوهم العالم أنه بحلول الثانية الأولى لسنة ٢٠٠٠م ستسقط الطائرات وتنطلق الصواريخ النووية بسبب صفر سنة ٢٠٠٠ الذى سيعيد برامج أجهزة العالم لسنة ١٩٠٠م فيهلك العالم؟! وباعوا للعالم برامج تعالج ذلك بالمليارات من شركات البرمجة الأوربية والأمريكية وثبت كذب ذلك.
- من يشجع الربا والمؤسسات المالية ونشاطاها والتى كان لها اليد الطولى في الأزمات المالية العالمية وما أفرزته من نتائج؟

- من الذى يقود تجارة السلاح في العالم كله؟ وعندهم في مخـــازنهم من الأسلحة ما تكفى لإبادة العالم آلاف المرات؟؟

وسنتناول بعضاً مما ذكرناه بشرح مبسط لنعلم أين أخـــذهم العلـــم الغربى الحديث في طريق السعادة والإصلاح! لنرى كيف فشل في إنقاذهم من هلاكات محققة! قبل أن نستورده على أنه المنقذ والمصلح والربَّان!

فشل محاولة تحريم الخمر في أمريكا

أنفقت الولايات المتحدة الأمريكية في عشرينات وأوائـــل ثلاثينـــات القرن الماضي ميزانية هائلة للقضاء على الخمر، ففى **١٩١٩** أصْدرت قوانين صارمة لمن يتعاطى الخمر أو يتجر فيها، وجندت الدولة كل الدعايات اللازمة لتنفير الأمريكيين من الخمر.

ولكن لم تفلح لا القوانين الصارمة! ولا الجهود الطائلة ولا التكاليف المهولة في منع الخمر! بل وجاءت النتيجة عكسية فزادت نسبة المتعاطين لهـــا والمتاجرين بها! وتفاقم الأمر، وامتلأت السجون!، وبعد يأسهم من تحريمهـــا وتجريمها! وفشلهم في حمل المجتمع على ذلك! لم يجدوا حلاً إلا أن يتراجعـــوا ويلغوا قوانين تحريمها، وفى سنة **١٩٣٣** أبيحت الخمرُ مرة أخرى! بعد أربـــع عشرة سنة من التجربة الفاشلة!!

إباحة التدخين وتجميله دعائياً مع ضرره القاطع!

والتدخين السبب الأول للوفيات في العالم كله! وهو من أكبر بنـــود استزاف أموال الناس في العالم بلا فائدة! ولكنه الباب الأعظم للأرباح الخيالية لأباطرة مزارع الدخان، وشركات التبغ الإمريكية والأوروبية!

وهو أيضاً الشيطان الأكبر الذى يصيب الناس في العالم كله بأمراض التنفس والقلب والدم، فتستمر تروس مصانع الأدوية تعمل بلا توقف ليستمر تدفق نهر المال إلى خزائنهم! وليذهب العالم إلى الهاوية! فأين صدق العلم؟! وأين احترام مبادىء الحياة البشرية؟! أين السعادة المنشودة؟!.

إباحة المخدرات وتقديمها في هولندا!

ومثالاً ثالثاً على المخدرات! فمع كل قوانين تحريمها وتجريمها! تأتي بعض الدول المتقدمة كهولندا وغيرها وتبيحها! بل وتقدمها مجاناً لمتعاطيها! لأنَّ جميع وسائل الردع قد فشلت! فقال علماؤها ومشرعوها وساستها: لا طائل من المنع! أبيحوها! لتوقفوها!!

والعالم كله يعلم – ولم يعد سراً – مَن المستفيد من تجارة وزراعة نباتات المخدرات، ومن استخلاصها وتوزيعها! إنهم قادة العالم وسادته من اليهود النافذين[٤] في أمريكا وأوربا! والمتحكمين في قرارات المجالس العالمية! بل والمنظمات الدولية! وفضيحة مديرى منظمة الصحة العالمية وتآمرهم لإجبار العالم على شراء مصل أنفلونزا الطيور والخنازير من شركات الدواء لم تُنْسَ بعد! وما خفي كان أعظم! فقد عجز علمهم الحديث مع قوة حضارتهم عن حمايتهم من جشعهم! أو أن يصلح شأنهم! أو أن يقودهم للمجتمع المثالى!.

تحطم خرافة حرية ممارسة الجنس بأمان!

ومثالاً رابعاً أن الغرب كله أشاع وقنَّن أن الثقافة الجنسية العلمية الحديثة مع التطور الطبي ووسائل الحماية، كافية جداً لحماية أفراد المجتمع من

٤ إقرأ كتابنا"بنو إسرائيل ووعد الآخرة"، باب:وسائل وألوان إفساد اليهود فى الأرض، ص٩٢–١٠٩.

أضرار الأمراض الجنسية المهلكة لأفراده نتيجة الإباحية الجنسية التى يجعلونها علامة على تطورهم وتحررهم من القيود الدينية!

فهل حمتهم الثقافة الجنسية الحديثة من أخطار الإباحية أو الجنس العابر[٥]؟! هل وهبهم العلم السعادة المنشودة تحت وهم (حرية الأفراد حقٌّ مطلق!)؟! وستار (حماية الشباب من مضار الكبت الجنسي)؟! وإدعاء (حق الفتيات والنساء في الإجهاض إذا حصلن على حمل غير مرغوب)؟!.

ولأن هذا موضوع هام جداً وبالذات هذه الأيام لشبابنا الذين ربما يظنُّ بعضهم أن السعادة وإنصلاح الأحوال في أن يعيشوا تلك الحياة الغربية الحديثة من الجنس بلا رادع ولا رابط تحت ستار المدنية الراقية والتطور الإجتماعي والتحرر من الرجعية أو العقد أو الضوابط الدينية!

ولما كنت قد تناولت الردَّ على هذا في محاضراتى المختلفة، ولكني هنا استبدلته بـ "وشهد شاهد من أهلها!"، فلن أورد ردودى وإنما سأنقل الردَّ من أحد أكثر الكتب مبيعا في أمريكا في ٢٠١١ وهو كتاب أسمه الأصلى (Generations in Danger!) أى { أجيال في خطر } وطبع بالعربية تحت عنوان { الإباحيَّة ليست حلاً } لمؤلفته د. ماريان جروسمان[٦] عالمة النفس الأمريكية الشهيرة التى تردُّ محطِّمةً فكرة الجنس الآمن، أو أنَّ حياة الغرب المتحررة من القيود هى جنَّة الشباب وواحة السعادة، فتقول:

(إن عدوى متنقِّلة إسمها "إتش بى فى" المسببة للأيدز هى الأكثر شيوعاً كمرض جنسي، وبعض أنواع عدوى الأمراض الجنسية خطير وممكن أن

٥ الجنس العابر أو الكاجوال هو ممارسة أى أحد للجنس مع أى أحد مادام متفقان وبرغبتيهما، وآمن يعني باستخدام وسائل الحماية المطاطية مع محاولة تقليل عدد الشركاء، فيتجنبوا الإصابة وهو ما ثبت كذبه قطعاً.
٦ الفضل فى تعرفي على الكتاب هو مقال د.عزة بدر بمجلة (صباح الخير) بعنوان: الجنس الكاجوال خطر على المرأة .

يتسبب في السرطان، ولكن هذا الفيروس يكاد يقف وراء كل إصابة بسرطان عنق الرحم[٧]، الذى يقتل سنوياً حوالي أربعة ألاف إمرأة في أمريكا، وهو تقريبا نفس عدد ضحايا مرض الإيدز أيضاً).

وتتساءل د. جروسمان: لماذا يصاب هذا العدد الكبير بالفيروس مع وجود الثقافة الجنسية المكثفة والمحمومة؟ بل إنَّ تعليم ثقافة "الجنس الآمن" يبدأ أحياناً من السادسة الإبتدائية! لماذا لا تفلح التعاليم مع توفر وسائل الحماية في كل مكان وبالمجان! للطلاب؟ لماذا ينتشر الفيروس؟

وتجيب – وننقل باختصار– لأن مجال الصحة التناسلية قد تمَّ إختراقه بإيدلوجيات تروِّج بشدة لمبدأ الإباحية والتجريبية، فبدلاً من استهداف منع العدوى كما كنا سابقاً؛ أصبح هدفنا تقليل المخاطر بترويج ما يعرف بفكرة الجنس الآمن، وهى فكرة قد ثبت فشلها، وأنا أقول في مواجهة ذلك إن عدوى "الإتش بى فى" قابلة للتجنب تماماً، وهى ليست بتبعة محتَّمة للنشاط الجنسي كما تدَّعي نشرات التثقيف الصحى الجامعية في أمريكا لتقنع الشباب أن الفيروس يصيب الكلَّ وقتاً ما، وهذا منافٍ للحقيقة؛ فعلى الرغم من كثرة أمراض الجنس وعددها ٢٥ مرضاً متنوعاً، ومع وجود ٢٥ مليون حالة إصابة جديدة منها و٢٠ مليون إصابة بالإيدز سنوياً، وأيضاً إصابة ٤٣% من فتيات الجامعة بأمريكا ممن قمن بالفحص الطبى بالفيروس القاتل وهن مرشحات لسرطان عنق الرحم، فمع هذا كله؛ فإن الذين يتمتعون بحماية كاملة من الإصابة هم من لم يمارسوا الجنس حتى الزواج وإذا ما تزوجوا التزموا الإخلاص الجنسي.

٧ يمكنكم أيضا العودة إلى كتابنا " المؤمنات القانتات" وهو منشور على موقعنا بالشبكة مجاناً، الدرس الخامس عشر: تكريم الإسلام للمرأة، مبحث: وقاها من أمراض الجنس والسرطان، ومبحث : أعطاها حقوقها الجنسية.

وفى موضع آخر تقول: (وبعد أن كنا في الثمانينات نعتبر الشذوذ والسادية والمازوكية[٨] من الإضطرابات العقلية، أصبحت رابطة النفس الأمريكية لا تصنفها كذلك إلا إذا سببت لصاحبها قلقاً أو إعاقة، وأصبحت نشاطات المثليَّة (الشذوذ) تعتبر ترفيهاً في عرف إدارة الجامعة).

وهاية تكشف السرَّ وتقول: (وفي كتاب عن تلك الحالة الخطيرة كتب رئيس سابق للرابطة النفسية الأمريكية يقول: يوجد الآن لدينا الإحساس الباطن بالترويع الفكرى الموجود تحت مظلة الصواب السياسى[٩]، وهو ما صرح به مؤخراً بعض علماء النفس وراء الكواليس؛ أن مجال علم النفس وعلم الإجتماع قد تمت السيطرة عليه من قبل أجندة ليبرالية متطرفة، وأن بعض وجهات النظر تتعرض للتشهير والقمع، وهناك قصص رعب من الإسكات والتهديد)، وأضافت جروسمان: (لقد كنت أحتفظ بآرائي لنفسي من الخوف، وكنت أختبيء في الخزانة ولكن طفح الكيل ولم أعد أتحمل شعور الغضب! ولذلك قدمت هذا الكتاب للنشر) انتهى، ولا تعليق.

إذاً رأينا أنَّ العلم الحديث وحده، أو النهج الغربي للحياة الحديثة ليس هو سبيل الإصلاح أو السعادة المنشودة للأفراد والمجتمعات .. فأين السبيل إذاً؟ .. وكيف الطريق لإصلاح وخلاص الأفراد والمجتمعات؟

ولنجيب على ذلك فلنلج الآن إلى رواق المدخل أو التمهيد للإجابة أخي الكريم، وهو رواق عجيب تهبُّ علينا منه نسمات الغيوب مما أنبأنا به الحبيب المحبوب ﷺ، فهيا معاً إخوانى الكرام إلى الفصل الثانى :

٨ السادية والمازوخية أمراض نفسية حياتية وجنسية، الأول يعني التلذذ بتعذيب الغير، والثاني التلذذ بتعذيب النفس.
٩ أى أن أمريكا قائدة العالم ورائدة التحرر المطلق من جميع القيود وأن ما تفعله هو الصواب ويجب أن يقبل الكل بهذا.

الفصل الثاني: مدخل إلى المَنْهَجُ الإسلامي في الإِصْلاحِ

إطلالة من وراء الغيوب!

إن رسولنا المصطفى ﷺ قد نفذ ببصيرته النورانية من خلال حجب الزمان والمكان وأطلعه مصرِّف الأكوان ﷻ على ما سيكون في مستقبل الزمان! فأخبرنا ﷺ عن أيامنا هذه، وخبَّرنا ما سيحدث لنا فيها، وما سيحدث بيننا وحولنا! وكأنه يعيش بين ظهرانينا، فقد قال ﷺ: { ستكونُ فِتَنٌ }[١٠] ، ووصفها ﷺ وصف الرائى بعينيه فقال في روايات عدة:

{ فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيَبِيعُ قَوْمٌ دِينَهُمْ بِعَرَضِ الدُّنْيَا }[١١]

وأخبر بتلبُّسها على الناس واشتباهها عليهم فقال: { مشتبهةٌ كوجوهِ البقَر، لا تدرون أيُّها من أيِّ الفتن }[١٢] ، وأخبر أيضاً بترادفها وبتتابعها واشتدادها: { يتبَعُ آخِرُها أولَها، الآخِرَةُ أشدُّ من الأُولى }[١٣] ، ووصف ﷺ شدة تأثيرها قائلاً: { فتَصْدُمُ الرّجُلَ كَصَدْمِ جِباهِ فُحُولِ الثِّيرانِ }[١٤]

يكفي هذا؛ ثم نعود لحديث عليّ ﷺ، قال ﷺ:

{ ستكونُ فِتَنٌ، قلتُ: وَمَا المخرجُ مِنْهَا، قالَ: كتابُ اللَّهِ، كتابُ اللَّهِ فيهِ نبأُ مَا قبلَكُم وخَبَرُ مَا بعدَكُم، وحُكْمُ ما بينكم، هُوَ الفَصْلُ لَيْسَ

---

١٠ سنن الدارمي عن علي ﷺ وكرم الله وجهه.

١١ مصنف ابن أبي شيبة عن أنس ﷺ

١٢ نعيم بن حماد عن حذيفة بن اليمان ﷺ

١٣ عنْ أبي مُوَيْهِبَةَ ، مولى رسول اللَّهِ ﷺ ، سنن الدارمي

١٤ عن جُندب بن سُفيانَ ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَجِيلَةَ، مصنف بن أبي شيبة

بالهزلِ، هُوَ الذي منْ تركَهُ مِنْ جبارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابتغَى الهُدَى في غيرِهِ أضلَّهُ اللَّهُ، فهُوَ حَبْلُ اللَّهِ المتينُ وَهُوَ الذِكْرُ الحكيمُ، وَهُوَ الصراطُ المستقيمُ، وَهُوَ الذي لا تزيغُ بِهِ الأهواءُ، ولا تلتبِسُ بِهِ الألسنةُ، ولاَ يشبَعُ مِنْهُ العلماءُ، ولا يَخْلَقُ عنْ كَثرةِ الردّ وَلاَ تنقَضِي عجائبُهُ، وَهُوَ الذي لم ينتهِ الجنُّ إذْ سَمِعَتْهُ أنْ قالوا: {إنَا سَمعنا قرآناً عَجباً}، هُوَ الذي مَنْ قالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ عمل بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ دَعَا إليهِ هُدِيَ إلَى صراطٍ مستقيمٍ }[١٥]

وسأزيدكم حديثا فوق هذا الحديث! وهو حديث شريف أنتم أيضا تعرفونه جميعاً منذ الصغر بل تحفظونه بروايات!، قال ﷺ: { إِنِّي قد خَلَّفْتُ فِيْكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا مَا أَخَذْتُمْ بِهِمَا، أو عَمِلْتُمْ بِهِمَا: كتابَ الله وسُنَّتِي، ولَنْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الحوضَ }[١٦]

وما الجديد هنا؟!! كلنا نعرف أن الإصلاح في الكتاب والسنة! والسبيل من الكتاب والسنة! والواقع يحكى أنَّ القرآن وكتب الحديث صارا في كل مكان في المساجد والبيوت والسيارات والجيوب! نسخاً ورقية وأخرى رقمية على المحمول والكمبيوتر وغيرها! وصرنا ما شاء الله! قد كثر القراء والحفَّاظ والفقهاء والوعاظ! ما أكثر التسجيلات والفضائيات وقرآن يتلى بالليل والنهار! وما أكثر الإذاعات والإنترنت! والمعاهد العلمية والجامعات الدينية! ودور التحفيظ والجماعات الدينية! وحتى كل ما هو وراء الخيال!

هذا هو الواقع! فلمَ زادت الأغلال وساءت الأحوال؟! لِمَ يزداد الحفاظ والقرَّاء ويتزايد الجهَّال ويزيد الفقراء؟! لِمَ يزداد الوعَاظ ويقل

١٥ سنن الدارمي عن على ﷺ وكرم الله وجهه، ومثله فى الترمذى
١٦ المستدرك على الصحيحين، والسنن الكبرى للبيهقي عن أبي هريرة ﷺ

الإتعاظ؟! لِمَ لَّما استوطنت علوم الدين ديارنا رحلت الراحة السعادة عن بيوتنا؟! لَمَ يهرب المسلمون من الديار لموطن الكفَّار والفجَّار، ويرفض هؤلاء أن يأتوا بلادنا إلا بقدر ما ينهبون ثرواتنا ويسلبونا خيراتنا! ويزرعوا المزيد من الشقاق والبغضاء بيننا؟!.

ما الأمر إذاً؟ وكيف صرنا إلى ما نحن فيه؟ هل هى إزدواجية نحياها؟ أم قضية التبست علينا فحواها؟ هل خطة الإصلاح واضحة؟ أم هو فقط تشدُّقٌ بالكلام أو إلقاء الملام! أم بحث عن أدوار في الزحام؟ .. هل هو كل هذا معاً؟ أم اختلطت الحلول وأظلتنا فتن نبوءة الرسول؟ أليست تلك هى الفتنة أيها الناس؟! أليس هذا هو الإشتباه والإلتباس الذى حذَّرنا منه سيد الناس؟! فتنٌ مشتبهةٌ كوجوه البقر! ألا تكاد الرؤوس تتحطم من هول ما يجرى! وصرنا كمن صدمتهم فحول الثيران!

ونكتفي بتلك الإطلالة عبر الغيوب الآن بعد عودتنا للواقع المدان! وتعالوا لنستكمل معاً جولتنا عبر المدخل إلى الإصلاح! ولنا فيها سؤالان:

أولاً: من يقود مهمة الإصلاح؟

ثانياً: ما أساس أو ما سرُّ النهضة الإصلاحية على الحقيقة؟

أولاً: من يقود قاطرة الإصلاح؟

أرسى الإسلام المبدأ الأساسي والمنطلق الأول للتغيير أو بلغة العصر لإصلاح الأفراد والمجتمعات في أول آية نزلت من كتاب الله تعالى بقوله تبارك اسمه وتعالى جدُّه: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴾ (١-٤العلق)

فكانت أول كلمة من القرآن يعلمها ﷺ لمن آمن به هي اقرأ، وكانت أول آيات صدح بها نبي الإسلام في آذان البشرية في جدب تلك البرية التى خرج منها سيد الأنبياء لهداية البشرية جمعاء ورفع العنت عنها والشقاء هى الأمر بالعلم والتعلُّم وإعمال العقل كما جاء أمر السماء!

وقد كان سيِّد المرسلين ﷺ دائما ما يقول لإصحابه وللأمة من بعدهم: { إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلماً }[17] ...، ولذا كان من هديه في تربية أصحابه أن يجمعهم من وقت لآخر ليزكِّي نفوسهم ويرقِّق قلوبهم، ويصحِّح أحوالهم، ويزيدهم علماً بربِّهم .. وبكتابِ ربِّهم .. وبنبيهم ... وبشرعهم ..، تطبيقاً لقول الله ﷻ له: ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ (٦٣النساء).

إنها التربية الإيمانية المستمرة أو إن شئت أن تقول بلغة العصر التنمية البشرية المستدامة على الأسس النبوية والمفاهيم القرآنية!

فكان ﷺ إجمالاً يربيهم ويعلمهم قولاً وفعلاً كيف يصلحون أنفسهم فيكونوا نواة إصلاح أسرهم، فمجتمعهم الصغير، فالكبير! وهذا عين القصد من الدين، لأن الإصلاح هو رِسَالَةُ الْمُرْسَلِين والنبيين في كلَّ وقت وحين! ذلك لأن الله جعل تأسيس إصلاح أمور الدنيا والدين على الأنبياء والمرسلين، فإن ذهبوا ينوب عنهم في تطبيق مناهجهم لإصلاح العباد والبلاد العلماء العاملون بالشرائع التى جاء بها الأنبياء والمرسلون.

ولذلك فإن السبيل المحقق للنجاح والصلاح والإصلاح هو السبيل الذى جاء به رسول الملك الفتاح ﷺ، و من يقود المهمة ويقوم عليها هم العلماء العاملون، فالإصلاح هو رسالة العلماء والصالحين والأولياء، من بدء

١٧ (هـ) عن ابن عمرو ﷺ (ز)، جامع المسانيد والمراسيل

الدنيا إلى أن يرث الله ﷻ الأرض والسماء، ولذا ورد في الحديث الشريف: { الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ } و { العلماءُ خُلَفاءُ الأَنْبِيَاءِ }[18]

هل الرسل والأنبياء أو علماء الدين سيبنون المصانع أو العمارات! أو يستصلحون أرضاً ويملئوها بالزراعات؟ أم سيحضرون لنا ذهباً وجنيهات؟!

وقد سبق وأجبنا في الفصل السابق أن المال وحدهُ لا يصنع الإصلاح، ولكن وحتى لا يتوهَّم أحدٌ من تساؤلنا أننا نقلل من شأن من سيشيدون المصانع أو العمارات أو يقيموا الزراعات، فإننى أقول أن أمر سبيل إصلاح الأفراد والمجتمعات لا ينتهي عند العلماء العاملين ورثة الأنبياء والمرسلين، الذين يرسمونه للأمة منهج الإصلاح المبين، ولكنهم بلغة اليوم يضعون الدستور الأساسي لخطة الإصلاح، فيُقعِّدون القواعد والركائز والأسس التي تبنى عليها كلُّ برامج الصلاح والإصلاح! فالعلماء العاملون بالدين يضعون دستور إصلاح الأمة على نهج المرسلين بما يناسب الزمان والمكان.

أما الوسائل التنفيذية والمذكرات التفسيرية والحلول العملية والتطبيقية لتلك الخطط الإصلاحية في المناحى الحياتية تكون كما قال ﷻ: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (النحل).

فعلى الأمة كلها إن أرادت الصلاح والإصلاح أن تتبع منهاج العلماء العاملين القائم على الشرع والدين، ثم تجعل الأمة مرجعيتها بعد ذلك في كل ناحية من نواحي حياتها لأهل الذكر في تلك الناحية، أى كما نقول اليوم لأهل العلم والعلماء والخبرة والدراية.

وهذا يوجِّه أفهامنا إلى أنه لتكون خطط الإصلاح والنهضة شاملة

[18] الأول: جامع المسانيد والمراسيل، ابن النجار عن أنس ﷺ، والثاني: مجمع الزوائد عن أبي الدرداء

ودائمة ومتطورة ومؤيدة من الله! فلا بد للأمة أن ترسم خطط تربية أبناءها لتصنع كوادرها العلمية وأهل الذكر الذين يدينون لها ولدستور إصلاحها بالولاء من الألف للياء، فهى خططٌ إصلاحية وتربوية متكاملةٌ متَّفقة مع الدين، وسنة سيد المرسلين، وفقه أهل اليقين من العلماء العاملين، وقد فصَّلنا ما يخصُّ تربية الأبناء بجلاء في كتابنا { تربية القرآن لجيل الإيمان}.

وهنا تحضرنى كلمات قليلة للسيد مهاتير محمد رائد النهضة الحديث لدولة ماليزيا والذي استطاع أن يقود مسيرة الإصلاح في العصر الحديث لتلك الدولة من خلال الفهم الإسلامي الصادق والمستنير قال فيها :

{ إن أول ما دعا إليه القرآن هو اقرأ، وهذا لا يعنى أن نقرأ القرآن وحده، ولكن هى دعوة للمعرفة التى لا يمكن أن تجعلنا نتجاهل أهمية التعليم والذى يتطلب ألا نعمل بمفردنا ونناًى عن معرفة كل شيء }.[١٩]

ثانياً: التربية الإيمانية سرُّ النهضَة الإصلاحية

كيف صنع سيدنا رسول الله ﷺ كياناً جديداً لأمته؟ كيف غيَّر حالهم وبدَّل واقعهم؟ وما الأساس الذي أرساه ليحدث هذا التغيير والتبديل الدائم والمستمر؟ كيف حوّلهم ﷺ من أحوال الجاهلية التي كانوا غارقين فيها وجمَّلهم بأحوال مختلفة مازالت موضع عجبٍ كلِّ البرية من يومها وإلى يوم الدين؟!

إن النبى ﷺ تمكَّن في مجتمع المدينة وفيما يقرب من العشر سنوات أصلح الأفراد جميعهم، فالأُسر، فالمجتمع كله، ومنه انطلقوا إلى الوجود بأسره بالتربية الإيمانية التي وضع ﷺ من خلالها الأسس الراسخة للإصلاح قولاً

١٩ من مقال نشر بالأخبار ١٢/٢/٢٠ للأستاذ جلال دويدار بعنوان : روشتة علاج ماليزية لأوجاع مصر الثورة.

وعملاً في جميع النواحى بدءاً من العقيدة إلى أى تفصيل شئت.

ثمَّ انتقل ﷺ للرفيق الأعلى وتعداد أمته مائة وأربعة وعشرون ألفاً، منهم ثمانية ألاف من البارزين على درجاهم، ثم انطلقت تلك الأمة الوليدة وأحثَّت السير على نفس المنهاج ليصلحوا أحوال العباد وينشروا الخير والحقَّ والعدل في البلاد، وتبعهم أسلافهم من بعدهم على نفس الأسس التربوية الإيمانية، حتى تمكنت أمة الإسلام في سنوات قلَّة من إزاحة الأمم الكبرى عن عروشها! وتربعت هى على عرش الوجود الإنساني والأخلاقي والإجتماعي والإقتصادي والعلمي والعسكري والتنموي في العالم كله![٢٠]

بل ولكى نعلم أنَّ هذا الذي صنعه بهم ﷺ قابلٌ للتطبيق في كل زمان ومكان، نجد أيضاً أنَّ الأمة نفسها كلما حاقت بها شديد الظلمات نجد لها وقفة تهُبُّ فيها من سُباتها وتنفض غبار الكسل واللامبالاة عن شبابها، وتهُبُّ فتستعيد أمجادها !! .. حدث ذلك كثيراً وأنتم تعلمون ذلك جيداً بمطالعة تاريخنا العظيم ! فما السر؟!

هناك قاعدة للإنطلاق! كلما عادت لها الأمة وأنطلقت منها تجاوزت كبوتها! ونالت مرادها! .. وسادت زمانها! .. واستمرت على تسيُّدها ما حافظت عليها، فإذا فترت عزيمتها وقلَّت همَّتها وحادت عن السبيل ضاعت هيبتها وتلاشت سيادتها شيئاً فشيئاً حتى تصبح كثرتها كغثاء السيل! كما نرى!!!

فما السرُّ في ذلك؟ ما سرّ نهضة الأمة في عصر النبى وصحابته الأخيار؟ وما سرّ نهوض الأمة من كبوتها تارة في مواجهة المغول؟ وتارة في مواجهة الصليبيين؟ ومرة مع الدولة العثمانية التى اجتاحت أوروبا كلها ناشرة للإسلام؟ وغيرها من المرَّات والمرَّات التى ظهرت فيها قوة الإرادة، ما السرُّ في ذلك كله؟.

٢٠ من أراد التفصيل فليقرأ كتابنا{ كونوا قرآنا يمشى بين الناس}، الباب ٥و٦ : ص ١٦٥-٢٤٣.

ولأسهِّل الأمر عليكم وأقرِّب لكم المسألة: سأسألكم ما أول الأمور التى علَّمها النبى للأمة؟ هل علمهم الصلاة التى هى عماد الدين؟ لا! لم يعلمهم الصلاة أولاً!

بل جلس معهم ﷺ اثنى عشرة عاماً في دار الأرقم بن أبي الأرقم إلى أن فرضت الصلاة – لأن الصلاة فرضت قبل الهجرة بعام والرسول ﷺ مكث في مكة ثلاثة عشر عاماً – فماذا كان يفعل معهم كل تلك الأوقات؟؟ ماذا كان يعلِّمهم؟ أو يقول لهم؟ ... كان ﷺ يربِّيهم! .. وهذا هو السرُّ .. هذا هو سرُّ النهضة ... التَّربية الإيمانية!

كان يزكِّي النفوس .. ينقِّى القلوب، .. يطهِّر الصدور!! وبإجمال يربِّي أصحابه على الخلق القويم والنهج المستقيم! أى يقوم بتشكيل عالم أصحابه الداخلي "القلوب" تشكيلاً متكاملاً على أسس الدين الجديد، كان عليهم أن يتمُّوا ذلك داخلياً قبل أن ينطلقوا لإعادة تشكيل واقعهم خارجياً، وهذا هو لبُّ سرِّ الإصلاح والتنفيذ العملي الذى طبقه ﷺ لقول المنعم الفتَّاح لدعاة التغيير والنجاح والفلاح والإصلاح: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾(١٠الرعد)، وفي ذلك يقول د. محمد عمارة:

{ وعلى إمتداد المرحلة المكية– ثلاثة عشر عاماً– أى أكثر من نصف عمر الرسالة– كانت الصناعة الثقيلة التي أقامها رسول الله ﷺ هي إعادة صياغة الإنسان، بإقامة الأصول وتجسيدها في القلة المؤمنة، وفي دار الأرقم بن أبي الأرقم – مدرسة النبوة والمؤسسة التربوية الأولى في تاريخ الإسلام– كانت صياغة القلوب والعقول بخلق القرآن وقيم الإسلام }[٢١].

٢١ فى مقالة بمجلة الأزهر ٤/٢٠١٢، بعنوان: المنهج الإسلامي فى الإصلاح.

وقد نظرتُ بفكرٍ ويقين في هذا الأمر فاستجليت صورة سيد الأولين والآخرين ﷺ ، فوجدت الأمر الجامع لشتات الأمة وبزوغ أنوارها وإظهار فتوة وبطولة شبابها، وانتصارها على أعدائها، وتحطيمها لكل من يريد كيدها لا يحدث إلا على أيدي رجال تربُّوا على منهج الحبيب ﷺ وأخذوا بالأمة معهم على ذلك النهج.

فالأمر الفصل هو في التربية الإيمانية اليقينية التى رسَّخ بذورها ووضع أحكامها ومبادئها سيدنا رسول الله ﷺ ، ومن بعده ساروا على هديه في ذلك، هذه التربية التى بدأها ﷺ مع صحبه الأجلة وتدور أولاً على القيم الإيمانية والمكارم الأخلاقية التي أثنى عليها الله وامتدحها في كتابه، والتى كان عليها في سلوكه وفعاله وكل أحواله رسوله ﷺ.

– فالتربية الإيمانية اليقينية لاتعتمد على المال!ولا على قوة التكنولوجيا! ولا خيرات الأرض! ولا قوة العِدَد والآلات! ولا صلابة الأجسام! .ولا القوة العددية.

– ولكن تعتمد على صلابة النفس في التخلق بأخلاق الله والتمسك بقيم كتابه، والتشبه في كل حالٍ برسول الله ﷺ في أخلاقه وقيمه، وأهمها وأبرزها الوصول إلى درجة اليقين الذى يصحبه الزهد في الدنيا والعمل لإرضاء رب العالمين ﷻ، فإن المسلمين ما أخذوا ولا غُلبوا في زمان من الأزمنة إلا بالتنافس في الدنيا والتحلل والتفسخ من الأخلاق الكريمة التي جاء بها الله والقيم التي جاءنا بها رسول الله ﷺ.

التربية الإيمانية مفجِّر الطاقات الربانيَّة

وعلى هذه الأسس الفعَّالة ربّى النبى ﷺ أصحابه الأجلاء بإتقان محكم، ففجّر فيهم هذه الطاقات الربانية التي استودعها فيهم رب البرية، وكل إنسان فيه طاقات لايعلمها إلا الكريم الخلاق، لكن أغلب الخلق يتكاسل ويتخاذل ويظلّ حتى يأتيه الموت ولم يستغل عُشر معشار الطاقات التى أودعها فيه الخلاق ﷻ، بل ويسلِّمها كما هي لله

ﷻ .. سلَّم الأجهزة عند وفاته كما هي لم يستخدمها .

فالداعى صاحب البصيرة هو الذى يُفجر هذه الطاقات فيمن حوله حتى يصير الرجل العادى من أصحابه بعشر: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ (٦٥الأنفال)، فيكون الرجل بكم ؟ بعشرة، وهذا كان حال جند المسلمين الذين رباهم سيد الأولين والآخرين ﷺ ، ولذلك عندما تنظر في معاركهم تجد محققٌ فيهم قول الله: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٢٤٩البقرة)

في كل المعارك أم لا؟ .. نعم! في كل المعارك!! ... بهذه الشاكلة وعندك التاريخ ابحث فيه واشهد!، لم يقاتلوا لمغنم أو دنيا، ولم يجاهدوا لمصالح عاجلة أو شهوات فانية، ولا طلباً للزعامة ولا الرياسة ولا للفخر والمباهة والرياء! لأنهم تربُّوا على الإخلاص في قصدهم وفي كل أحوالهم وفي جهادهم .

وهذا بالفعل ما نفتقر إليه كمسلمين الآن في كل مكان، الكل ينافس إمَّا لمنصب أو مصلحة أو منفعة! للفخر أو الرياء والسمعة والشهرة! لكن لو التنافس كله لله، هل سيحدث إختلاف؟ لن يحدث أبداً! إذاً لماذا الإختلاف؟ لتنوع المقاصد وتضارب المآرب، ولو كان مقصد الكلِّ ربِّ الكلِّ ﷻ، ما حدث إختلاف!

ما إختلاف النفوس والقصد واحد		والصراط السوى للمتواجد

صور باقية لتأثير التربية

ولنرى معا عبر التاريخ لقطات فارقة وومضات خالدة! يظهر فيها تأثير التربية الإيمانية .. أو لحظة إنطلاق الطاقات البشرية والمواهب الربانية.

وفى أمثال هؤلاء الرجال الذين يقودون سفن نهضة الأمة والذين سنضرب لهم أمثالاً من تاريخهم الحى الملهم .. يقول الإمام محي الدين بن عربي ﷺ:

أبو بكر الصديق

[لو ظهرت روح أبو بكرٍ الصديق ﷺ، لهزمت جيشاً بأكمله]

وقد صدق لأن لأبي بكر الصديق مواقف متنوعة ومتعددة، كلٌّ موقف منها تـــاجٌ يتلألأ على مفرقيه يحكى درساً خالداً في التربية الإيمانية التي ربَّاه عليه سيدُّ البرية.

وقد تعمدت أن أختار لكم أمثلة من حياته بعد الـــنبي ﷺ لتفهمـــوا أن العمليـــة التربوية لإصلاح أحوال الأمة منوطة بالأنبياء والمرسلين ثم من بعدهم بالعلمـــاء الـــصالحين العاملين كلٌّ في زمانه، لأنهم هم من يكيفوا الآداب المحمدية والتربية النبويـــة والأخـــلاق القرآنية على الوقائع الحياتية وباللغة والمصطلحات الآنية، فيحـــدثون الإصـــلاح الـــلازم والتغيير المنشود! وانظروا كيف يمكن للمربِّى الصادق وحده أن يؤثر في أمة كاملة!!

فالتاريخ لا ينسى ثبات أبي بكر ورباطة جأشه عند وفاة النبى ﷺ لَّما انهارت الصحابة من هول المفاجأة، ولكنه استكمل الورشة التربوية الإيمانية نيابة عن الحضرة المحمدية بعد الوفاة مباشرة ودون أن يطلب منه أحد، وقال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات! ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌ لا يموت! وتلا عليهم الآية:
﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ (١٤٤آل عمران)

فأنقذ الأمة بثباته ونصبته الأمة قائداً لورشة التربية في المرحلة الجديـــدة، بعـــد أن كان عضواً فيها، وموقفه ﷺ في حروب الردة، وحروب مانعى الزكاة، وإنفـــاذه جـــيش أسامة بعد وفاة النبي، وخروجه للعمل صبيحة توليه خلافة المسلمين! وفي الليل يقوم علـــى خدمة العجائز والمرضى والمحتاجين دون أن يعرفوا أنه خليفة المسلمين، وقبـــل وفاتـــه ردَّ لبيت مال المسلمين كلَّ ما أخذه من أجر طيلة مدة خلافته! .. إنها التربية النبوية!

المقداد بن عمرو رضي الله عنه

كان القائد يُرسل لعمر بن الخطاب ﷺ وهو في ميدان القتال ليطلب مدداً للجيش، فيمده عمر بفرد أو أفراد!! فمثلاً: أرسلٍ له سيدنا سعد بن أبي وقاصٍ في موقعة القادسية في العراق يطلب المدد، فأرسل إليه رجلاً واحداً وأرسل له:

{ أرسلت إليك المقداد بن عمرو ولن يُغلب جيشٌ فيه المقداد بن عمرو }

وصدقت فراسته فإن العدو تناوش الجيش وهمّ بعض أفراده بالتخاذل والتقهقر، فصاح المقداد وهجم بمفرده على جيش الفرس المتقدم، وتحمَّس لخروجه نفرٌ من المسلمين فتبعهم الباقون وكان ذاك سبب النصر، وروي أنه قطع خرطوم الفيل الأعظم فكانت هزيمتهم، ولا يستطيع الوصول لذلك الفيل فضلاً عن قطع مشفره أحد!

وغنم المقداد في فتح المدائن أدرع كسرى وفيها درع هرقل ودرع لخاقان ودرع للنعمان وسيفه وسيف كسرى فأرسلها سعد جميعها إلى عمر، وهذا المقداد بن عمرو هو الذي لما استمدَّ خالدٌ أبا بكر عندما حاصر الحيرة أمده أبو بكر ﷺ بالمقداد بن عمرو، وقال: **{ لا يهزم جيش فيه مثله }**[٢٢]

الإمام الشافعى رضي الله عنه

فليست العبرة بالجسم وقوة الجسم، ولكن العبرة في الروح التي تسكن هذا الجسم، يقول في ذلك الإمام الشافعى ﷺ[٢٣]:

٢٢ الإصابة في تمييز الصحابة

٢٣ وللأبيات قصة: قال بن سليمان: صحبت الشافعي في سفر فدخل الحمام، فتقدم المزين ليخدمه فاستدعاه رجل غني فتركه ومضى الى الغني، فلما خرج الشافعي قال: اعط الحمامي باقي نفقتي، فقلت: نبقى بلا نفقة، وهذا لا يعرفك، قال: أعطه! فأعطيته دنانير كثيرة، فاعتذر المزين إليه وقبلٍ يديه ورجليه، فأنشد الشافعي: على ثياب..، ذيل تاريخ بغداد وغيره. الفلس: أقلّ من القرش، غمده: جرابه، عضبا: قاطعاً، فرى: قطع.

عَلَيَّ ثِيَــابٌ لَــوْ تُبَــاعُ جَمِيعُهَــا بِفَلْسٍ لَكَانَ الْفَلْسُ مِنْهُنَّ أَكْثَـرَا
وَفِيهِنَّ نَفْسٌ لَـوْ تُقَــاسُ بِبَعْـضِهَا نُفُوسُ الْوَرَى كَانَتْ أَجَلَّ وَأَكْبَرَا
وَمَا ضَرَّ نَصْلَ السَّيْفِ إِخْلاقُ غِمْدِهِ إِذَا كَانَ عَضْبَاً حَيْثُ وَجَهْتَهُ فَرَى

السيف نصله شديد ولكن جرابه مُمزق! لا يهمّ، ليس المهم الـزّى ولا المظهـر، ولكن المهم من يسكن في هذا المظهر الذى فيه اليقين والتمكين وصـدق الإيمـان وفيـه صلابة العقيدة التى تلقاها من حضرة النبى أو من ينوب عنه ﷺ .

وقد صدق الشافعى رضي الله عنه فإنه كان روحاً واحدةً ولكن انظروا كيف فعـل بـسنة رسول الله ﷺ ومن ربَّى وماذا ترك للأمة؟ وكيف صاغ السنة النبوية في مذهبـه لأهـل العراق! ثم غيره بما يناسب أهل مصر! إنها بصيرة العلماء العاملين والمربين الربانيين.

رجالٌ الواحد بألف

وخذوا نموذجاً رابعاً: لما حاصر عمرو بن العاص حصن بابليون في مصر، وطـال الحصار وعلم أن الروم جاءهم مدد وبلغ عدد جيش الروم مائة وعشرين ألـف مقاتـل، وكان جملة ما معه من جنود المسلمين أربعة آلاف، فأرسل إلى عمر بن الخطـاب يطلـب المدد، فأرسل إليه عمر رضي الله عنه أربعة آلاف جندى ومعهم أربعة رجال ورسالة:

[أرسلت إليك أربعة آلاف جندى وأربعة رجال هم الزبير بن العوام ومسلمة بن مخلد وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود [٢٤] ، وكل رجل منهم بألف فيكون جيشك إثنى عشر ألفا، ولا يُهزم جيشٌ من إثنى عشر ألف مقاتل [٢٥]]

٢٤ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، وقيل خارجة بن حذافة بدل مسلمة، وفى وفيات الأعيان ذُكِرَ أنَّ عمرو بن العاص استمدَّ عمر رضي الله عنه بثلاثة آلاف فارس،فأمده بخارجة بن حذافة والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود الكندي.
٢٥ إشارة إلى الحديث الشريف: { وَلاَ يُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً مِنْ قِلّةٍ}. أخرجه أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه، وفى مسند الشهاب زيادة { إذا صبروا وصدقوا}.

يعنى الرجل من الأربعة بكم ؟ بألف .. هذا المعنى مُقتبسٌ من قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ (١٢٠النحل)، رجلٌ واحد ولكن يساوى أمة، ليس في مظهره ولا قوته البدنية ولكن في جوهره وخبره وقوته الروحانية وصلابته القلبية، ونفسه القدسية التى غُذيت بما عند الله ﷻ من اليقين.

عزل خالد بن الوليد

ولذا كنت ترى خليفة الأمة يرى أن القائد العام يترك منصبه ويتحوّل إلى جندي، ولا يتأثر القائد ولا يتغير ولا يفتر ولا يترك الجهاد ويذهب إلى مترله معترضاً على هذا التصرف، بل إن خالد بن الوليد ﷺ عندما كان في رتبة تعد أعلى من قائد الجيش- باعتبار علو الرتبة العسكرية العليا تكون بعدد المعارك التى خاضها، ولايوجد في التاريخ قائدٌ خاض أكثر من مائة معركة وانتصر فيها كلها، وكل معركة لها تكتيكٌ جديد يحتاج إلى مدارسة كلية الأركان في أنحاء العالم كخالد بن الوليد – ومع ذلك جاءه خطاب العزل وهو في معمعة القتال! والعزل يعني أن يصير جندياً ولا يُعفي من الخدمة! فرضي وأطاع الأمر! وجاءه أحد المنافقين وقال: كيف تُعزل وأنت من أنت؟! إن معي مائة ألف سيف أوقفتها معك! فلا تنفذ الأمر وكلنا معك! قال: بئسما ما تطلبه مني يا أخي!، أنا مجاهدٌ في سبيل الله ولا يهمني في ذلك أن أكون قائداً أو جنديا!!.

نحن في أمسِّ الحاجة إلى نفوس تربت هذه التربية، لأن خالداً لم يكن مقتنعاً بقرار عمر لأنه لم يخطيء حتى يعاقب، ولكنه يعلم أن عمر عزله خوفاً على المسلمين أن يفتنوا بخالد في الحرب، وعمر يربي الأمة على كمال اليقين بالله، فانحاز خالد لمصلحة الجماعة بلا جدال ولا نقاش، لأنه تربَّى التربية الإيمانية على المائدة المحمديَّة؛ وهذا بالضبط ما يحتاج إليها المجتمع المسلم لينهض من كبوته وليعيد مجد الأمة مرة أخرى!

فكيف نتوصَّل لذلك؟ هل بالكتب والقراءة والإطلاع كما يقول البعض؟ هل

بالخطب والمواعظ والفضائيات؟ لا بل باستعادة النهج النبوى للتربية كما قال ﷺ:

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ (١٥١البقرة).

عقبة بن نافع

لو ذهبنا بعد ذلك في تاريخنا المبارك لوجدنا أن هؤلاء الرجال هم الذين قادوا الفتوحات الإسلامية، إبتغاء وجه الله.

انظر إلى عقبة بن نافع عندما وصل إلى المحيط الأطلسى وخاض البحر بفرسه وقال: { **والله لو أنى أعلم أن هناك أرضاً خلف هذا البحر، لخُضت هذا البحر إليها لأجاهد في سبيل الله ﷺ** } !! .. لا ليكون مليونيراً ولا ليجمع ثروات!، ولا ليتولى قيادة! أو ليتبوأ منصباً، وإنما كلُّ ما يريده هو وجه الله جلّ في عُلاه كما قال الله تعالى عنهم: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ (٢٨الكهف)

أبو أيوب الأنصاري

انظر إلى أبي أيوب الأنصاري ﷺ وقد بلغ من العمر أرذله كما يقولون، ولكنهم كانوا يحنون إلى الجهاد كما تحن الطيور إلى أوكارها في المساء، سمع أن معاوية جهّز جيشاً لغزو القسطنطينية، فذهب ليجاهد معه، وفي وسط الميدان مرض، فجاءه قائد الجيش يزيد بن معاوية وقال : أتشتهى شيئاً يا صاحب ضيافة رسول الله؟ لأنه هو من أستضاف رسول الله عند الهجرة، قال: [**نعم إذا أنا متُّ احملنى واخترق صفوف الأعداء؛ وآخر ما تصل إليه من الأرض فادفنّى هناك**].

انظر إلى الوصية للرجل التي يوصي بها عند لقاء الله ﷺ، ونفّذ له الوصية بعد

موته، فحمله الجند واخترقوا صفوف الأعداء وآخر مكان وصلوا فيه إلى الأرض حفروا فيه ودفنوه هناك، وهذا المكان بجوار سور القسطنطينية ومازال ضريحه المبارك ومسجده الزاهي إلى الآن يزدهي به أهل هذه البقاع جميعها.

والأمثلة في هذا المجال لا تُعدُّ ولا تُحد، لكن ما أبغي أن أصل إليه، عندما ضعُفت روح اليقين، أو كلما ضعُف اليقين وتنافس المسلمون في الدنيا وفى الحظوظ والشهوات والأهواء .. ضعُفت عندهم روح الجهاد وخبت عندهم القيم الإيمانية، فمكّن الله ﷻ عدوّهُم منهم، ولا مخرج لهم في هذه الأحوال إلا بالرجوع إلى التربية الأولى التي كان عليها رسول الله ﷺ مع صحبه الكرام .. وخذوا أمثلة على ذلك:

نور الدين زنكي

لِمَ انتصر صلاح الدين الأيوبي في حطين وقبله نور الدين زنكي الذي كان صلاح الدين قائداً من قادة جنده في معاركه مع الصليبيين؟

والإجابة: لأن في هذه الفترة ظهر كثيرٌ من الشيوخ المُربين، الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ أحمد الرفاعي، والشيخ عدىّ بن مسافر وغيرهم من المشايخ في نواحى الأكراد وبلاد العراق والشام وفي مصر، وكان أسُ جند نور الدين زنكي وصلاح الدين من أهل هذه التربية، وكان القادة أنفسهم أيضا على نفس النسق .

ونور الدين زنكي، مع أنه كان حاكم الموصل والشام، فلم يملك قصراً، وكان يسكن في قلعة الحكم، ولا تزيد نفقاته عن أفقر رجل في دولته، وكان له ثلاثة دكاكين اشتراهم من غنيمته في حمص يأكل من ريعهم، وكان يصنع بعض الحرف البسيطة ويعطيها لرجل عجوز يبيعها له سِرّاً ليستكمل نفقته، ولما ضجّت زوجته كلمت أخيها ليحثه على الزيادة، فقال المال مال المسلمين وليس لي! فكيف أعطيها وأترك الفقراء؟!! ولكنى أهبها الدكاكين التى اشتريتها من غنيمة حمص، وليس لها عندي غير ذلك.

كان على صلة بالله وبحبيب الله ومصطفاه، ولتعرفوا ذلك: حدث في عصره أن يهودياً أرسلته أوروبا مزوداً بكل ما يحتاج من مال ليستخرج جسد النبى ﷺ ويأخذه إليهم، فذهب الرجل وتظاهر بالإسلام وسكن المدينة وأخذ يُوزع على الناس أموالاً بغير حساب، حتى حسبوه من المُحسنين والمُتصدقين، واشترى داراً قريبة من المسجد النبوي ومن الحجرة الشريفة، وكان يحفر بالليل في الأرض ثم يحمل التراب في كيس ويذهب به زاعماً أنه يزور البقيع ويُلقي فيه التراب، ولما اقترب من الحجرة الشريفة، إذا برسول الله ﷺ يذهب إلى نور الدين زنكي في المنام ويقول: يا نور الدين أدركني! وأراه صورة الرجل، لم يذهب إلى حاكم الحجاز أو اليمن، وإنما ذهب لنور الدين، وذلك لصلاحه.

فذهب نور الدين إلى المدينة فوراً ومعه مال كثير، ولكى يصل للرجل دعى كل أهل المدينة ووزع عليهم العطاء، والرجل لم يأتِ، فقال: هل بقى أحدٌ؟ قالوا: بقى رجلٌ محسنٌ! فدعوه، فلم يأتِ، فذهب إلى بيته، فلما رآه عرفه، ففتش البيت فوجد فيه السرداب الذي يقود إلى أسفل الحجرة النبوية، فقتله، وذهب إلى الضريح النبوي وحفر حوله وحصّنه بالرّصاص حتى لا يستطيع أحدٌ أن يصل إليه ولا أن يقترب منه .

صلاح الدين الأيوبي

كل هذا سُقته لأعرفكم بصلاح هؤلاء من قادوا العباد والبلاد في وسط هذه المهالك، فحقق الله ﷻ على أيديهم النصر، هذا الرجل كان صلاح الدين أحد قادته.

وصلاح الدين الأيوبي وهو من تعرفون، يحكي التاريخ عنه أنه لم تجب عليه الزكاة يوماً في ماله لكثرة إنفاقه وهو في هذا المنصب الكبير، ففى معركة عكّا جهّز الجيش بإحدى عشر ألف فرس على نفقته الخاصة فالنتيجة – والناس على دين ملوكهم – كان أتباع نور الدين والمحيطين بصلاح الدين يتنافسون في هذا الخير وفى هذا العمل.

وكان صلاح الدين مع إنشغاله بأمور دولته وأمور المسلمين لا يترك قيام الليل، وجعل قيام الليل طابوراً ألزم به جيشه وقواته، وكان يُرسل من يفتش عليهم في وقت السحر ليرى ما يصنعون، ليتحقق النصر: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ (٧محمد).

إذاً ما الذي يحقق النصر؟ ... إنها التربية الإسلامية، والتربية الإيمانية، واليقين، والزهد في الدنيا والأهواء والشهوات .

السلطان محمد الفاتح والقسطنطينية

ولنسير مع التاريخ حتى نصل إلى حقبة فاصلة تاريخياً وجغرافيا، قال ﷺ :

{ لتفتحن القسطنطينية فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش }[٢٦]

حاول المسلمون أن يفتحوا القسطنطينية فلا يستطيعون ويعودوا !! وهكذا!

إلى أن جاء السلطان محمد الفاتح، وكان السلطان محمد الفاتح يتربَّى تربيَّة روحيَّة على يد رجلٍ تركي من الصالحين وإسمه بالتركية [آق سُنجُر] وكان رجلاً مُكاشَفاً، وكان السلطان لا يفعل شيئاً إلا إذا استأذن شيخه، فلما حاصر القسطنطينية ، استأذنه عدَّة مرات أن يبدأ في فتح القسطنطينية ؟ فيقول له إنتظر، حتى جاء في يوم وقال له :

[ابدأ اليوم فقد رأيت رسول الله ﷺ أتى وعبر إلى الجانب الذي فيه الروم]

وهنا قد أتى النصر، أمر الجند بالهجوم، فنظروا فوجدوا باباً في الحصن تُرك صدفة ولا يعلمون من فتحه، فدخلوا منه وفتحوا باب الحصن وكان سببا في النصر.

ما السبب؟ ... كان سبب النصر هذه التربيَّة الربانيَّة التى كانوا عليها .

٢٦ الإستيعاب في معرفة الأصحاب، عن الخثعمى.

دولة المرابطين والموحدين

فإذا نظرت في التاريخ إلى بلاد المغرب، تجد أن الدول التى كان لها صولة وجولة في ردّ أعداء الإسلام وخدمة المسلمين، دولاً أعظمها دولة المرابطين ودولة الموحّدين، وكلهم بنفس الكيفية من التربية الإيمانية الصوفية.

فمنشأ المرابطين، كان رجلاً صالحاً إسمه عبد الله يس، وكان يسكن جزيرة، واجتمع عليه كثير من المُريدين فربَّاهم على الروح الإسلامية والقيم القرآنية، فلما زاد عددهم كلفهم بالجهاد، وفي هذا الوقت كان الفرنجة في بلاد الأندلس قد اكتسحوا جزءاً كبيراً من بلاد المسلمين نتيجة لميل حكام المسلمين للهو والغناء والترف وترك الجهاد وتقاتلهم على الإمارة واستعانتهم بأعدائهم على بعضهم! حتى أن آخر خليفة منهم، وهو يوسف الأحمر، لما دخلوا غرناطة – درة أوروبا وقتها– بكى، فقالت أمه : أتبكي مثل النساء على مجدٍ أضعته بين الغوانى والمعازف والملاهي وتركت الجهاد!.

فذهب المرابطون وكانوا من أقوى الجيوش في العالم وقتها، وأدّبوا الفرنجة ووصلوا إلى حدود فرنسا وكادوا يجتازوا الحدود ويدخلون فرنسا ، ثم اتجهوا صوب الجنوب في أفريقيا ... ونشروا الإسلام في موريتانيا والسنغال ومالي والنيجر ونيجيريا، ولذلك هذا الحزام الصحراوي كله مسلمون، من أين ذلك؟ من هؤلاء.

ومن بعدهم جاءت دولة الموحدين وكانت على شاكلتهم في التربية الإيمانية، والإسم واضح: مرابطين لأنهم مرابطون، وموحدين لأن رسالتهم نشر توحيد الله ﷻ .

وتتابعت السنوات ... وأسألكم كيف حققت الدولة العثمانية كل الفتوحات حتى اكتسحت دول أوروبا والدول الغربية في طرفة عين!

الدولة العثمانية والسلطان سليم

أنتم تعلمون كيف فعلوا ذلك تاريخياً؟ أتوا بصبيان وأدخلوهم في مدارس دينية عسكرية، وكان من هؤلاء الصبيان كثير من النصارى الذين أسلموا وتعلَّموا الدين وتعلموا العسكرية وربُّوهم على الفدائية والرغبة فيما عند الله والزهد في الدنيا .. ما كان إسمهم؟ الإنكشارية .. أليس هؤلاء هم الجيش الذى حقق هذا النصر كله !!.

هل حقق ذلك بخبرته العسكرية فقط أم بتربيته؟ بالتربية التى تربى عليها، وهذه التربية هي التي حققت هذا الفتح حتى وصلوا إلى فيينّا في النمسا الآن واكتسحوا الكثير من الدول الأوروبية، ومن الجهة الأخرى وصلوا شاطئ المحيط الأطلسي، وأيضاً اكتسحوا أغلب الدول العربية بماذا ؟ بهذه الروح التى تربوا عليها التربية الإيمانية .

وكان السلطان العثماني أيضاً من أهل هذه التربية، فلذلك أول ما دخل الشام سأل عن مكان قبر مُحي الدين بن عربي، وكان قد قيل: إذا دخلت السين في الشين ظهر قبر محي الدين، فظهر أن السين ترمز للسلطان سليم، والشين هى الشام، فلما دخل سليم الشام بحث عن القبر وجدَّده فأسَّسه وبناه وجعله على الهيئه التى عليها الآن لعقيدته في الصالحين، وكان السلطان سليم حريصاً على أن يحظى بمفتاح الحرمين، وهو أوَّل من تسمّى بخادم الحرمين الشريفين لأن مناه وشرفه العالي هو أن يكون في خدمة الحرمين.

السلطان عبد الحميد

حتى آخر سلاطين العثمانيين وهو السلطان عبد الحميد ...

وكان له شيخاً من بلاد الشام، أرسل إلى شيخه رسالة؛ وهى محفوظة إلى الآن، ذكر له فيها سبب زوال خلافة العثمانيين، وقال له فيها:

{ أن اليهود جاءوه يساومونه لأخذ فلسطين وطناً لهم، فرفض قائلا: لا أبيع مجد آبائي وأجدادى بالمال! } فماذا كتنت النتيجة؟

فدبروا له مؤامرة للقضاء عليه، وتعرف بقصة الرجل المريض وأسقطت الخلافة العثمانية! واشترت أوروبا ولاء قواد وزعماء المنطقة بالملك و الثروة بعد إلغاء الخلافة، وتزعَّم الأمر مصطفى كمال أتاتورك وكان من يهود الدُونمة ؛ فألغى اللغة العربية، وجعل تركيا دولة علمانية صرفة!وفعل فيها الأفاعيل، ولكنه لم يستطع أن يقتلع الدين من نفوس الأتراك! وهاهم يعودون إلى الأضواء من جديد وستشرق شمسهم ثانية قريباً إن شاء الله.

وفي العصر الحديث

وحتى في عصرنا الحديث كان أمر التربية هو المبدأ الذى ركَّز عليه الشيخ حسن البنا دعوته فيمن تبعوه، ومن علمائهم الشيخ سعيد حوى قد ألفَّ كتاباً أسماه [تربيتنا الروحية] كان يؤكد فيه: لا بد من التربية! لا بد من التربية!

وأنتم رأيتم مثالاً قريباً جداً في زماننا هذا: رجل وهو لا يزال حياً يرزق وهو المشير سوار الذهب في السودان الشقيق، رأى الأمور تنحدر في بلده فقام بإنقلاب لُيعيد الأمور إلى مجاريها، وأجرى الإنتخابات ثم سلَّم السلطة للرئيس المنتخب وترك الميدان، لماذا؟ لأنه تربَّى تربية صوفية. لكن لو تربّى في المدارس الأجنبية أوالمدن الأوروبية وحسب، هل سيتصرف بهذه الكيفية؟ في الأغلب لا! لأنه يريد الجلوس على الحكم للأبد! وكل من حوله يعظمه ويبجله ويكبره .

إذاً التربية الإيمانية هي المخرج

وهنا أّذكر قصة مؤثرة: كيف كانت أوروبا تراقب التربية الإيمانية للمسلمين لأبنائهم في الأندلس ليعرفوا متى يهاجمون ليستعيدوها؟ وطال ذلك خمسمائة عام! كانوا

يرسلون الجواسيس ليختبروا شبابهم، ويذكر التاريخ أنَّ جاسوساً لهم في غرناطة قابل صبية يلهون بصيد الطيور بالسهام، منهم طفلٌ يبكى بحرقة، فسأله؟ قال: إنَّ أصحابى يعيروننى أنى أصيد بالسهم طائراً واحداً وهم يصيدون إثنين، فعاد وأخبرهم ألا طاقة لكم بهم فلهو صبيانهم ضرب النبال وبكائهم إن صادوا أقل من طائرين بالسهم!، وبعد سنوات كثر ذهب آخر يتجسس فوجد شاباً يبكى؟ فسأله؟ فردَّ: ضاع منديل حبيبتى، فعاد الجاسوس وقال: على مناديل الأحبة تبكى شبابهم، الآن قد فسد أمرهم؛ وجاء وقتهم، وذهبت دولتهم! وضاع مجدهم!! وصدق! فلم تمض إلا سنوات وانهار المجد! وهذا حقاً هو الفارق نتيجة التربية الإيمانية الإسلامية!

إذاً التاريخ كله يؤكد أن نهضة أمتنا ورفعة شأنها لا يتم إلا بالتربية التى كان عليه الحبيب وأصحابه.وهي أمر لا يتم إلا بأيدى رجال ورثوا قول الله: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ (١٠٨يوسف)

هؤلاء الرجال المربّون إذا وُجدوا والتفّ حولهم طلاب الحقيقة العلية نجت الأمة من الفتن وظهرت في الأمة الطاقات الموجودة من الكريم الخلاق المتوارية في الأجسام التى تدين بدين الله ﷻ .. لكن أين هى التربية الآن ؟ وهذا هو الفيصل، .... لو وُجدت التربية فلن تجد تنافساً في الفاني ولا رغبة في شيء داني، وإنما الكل يسارع في مصلحة الكل، يفنى عن الأنانية والأثرة ومصلحته الشخصية في سبيل المصلحة العامة التي يرجوها في هذه الأمة ولهذا الوطن الكريم الذى نعيش عليه .

ولذلك أنا أرى كما رأيتم الآن أننا لامخرج لنا مما نحن فيه الآن إلا رجالاً بهذه الكيفية تجردوا من المطامع والأهواء الشخصية والنزوات الفردية والرغبة في المظاهر الكاذبة وصاروا لا يريدون إلا وجه الله ليقودوا قاطرة التربية الإيمانية ويكونوا رجالاً صالحين يقودون الأمة في المهمة الإصلاحية تماما كما حدث من قبل، ويسعد آخر هذه الأمة بما سعد به أولها.

الباب الثاني

قواعد منهج الإصلاح الإسلامي

القاعدة الأولى: الإصلاح هو غَايَةُ الرسالات

لماذا أرسل الله رسوله ﷺ؟

نماذج من التربية النبوية للأمة الإسلامية

- ✓ – تَرْبِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ لأصْحَابِهِ
- ✓ – تَرْبِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِلنِسَـــاءِ
- ✓ – تَرْبِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِلشَّبَـــابِ

القاعدة الثانية: الإصلاح هو غَايَةُ العبادات والقربات

لماذا أمرنا بالتكليفات والطاعات؟

علامات قبول الأعمال الصالحة

- ✓ – العلامة الأولى: حسن الخلق
- ✓ – العلامة الثانية: علو مراقبة العبد لمولاه
- ✓ – العلامة الثالثة: تذوق حلاوة الإيمان
- ✓ – العلامة الرابعة: المداومة على الطاعات

القاعدة الثالثة: الإِصْلاحُ يبدأ بالقلوب

مقارنة لازمة بين مجتمعٌ راقٍ وفاسد القلوب!

ومجتمع أوَّلي وصالح القلوب!

صناعة الإصلاح .. إصلاح القلوب

أمثلة في التربية والإصلاح

- ✓ – الرحلة العجيبة لرأس الشاة
- ✓ – نار الغيظ والغضب
- ✓ – الشرود في الصلاة

القاعدة الرابعة: الإصلاح بالإقتداء بالنبى ﷺ والعودة للكتاب والسنة

القاعدة الخامسة: أدوات شرعيَّة لازمة لداعى الإصلاح

الحاجة للقواعد الشرعيَّة الكليَّة في التصدي للقضايا الإصلاحيَّة

التدرُّج كمثال للأداة الإصلاحيَّة

الباب الثاني

قواعد منهج الإصلاح الإسلامي

في هذا الباب وقبل أن نلج الأبواب التالية لتفصيل ورشة التربية الإيمانية، أو منهج العملية الإصلاحية، ووسائله الإسلامية، سنتناول معاً عدة مسائل هامة، تمثل قواعداً هامة للمنهج الإصلاحي في الإسلام، ذلك لأجل أن نرسِّخ المفهوم الإسلامي للإصلاح وللتربية الإيمانية أنه كلٌّ متكامل مع مبادىء الدين، ولمنع أى إنفصال في الرؤية لدى السادة القراء أو تعدُّد يربك المفاهيم! ولديها تكون خطواتنا نحو المنهج الإصلاحي سلسة ويسيرة ومتكاملة ... وبعد ذلك لا يبقى لنا إلا أن نشحذ الهمم نحو العملية الإصلاحية في هذه الحياة لنرقى عند الله وفي الدنيا وعند الناس.

ولذا سنجيب بفضل الله تباعاً على عدد من الأسئلة التى تشرح قواعد المنهج الإصلاحي الإسلامي، أو قل إن شئت الأسس التي تبني عليها عملية الإصلاح الإسلامي، أو المفاهيم التى يجب ألا تغيب عن قلوب وعقول من يتصدون لعملية الإصلاح أو دعاوى التربية الإيمانية، وتلك الأسئلة هى:

- أولاً: ما الغاية من الرسالة النبوية؟
- ثانياً: ما الغاية أو الهدف من وراء العبادات؟ وهذا سيجرنا لسؤال ضمنى ألا وهو ما علامات قبول الأعمال والقربات؟
- ثالثاً: من أين يبدأ الإصلاح؟
- رابعاً: كيف يكون الإصلاح؟
- خامساً: ما القواعد الشرعية التى تعين دعاة الإصلاح؟

القاعدة الأولى: الإصلاح هو الغَايَةُ مِنْ الرسالة النبوية

إنَّ الله تعالى خاطب حبيبه ومصطفاه قائلاً له: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ (الأحزاب)

وهذه الآيات الكريمات سبق وأن تناولناها بالتفصيل في محاضرات كثيرة وفى كتب أيضاً، ولكننا هنا لا نتحدث عن وظائف الرسالة أو النبوة بتفصيل، وإنما نتناول الهدف العام من الرسالة، لماذا أرسل الله الرسل؟

لماذا أرسل النبي ﷺ.

رسالة النَّبي ﷺ في لبّها بيَّنها ﷺ في كلمات معدودات، قال فيها: { إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ }[27]

فجعل الغاية من رسالته، والهدف السامي من شريعته، هو إصلاح الأخلاق بإظهار مكارمها من الأخلاق التي سارت مثلاً ومبادىء عالية وأخلاقاً راقية في عالم الناس، ليسعى الناس جميعاً إلى روضاتها الدانية.

وهذه الرسالة تظهر في إصلاح بناء الفرد الداخلي، فإن ديننا الإسلامي يسعى في كل أحواله القرآنية وسننه النبوية، إلى بناء إنسان كريم الأخلاق، أشار إليها القرآن مراراً وأثنى على أهلها، من ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ (الفرقان)

٢٧ رواه البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فإذا نظرنا في هذه الآية نظرة متأنية، وهي وصفٌ كريم لعباد الرحمن الذين تخلقوا بأخلاق القرآن، والذى أشارت إليه السيدة عائشة ﵂ حين سألها سائل عن أخلاق رسول الله ﷺ فأجابته: ... { كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ }[٢٨]

وأخلاق القرآن في آيات الفرقان التي ذكرناها عالياً، تبدأ أولاً بالأخلاق ... ثم تُثنِّى بالعبادات .. وانتبهوا للترتيب!.فهي تصف عباد الرحمن بأنهم يمشون على الأرض هوناً، أى وصفهم في مشيهم في حياتهم بالتواضع وعدم الزهو والخيلاء، لأنهم عملوا بنصيحةِ لقمان الحكيم لابنه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١٨لقمان)، أليس هذا هو الإصلاح؟!

أن يمشوا متواضعين بين الناس ويعرفون حقيقة أنفسهم، فلا يستهويهم البطر ولا الزهو بالنعم، ولا تأخذهم الخيلاء، وإنما يتأدبون بأدب الصلاح في القرآن، فيعلمون أن النعم كلَّها سببها توفيق الله ومعونة الله، فيردُّون الأمر لله، ويقولون كما قال الله: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (٧٩النساء).

الذين يمشون على الأرض هوناً ويتحملون أذية الخلق: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾، لا يردُّون عليهم الكيل كيلين، أو الصاع صاعين، وإنما دأبُهم: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (٤٠الشورى)، وهديُهم في أخلاقهم مع أحبابهم وجيرانهم وزملائهم ومجتمعهم: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾(٣٤فصلت).

ولَّما كان الوصول بالمسلمين لهذه الأخلاق وأخذهم للتخلق بتلك الآداب هو الغاية من الرسالة بعد التوحيد، كان هذا ما يستشعره ﷺ نحو

٢٨ رواه أحمد عن عائشة ومسلم وأبو داود وابن عساكر.

أصحابه أجمعين رجالاً ونساءاً .. أطفالاً وشباباَ، ويراه ﷺ تكليفاً من الله نحوهم، ولذا كان يظلُّ وراء الواحد منهم إلى أن يصلح حاله، فيعالجه من مرضه بتخليصه من أخلاقه الذميمة التى تقطعة عن الله، ويحلِّيه بالأخلاق الحميدة ... ولا يزال به حتى يوصله بالله!!

كيف يوصله بالله؟! هل لربُّنا زمان أو مكان؟ لا،لكن يَصِلُ قلبه بالله! يعنى يصير في حال مع الله عندما يقول: يارب، يجد أمامه إستجابة من الله لكل ما يهواه ويتمناه! وإذا لم يصل لهذه المرحلة، نقول له أنت تحتاج إلى علاج، لأن أى مؤمن وأى مسلم قال لنا ربُّنا كلِّنا: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾(٦٠ غافر).

فنحن جميعاً – أى واحد منا يدعو لابد أن يستجيب له الله ﷻ – فإذا لم يصل إلى هذه الحالة، نقول له: أنت لم تصل بعد إلى الدرجة التى يقول فيها الله: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (المائدة).

عالج قلبك أولاً من أجل أن تصل فيه حرارة الإيمان وتتصل بالرحمن، فساعة ما تقول: يارب!، تسمعه وهو يقول: لبيك عبدى!! .. تقول: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يقول الله: حمدني عبدي، تقول: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يقول: أثنى علىَّ عبدي، تقول: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فيقول: مجَّدني عبدي! هذه محادثة بينك وبين من يقول للشيء كن فيكون، محادثة تتم على الأقل سبع عشرة مرة كل يوم!! هذه هي الغاية من الرسالة!

ولذا كان يظلُّ ﷺ وراءهم إلى أن يوصلهم لهذا الحال! وكان ﷺ يكشف لهم عن خبيئة نفوسهم ويصف لهم العلاجات المختلفة ليوصلهم لما يجب أن يكون عليه كل مسلم ومؤمن آمن بالله، وصدَّق بحبيب الله ومصطفاه في حياته وعمله وصلاته وصلته بالله .

فأى مؤمن يقول: { لا إله إلا الله مُحَمَّدٌ رسول الله } ولم يكن في قلبه ولا في نفسه ولا في صدره هذه الأمراض، التى تحجب الإنسان عن تحقيق المراد، يكون بينه وبين الله عَهْدٌ، فعندما يقول: يارب، يجد الله ﷻ أقرب إليه من نفسه التى بين جنبيه! .. لأنه ﷻ أقرب إلى كل شىء من نفس الشيء، لكن أنت تركت عدَّة التليفون الخاصة بك التى ولدت بها وهى قلبك الروحاني، ولدت بها صافية سليمة نظيفة على الفطرة، فتركتها للهوى إلى أن صدأت:

{ إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد }[٢٩]

الأجهزة صَدَأتْ من الأهواء ومن حُبِّ الدنيا وهو رأس كل خطيئة، والسعار عليها بالمشوار!، ولن تجلب لك غير البوار! نريد أن نَخْرُجَ من هنا وقد نلنا رضا العزيز الغفار! كيف وقد صدأت! وياليتها صدأت فقط! بل امتلأت بأمراض وشهوات وفتن! حتى اسودَّت مرآتها فصارت لا تشهد حقا ولا تعكس نوراً، فهى تحتاج لإصلاحها! واسمع لقول الحبيب ﷺ إذ يقول: ..

{ تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوداً عُوداً، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَاداً كَالْكُوزِ مُجَخّيا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَراً إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ }[٣٠]

فهذا القلب المسودُّ! تحمله بين جنبيك وهو آلة وصلك بالله! فتأتي لتتصل به ولكنه لا يعمل، والخط مقطوع والجهاز يحتاج صيانة! وتتعجب كيف تدعو الله ولا يجيب! أنت لم تصلح جهاز الإتصال! أنت تصلى وتصوم وتقوم الليل وتقرأ القرآن، لكن جهاز الإرسال معطَّل وملوث ولم تصلحه ولم تطهره كما أمر النبى ﷺ، أنت تحتاج إلى دخول ورشة الإصلاح الإيمانية على

٢٩ رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعبد الرازق فى الجامع، وأبو نعيم فى الحلية، والخطيب عن عبد الله بن عمر.
٣٠ صحيح مسلم عن حُذَيْفَةَ، (أسود مُرْبَادّا: شِدّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ، مُجَخّيًا: مَنْكُوساً)

الطريقة النبوية! وعندما يتم إصلاح قلبك فيا سعدك ويا هناك! كلما خاطبت مولاك أجابك وكلما سألته لبَّاك!

نماذج من تربية النبي للأمة

فالإصلاح هو الغاية من إرسال النبي ﷺ إلينا، فالغاية من رسالته ﷺ كانت إصلاح وتربية المجتمع بأسره بإصلاحٍ قلوب أهله! ليخرج أفراده لإصلاح الوجود كله! ولذلك سنعرج سريعاً ونتناول نماذج من تربيته ﷺ الإيمانية للأمة ... كيف كان يصلح أصحابه بتربيتهم التربية الإيمانية:

- تربيته ﷺ لأصحابه الكرام من الرجال ومن النساء.
- ثمَّ تربيته ﷺ للشباب بكل أعمارهم!

تَرْبِيَةُ النَّبِي ﷺ لأصْحَابِهِ من الرجال

حرص النَّبِي ﷺ على تربية أصحابه على مكارم الأخلاق، وعلى شريف الخصال، وعلى عزيز الطباع، ليصلح قلوبهم ويصيروا في هديهم وفى سمتهم وفي سلوكهم صورة طيبة لما يدعو إليه هذا الدين، وكان يتابع أصحابه على هذا النهج القويم، وإليكم الإشارة بمثال واحد حتى لانطيل :

فهذا صِدِّيقُهُ وصفيُّه أبو بكر، كيف كان يربيه على مكارم الأخلاق؟ ويتابعه ليُزَكِّي نفسه، وتنطبع روحه عليها في كل وقت وحين، وقد ورد:

{ أن رجلا سبَّ أبا بكر عند النبي ﷺ والنبي جالسٌ لا يقول شيئاً، فلمَّا سكت؛ ذهب أبو بكر يتكلم فقام النبي ﷺ، واتبعه أبو بكر فقال لرسول الله ﷺ : كان يسبُّني وأنت جالسٌ فلما ذهبت أتكلم قمت، قال ﷺ: إن الملك كان يردُّ

عنك، فلما تكلَّمت ذهب الملك ووقع الشيطان، فكرهت أن أجلس }.[٣١]

بل أكثر من ذلك، أنَّه لَّما خرج مع أصحابه في عام الحديبية ناوياً العمرة إلى بيت الله الحرام، وحمل أبو بكر متاعه ومتاع النبي ﷺ على جمل، وكلَّف به عبداً من عبيده وحده، حرصاً على زاد النبي وزاده معه.

وفى الطريق شرد الجمل، وعند مترل ما، طلب أبو بكر من الغلام شيئاً من الطعام، فعلم أن الجمل ضاع منه، ولا أمل في عودته، فانفعل الصديق وأخذ يسبُّه ويضربه، وإذا بالرسول ﷺ يقول له: **{ يا أبا بكر أصديقين ولعانين كلا وربِّ الكعبة – مرتين أو ثلاثا }**، يعني: أنت في مقام الصديقية العظيم بعد مقام النبوة؛ إذاً لا تسب ولا تلعن، لإن هذا لا يليق بأخلاق الصديقين الذين أنعم الله عليهم مع النبيين والشهداء والصالحين، بل إنه ﷺ في تربيته له حثَّه على مقام أعلى لينال مترلة أرقى عند الله، وعاهده ﷺ على هذا وكذلك نفراً من أصحابه كأبي ذر وثوبان، فقال لهم ﷺ: **{ مَنْ يَضْمَنْ لِي خُلَّةً، وَأَضْمَنُ لَهُ الْجَنَّةَ ؟ قُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: لاَ تَسْأَلِ النَّاسَ شَيْئًا }.**[٣٢]

أى لا تسأل إلا الله ﷻ، فكان ﷺ يركب أحياناً في أسفاره، فيسقط حبل ناقته، فيترل ويأخذه بيده ثم يعاود الركوب، وكان ذلك وهو خليفة للمسلمين، فقالوا له: ياخليفة رسول الله، إنا نكفيك هذا! فيقول: **{ قد علمت هذا ولكن حبيبى ﷺ أوصانى ألا أسأل الناس شيئاً }.**

هكذا كانت تربية النَّبى ﷺ لأصحابه التربية الإيمانية المتكاملة، على مكارم الأخلاق، وشملت هذه التربية الرجال والنساء، والشباب والفتيات، والصبيان والغلمان لأن هذا كان الأمر المكلف به من الله نحو خلق الله أجمعين من العالمين!.وسنفصل قليلاً من تربيته ﷺ للنساء وللشباب.

٣١ أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، تخريج أحاديث الإحياء العراقي
٣٢{ أصديقين}: أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، {يضمن} عَنْ ثوبانَ: أَبو نعيم، وبمعنى قريب لأبي ذر وأبي بكر.

تَرْبِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِلنِسَاءِ

ضربنا مثلاً للرجال، وكذلك نضرب مثلاً للنساء، فقد ذكرت عائشة أعزُّ زوجاته، زوجته صفيَّة بنتَ حُيَيٍّ بن أخطب رضي الله عنها وقالت عنها: (إنها قصيرة)، وكان وصفاً صادقاً، لأنها فعلاً كانت قصيرة الطول، لكن المعلم الأول ﷺ قال لها: { يا عائشة لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ }.[33]

أى لكدَّرته وعكَّرته بعد صفوه، يريد منها ألا تعاود هذا القول، وألا تصف مسلمة بشيء تكرهه ولو كان فيها، مادام الأمر لا يستدعي ذلك شرعاً، فيتعوَّد لسانُها على العِفَّة الدائمة، عملاً بقول الله فيمن آمنوا بالله:
﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الحج)

ومع السيدة عائشة ما أكثر المواقف التربويَّة التي تركت ذخراً لتربية نساء الأمة من حوادث عديدة اشتهرت مثل مطالبة نساءه ﷺ له بزيادة النفقة، وإعتزال رسول الله لهنَّ وتخييرهن، وفي حادثة الإفك، وقلادة الأبواء، وفي الكثير غيرها كان ﷺ يربي السيدة عائشة التربية الإيمانيَّة المتكاملة، التي بلغ من كمالها أنَّ عائشة لكونها لم تلد، كان ﷺ يكل إليها الكثير من شئون رعاية أسامة بن زيد وهو صغير، ويعلِّمها بنفسه كيف تعتني به وتنظِّفه وتداويه، وكذا كثيراً من شئون الأطفال والبنات اليتيمات! إنها الدورات التربويَّـــة النبويَّـــة المتكاملة لأشد نسائه ﷺ حفظاً واستيعاباً.

ولذا كانت السيدة عائشة بدورها هي موصل التربية والتعليم إلى نساء وفتيات الأمة، فتنقل لهن هذه الدروس التربوية في الشرائع والأخلاق والحياة الزوجية من إختيار الزوج وحقوقه وحقوقهن وأهن شقائق الرجال والمشاكل الإجتماعية وزينة المرأة وتدبير البيت وتربية الأبناء وغيرها، وكانـــت نـــساء

٣٣ رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها

الأمة يتناوبن في الإجتماع عندها بعد خروج النبى ﷺ، فتقوم بتدريسهن مـــا علمها رسول الله وتجيب أسئلتهن وما لا تعرف تعيده للمعلم الأول، وهكذا، وكانت كثيراً ما تمدحهن وتحثهن على التعلم وتقول: { نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ }.[٣٤] ، فكانت حجرات أمهات المـــؤمنين تكاد تكون حلقات تربية وورش تهذيب لبنات ونساء وفتيات الأمـــة علـــى إختلاف أعمارهن، هذا كله غير التلقِّى المباشر من الحلقات التربوية التى كان يعقدها ﷺ بالمسجد للنساء والفتيات خاصة، وغير الدروس العامة اللائي كنَّ يحضرنها بالمسجد ويجلسن بآخره بعد الرجال والصبيان.

واستمرَّت السيدة عائشة من بعده ﷺ على ذلك النهج التربوي إلى آخر عمرها، ومن ذلك ما يروى أنها ﵂ دخل عليها نسوة من الشام فقالت لهن دون سؤال لتعليمهن: { لَعَلَّكُنّ مِنَ الْكُورَةِ الَّتِي تَدْخُلُ نِسَاؤُهَا الْحَمّامَاتِ ؟ قُلْنَ: نَعَمْ، قالَتْ: أمَا إنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: مَا مِنْ امْرَأَةٍ تَخْلَعُ ثِيَابِهَا في غَيْرِ بَيْتِهَا إلاَّ هَتَكَتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله تعالى }.[٣٥]

تَرْبِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِلشَّبَابِ

وفى تربية النبى للشباب نأخذ لمحات سريعة عن قيمة الشباب عند الحبيب المصطفى ﷺ وكيف كان يتعدهم بالتربية الإيمانية، فقد قال ﷺ: { أوصيكم بالشبان خيراً ثلاثاً فإنهم أرق أفئدةً، ألا وإن الله أرسلني شاهداً ومبشراً ونذيراً... فحالفني الشبَّان ... وخالفني الشيوخ }[٣٦]

فكانت دعوته أساساً وبداية ونشرها كله على أكتـــاف الـــشباب،

٣٤ صحيح البخاري وابن ماجه وابن خزيمة.
٣٥ سنن أبي داوود، عن أبى المليح.
٣٦ روح البيان ، وتفسير حقي ونور الأذهان

فتعلمون أدوار عمار بن ياسر وأخته، ودور مصعب بن عمير، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم في البداية! وتعلمون هجرتا الحبشة، وكذلك الدور الأعظم للشباب في الهجرة للمدينة، ومساهماتهم المنقوشة بمداد النور مثل عبد الله بن أبي بكر وأخته أسماء، وخادمها عامر بن فهيرة، ودور على بن أبي طالب.

وعلى مسير الدعوة والجهاد تعلمون دور كثير من الشباب كعبدالله بن عمر، وبن عمرو، وبن عباس، ومعاذ بن جبل، ومعاوية بن أبي سفيان، وأبى بن كعب، وجعفر الطيار، وأسامة بن زيد، وأنس بن مالك، وربيعة بن كعب، وحنظلة غسيل الملائكة، وطلحة بن عبيدالله، وبن الزبير، وأبو قتادة وطلحة بن البراء الأنصاريين، وحبيب بن عدى، وكثير غيرهم ﷺ، وكذلك شابات كثيرات مثل السيدة عائشة، وأسماء بنت أبي بكر، وفاطمة الزهراء وغيرهن ﷺ الكثيرات من بنات وفتيات المهاجرين والأنصار.

وتعلمون أدوار الشباب بعد ذلك لنشر الدعوة في أقطار الأرض! وقد أوصى ﷺ من وراء الغيب بالشباب الذين سيكون لهم دور قيادي في الدعوة وتحمُّل مشاق جمع الحديث فقال: { **سيأتيكم شبابٌ من أقطار الأرض يطلبون الحديث. فإذا جاءوكم فاستوصوا بهم خيرا** }.[٣٧]

وتعلمون عن جيش أسامة، وكتبة الوحى، والرسل الذين أرسلهم ﷺ للملوك والأباطرة، ناهيك عن الحروب والغزوات ودور الشباب فيها، وغيرها من مئات بل ألاف المواقف التي لا تحصى ولا تعدُّ للشباب، والتي كان فيها ﷺ يجهز كلَّ شاب بما يصلحه لمهمته كما أمر زيد بن ثابت لما رأى حفظه أن يتعلَّم السريانية لغة يهود فأتقنها في أسبوعين!، وكان ﷺ يعرفهم بأسمائهم، ويتابعهم بنفسه في المهام ويسأل عنهم أو ينيب من يفعل.

كما كان ﷺ يتعهَّدهم ويربِّيهم على الإحساس بقيمتهم حتى كان

٣٧ عن أبي سعيد الخدري، شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي

يستأذن الصبي عن يمينه في دوره في الشرب ليناول الإناء لشيخ عن يساره! فلا يأذن الصبى تبرّكاً بالنبي وفهماً لحقِّه! فلا ينهره بل ويناوله إحقاقاً وتعليما للجميع وإشعاراً لهم أنَّ الغلام أو الشاب فاعلٌ كالكبير!

وكان يخصُّهم بمزيد المسؤلية ويدرِّبهم على القيادة وتحمّل المخاطر، لأنهم قوة الحاضر وحكماء المستقبل، وفي ذلك كله يعرف طبيعة سنهم وفورة شبابهم وجموحهم طباعهم فيقول: { الشباب شعبة من الجنون }، ويوصي الكلَّ بالكهول وبأن يرحموا الشباب: { اسْتَوْصُوا بِالْكُهُولِ خَيْراً، وَارْحَمُوا الشَّبَابَ }[٣٨].

ومع تلمُّس العذر لفورتهم يحذرهم من إندفاع شهوتهم: { يَا مَعْشَرَ شَبَابِ قُرَيْشٍ! احْفَظُوا فُرُوجَكُمْ وَلاَ تَزْنُوا، أَلاَ مَنْ حَفِظَ فَرْجَهُ فَلَهُ الْجَنَّةُ }، ثم يكشف للناس قدر هؤلاء الشباب الذين خشعوا لله: { لَوْلاَ شَبَابٌ خُشَّعٌ، وَشُيُوخٌ رُكَّعٌ، وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ، وَأَطْفَالٌ رُضَّعٌ لَصُبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ صَبّاً }[٣٩].

أما إن أخطأوا فكان ﷺ لا يقنطهم ولا يعنفهم، ويربيهم على المسارعة بالتوبة، وينصح بالصبر لفقرائهم حتى ينالوا مطلبهم، وبالحياء لفتياتهم فيقول للأمة جميعها: { الصَّبْرُ حَسَنٌ وَلكِنْ فِي الْفُقَرَاءِ أَحْسَنُ، وَالتَّوْبَةُ حَسَن وَلكِنْ فِي الشَّبَابِ أَحْسَنُ، وَالْحَيَاءُ حَسَنٌ وَلكِنْ فِي النسَاءِ أَحْسَنُ }[٤٠].

وكان ﷺ يربِّيهم على تحصيل العلم، وكثيراً ما عقد لهم الحلقات التعليمية بعد صلاة الصبح يسألهم ويعلمهم، ويخبرهم أن جبريل يأتيه في صورة شاب عند مدارسة العلم ليحثَّهم على تحصيل العلم، ويحثهم على التدبير والتفكير وشغل الوقت بالنافع، وعلى التخطيط السليم للمستقبل باغتنام شبابهم قبل الهرم، والصحة قبل المرض! وهكذا.

٣٨ الأول :عن زيد ابن خالد مسند الشهاب، والثانى (ك) في تاريخه و الديلمي عن أَبي سعيدٍ ﷺ، جامع المسانيد والمراسيل
٣٩ { يامعشر}: (طب هب) عن ابنِ عبّاسٍ ﷺ، والثانى: (هق) والْخطيب عن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ.
٤٠ الدِّيلمي عن علي ﷺ، جامع المسانيد والمراسيل

وعند الزواج كان يحثُّهم عليه لمن قدر، وبحسن الإختيار والجدَّ لمن أقدم، والإقتصاد لمن فعل، وحفظ حقوق الأهل، والصوم لمن عجز.

ولا ننسى التربية العلمية والصحية التي كان ﷺ يربِّيهم عليها من الإهتمام بالرياضة كالفروسية ورمى النبال والسباحة والجرى وغيرها، ويعلمهم أن لهم فيها الأجر الكبير من الله مع صحة العقل والبدن، ويعلمهم الأخذ بأسباب الرزق من الجد والإجتهاد والتبكير في السعى مع شدة تنمية الشعور بالكرامة وأن اليد العليا خير من اليد السفلى.

وكم حفلت السنة بالمواقف التربوية المتعددة من سؤال وجواب، أو نصح وإرشاد، ومن مواقف التربية العمليَّة للجميع مثل الذى زنا أو أذنب وأتى ليخبره، أو ليتوب، وكالأعرابي الذى بال في المسجد، والشاب الذى جاء يطلب إذناً بالزنا، ومن قطع الصلاة بالتشميت! والشحَّاذ والقادوم، أو لما ذهب يحدِّث الجنَّ، أو عند حضور الموت، ومواقف الإستعداد للحرب وأثناءها وغيرها، وهى ثروة تربوية لا تنضب! ننصح بإتخاذها مادة لتدريس ورش التربية العملية في كليات التربية وكليات الدعوة.

وفى ركوبه كان ﷺ يردف الشباب خلفه ليعلي شأنهم، وليلقِّنهم دروس الحياة العملية، أو يستنشد شاعرهم، أو يستتيب مخطئهم، ويرشدهم إذا أساءوا النظر، أو أخطأوا القول أو الفعل، وغيرها من التربية العمليَّة والنظرية، ناهيك عن دروس الطعام، والنظر، والعيادة، والصدقة، والصمت، وإفشاء السلام، وصلاة القيام، وحق الأرحام! والكثير بترتيب تربوي معجز!

وإذا استرسلنا في تعداد أساليب ومحطات تربية النبي للشباب فضلاً عن الرجال والنساء، فهذا أمر طويل جداً ليس هنا مجاله، المهم أنَّ أصحابه ﷺ ساروا من وراءه في تربية الشباب على نهجه، فأنفذ أبوبكر الخليفة بعث أسامة وودَّعه راجلاً وأسامة راكباً، والشيوخ وراءه، وغيرها الكثير والكثير!

ومرَّ الزمان وجاء عمر ﷺ فكان يربِّيهم بعزم وإتقان فقال لأحدهم لما أخطأ معه واشتطَّ: { إِنِي أَرَاكَ شَابّاً فَصِيحَ اللسَانِ، فَسِيحَ الصّدْرِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الرّجُلِ عَشَرَةُ أَخْلاَقٍ: تِسْعَةٌ حَسَنَةٌ وَوَاحِدَةٌ سِيئَةٌ، فَيُفْسِدُ الْخُلُقُ السّيِىءُ التسْعَةَ الصّالِحَةَ، فَاتّقِ عَثَرَاتِ الشّبَابِ }.[٤١]

{ وأمر بعض شباب المدينة باعتزال رجل اتهم بالفعل القبيح حفظاً لهم }، بل وكان ﷺ يتابعهم في التربية العملية خطوة خطوة، فقد روى أنه ﷺ رأى أحدهم في طرقات المدينة يتبختر في مشيته ولمح فيه مظاهر العبث والإستهتار التي لا تليق، فزجره وأمره بترك هذا، فتعلل بأن هذه طبيعته ولا يطيق تركها فأمر عمر بجلده، وبعد أيام رآه ثانية على حاله من العبث والتخنث فأمر بجلده مرة أخرى، ولم يمض وقت طويل حتى جاء الرجل أخيراً، وقد استقامت مشيته واعتدل مسلكه وقال: { جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين؛ .. لقد كان الشيطان يلازمني، فأذهبه الله عني بعقوبتك }.[٤٢]

وكذا الكثيرون منهم ، كيف تابعوا تربية الشباب المسلم، فمثلاً سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ كان يقول للشباب عندما يأتونه لطلب العلم: { مرحبا بكم ينابيع الحكمة ومصابيح الظلمة خلقان الثياب جدد القلوب }.[٤٣]

وهكذا فلم يزل رسول الله ﷺ ومن وراءه صحبه الكرام شيوخ التربية والإصلاح الأعلام يربُّون الأمة رجالاً ونساءاً وشباباً حتى صاروا كما كان ﷺ يدعوهم ليكونوا: { كُونُوا كالشَّامَةِ بَيْنَ النَّاسِ }[٤٤] ، فاكتسحوا العالم كلَّه شرقًا وغربًا في أقل من ثلاثين سنة، ولم يقف أمامهم أحد أبداً! ... كيف صار ذلك؟ إنها التربية الإيمانية التى نتحدث عنها.

٤١ (عب، هق). عن قبيصة بن جابر الأسدي.
٤٢ حديث { أمر }: البيهقى عن عائشة، وحديث {جزاك}: الفقه على المذاهب الأربعة.
٤٣ شعب الإيمان، عن عبيد الله بن أبي العيزار.
٤٤ رواه الحاكم عن أنس وأحمد والترمذى.

القاعدة الثانية: الإصلاح هو غاية الطاعات والقربات

لماذا أمرنا بالتكاليف والطاعات؟

لأن ديننا يرسي القيم الفاضلة، وهي أحرص ما يحرص عليه الإسلام، فليس الإسلام دين شعارات، ولا عبادات مبتورة عن الأخلاق والمعاملات، وإنما هو دينٌ متكاملٌ يكمِّل بعضه بعضاً، فإذا كان الإنسان يحافظ على الفرائض في وقتها، لكن لا يراعي قيم الإسلام في تعامله مع الخلق، فدينه فيه نقص، وعبادته لم تحقق غايتها، وهذا نسميه التدين المنقوص، أى غير كامل.

فالإسلام كُلٌ متكامل، فيطلب من المؤمن أن يعطي الله حقَّه، ويعطي لجسمه حقَّه، ويعطي لأهله حقَّهم، ويعطي لمجتمعه حقَّه، ويعطي لذوي رحمه حقَّهم، ويعطي لأصدقائه حقَّهم، ويعطي للكبير حقَّهُ وللصغير حقَّه، ويقوم بكل الحقوق التي أوجبها عليه الدين، كما أمر الله ووضَّح رسول الله ﷺ وكل تلك الحقوق تندرج تحت أصناف العبادات والطاعات والقربات! وعندها نقول أنه صالحٌ! أى انصلحت أخلاقه بالعبادات والقربات التى أثمرت فيه وجعلته صالحا للتعامل مع من سواه من خلق الله!

ولذلك قبل الدخول في تفاصيل ووسائل التربية والتهذيب وإصلاح القلوب، وما يستتبعه ذلك من المجاهدات والأعمال الصالحات والطاعات والعبادات ... يجب أن نقف وقفة حاسمة نتعلم فيها بوضوح .. ما الغاية والهدف من الطاعات؟ وأين نضع أعيننا ونحن نقوم بها؟

وبدون أن نفهم ونستوعب إجابة هذا السؤال .. لن نستفيد حقاً من الطاعات، بل قد تكون باباً للإغترار، لأن من تحلوا بمكارم الطاعات لا يغتروا في أنفسهم إن عرفوا أن الفضل فضل الله، والتوفيق في كل عمل إنما هو لله ومن الله، وإن أحسنوا في معاملة إخوانهم فترفعوا عن التشبه بهم في سفاسف

الأخلاق أو سيىء المعاملات، فصاروا بعد ذلك أهــلاً لأن يخــصَّهم الله ﷻ بشريف العبادات: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ (الفرقان).

وهذا ما تؤكده السُّنة، فقد قالوا { يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فُلاَنَةً تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا، قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فُلاَنَةً تُصَلي المَكْتُوبَةَ، وَتَصَّدَّقُ بِالأَثْوَارِ مِنَ الأُقْطِ (القليل جداً)، وَلاَ تُؤْذِي جِيرَانَهَا، قَالَ: هِيَ فِي الْجَنَّةِ }[٤٥]، فالأولى فى النار مع أنها عبدت ربها بالصيام والصلاة إلا أنَّها لم تصل إلى ثمرة الطاعة وهى إحسانها إلى بني جنسها وأهل مجتمعها، فإن طاعة الله المستقيمة – إذا كانت قويمة – كانت ثمرتُها ونتيجتُها أخلاقاً مستقيمة، وأحوالاً قويمة، تظهر في سلوكيات الطائعين، والقانتين والعابدين والذاكرين والحامدين لله ﷻ، والثانية نفلها قليل ولكن طاعتها أثمرت خلقا حسناً.

ولذلك قال ربُّ العزَّة عزَّ شأنه مبيِّناً ومشيراً إلى بعض حكم الــصلاة وهي أعظم العبــادات الإســلامية: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ (٤٥العنكبوت)، ويبين هــذه الآيــة الــنبي ﷺ في حديثــه فيقــول: { من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له }[٤٦].

ويبيِّن الله ﷻ الهدف من الصيام فيقول جــلَّ شــأنه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (البقرة)، ويوضح هذه التقوى وخصوصيتها الــنبي ﷺ فيقــول: {الصومُ جُنَّةٌ ــ أى وقاية ــ فَإِذَا كَانَ يومُ صُومُ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ يومئذٍ ولا يَصخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَو قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امروٌّ صائِمٌ إِنِّي امروٌّ صائِمٌ }[٤٧].

ويبين الله ﷻ كذلك هدفاً سامياً من أهداف فريضة الحجِّ، مطالباً

٤٥ عن أَبِي هُرِيرةَ رضي الله عنه المستدرك على الصحيحين.
٤٦ رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس
٤٧رواه البخاري ومسلم عن أبي جريج، وأحمد والبيهقي والنسائي عن أبي هريرة.

عبادة المؤمنين بالتمسك به عند أداء فريضة الحجِّ، فقال جلَّ شأنه: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ (١٩٧البقرة)، وكلها أخلاق نهى عنها الكريم الخلاق.

فالأخلاق هى لُبُّ وجوهر العبادات الإسلامية، بل هي الثمرة للمجتمع وللمحيطين بالإنسان الذين يرون فيه حُسْنَ تديُّنه وجمال طاعته وتأدبه بآداب الله ﷻ.

علامات قبول الأعمال الصالحة

علَّم رسول الله ﷺ صحبه الكرام أن ينظروا بعد العمل إلى قبول الله وعلاماته في هذا القبول، فليس الشأن أن تعمل فقط، ولكن الشأن هو قبول الله ﷻ منك.

فهناك قومٌ يعملون ويستكثرون من الأعمال حتى تكون أعمالهم كالجبال، يقول عنهم الواحد الأحد ﷻ : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الفرقان)، جعل الله عملهم كله هباءً لأنهم يعملون عملهم رياءً وسمعة لخلق الله.

وهناك قومٌ يعملون أعمالاً قليلة، لكن نيّاتهم مليئة بالإخلاص لله وإفراد الله بالعبادة والوحدانية، ولايرجون بالعمل إلا رضاء الله والثواب لمن أعده الله يوم لقياه، ولا ينتظرون من الخلق أجراً ولا ثواباً ولاسمعة ولا ثناءاً، لأنهم يعلمون أن الخلق لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولاحياةً ولانشوراً، فكيف لغيرهم، وهؤلاء حتى ولو أخطأوا في بعض الأعمال وانتابت أعمالهم بعض الهفوات أو الزّلات، يقول عنهم الله ﷻ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ (١٦الأحقاف) ... يتقبل الله عنهم أحسن ما في هذه الأعمال وأطيبها ويَدَعُ الهفوات والزلات والنسيان لأنهم يعملون وهم راجون فضل الله ﷻ.

فعلَّمهم النبى ﷺ أن ينظروا إلى علامات جليات واضحات إذا ظهرت في المرء

تدلّ على أن الله تقبل منه عمله فيباركون له قبول العمل ويهنئونه بكريم المثوبة وعظيم الأجر من الله ﷻ لأن الله تقبّل عمله .

وعلامات قبول الأعمال كثيرة، وسنأخذ الصيام مثلاً لأنه المعسكر التدريبي والورشة الأخلاقية التي تعقد شهراً كاملا كل عام للمسلمين، فهو من أفضل الأمثلة لبيان ثمرة وغاية العبادات، وسنكتفى هنا بثلاث علامات:

العلامة الأولى: حسُّن الخلق

أول علامة لقبول طاعات وصيام شهر رمضان هي أن يخرج العبد بعد رمضان وقد تحسنت أخلاقه، وقد تغيرت معاملاته سواءٌ مع أهله أو مع خلق الله ﷻ أجمعين .. فإذا كان قبل رمضان عنده شيءٌ من الجفاء في معاملة الخلق، والقسوة في معاملة الزوجة والأولاد، وسرعة الغضب مع الآخرين والإنفعال لأى قول يقال له من الحاضرين، نجده بعد رمضان وقد غلبت عليه الرحمة للخلق أجمعين، والشفقة في معاملة زوجته وأولاده، والحلم في معاملة كل خلق الله، علامة الصيام المقبول أن الله ﷻ يغيّره ويجعله وفق الأخلاق المرضية التى ورد فيها فى الأثر: { إن الله يحب من خَلْقه من كان على خُلُقه }.

وقد جعل الله الصيام هو وحده الذى يُثقّل موازيننا يوم القيامة، وهو الذى يبلغنا المقام العظيم بجوار النبي الكريم في الدار الآخرة وجنة النعيم، فمن يريد تثقيل ميزان حسناته ماذا يفعل؟ نسأل الخبير الذى عيّنه لنا الكبير ﷻ، قال ﷺ: { مَا من شيْءٌ أَثْقَلُ في مِيزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ }.[٤٨]

والذي يريد أن يكون مع النبي في الدار الآخرة وفي جواره في جنة النعيم، ماذا يفعل لينال هذا المقام الكريم؟ وضّح السيد السند العظيم هذا

٤٨ رواه الإمام أحمد والترمذي عن أبي الدرداء

الباب وكيفية الدخول إلى هذا الرحاب فقال لأولي الألباب : { إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقاً } وقال: { أَحَبُّكُمْ إِلَى اللَّهِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقاً، الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافاً الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَإِنّ أَبْغَضَكُمْ إِلَى اللَّهِ الْمَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُلْتَمِسُونَ لَهُمُ الْعَثَرَاتِ الْمُفَرِقُونَ بَيْنَ الإِخْوَانِ }.[49]

وقد بيَّن النبي ﷺ قيمة حُسن الخلق وشأنه في العبادات عندما أجاب أصحابه يوما أن العابدة المؤذية لجيرانها فى النار، وأن قليلة النوافل المحبة لجيرانها فى الجنة!، فبيَّن أن الذي يحسِّن الأعمال ويجعلها تنال القبول عند الواحد المتعال هو الخلق الحسن الذى يتخلَّق الإنسان به في نفسه، إن كان مع أهله أو مع ذوى رحمه أو زملائه في العمل أو مع الخلق في ميادين هذه الحياة.

ولذلك جعل ﷺ من جملة العبادات التى يتناساها الخلق الآن الهشاشة والبشاشة في وجوه الآخرين، فمن تبسَّم في وجه أخيه كان له بذلك صدقة، ومن قال لأخيه كلمة طيبة فهى صدقة، ومن سكب فى دلو أخيه له صدقه، ومن دلَّ على الطريق صدقه، ومن مدَّ يده مصافحاً أخيه غسل الله ﷻ هذا الرجل وأخاه من الذنوب وتساقطت ذنوبهما لأنهما تصافحا وأذهبا وحر الصدر من قلوبهما، وكان من جملة العبادات التعاملات العبادية التى لا غنى عنها جماعة المؤمنين والمؤمنات .

العلامة الثانية: علوُّ مراقبة العبد لمولاه

الأمر الثاني الذي يدرك العبد فيه أن الله قد تقبل عمله: أن قيمة العبد عند ربه بمراقبته لربه ﷻ، وقد بيَّن ﷺ تفاوت الناس في القرب فقال : { واللَّهِ إِنِّي أَتْقَاكُمْ للَّهِ وأخشاكُمْ لَهُ }.[50]

[49] الأول: رواه الترمذي عن جابر ، والثاني:(خط) عن أَنس ﷺ جامع المسانيد والمراسيل
[50] صحيح ابن حبان عن عمرو بن أبي سلمة

أى أنا أقربكم من الله وأنا أشدكم خوفاً من الله ﷻ.

فكلما زادت مراقبة العبد لمولاه دلّ هذا على قرب مكانته من الله وعلى رفعة مقامه عند الله ويزيد على ذلك إذا كانت هذه المراقبة في غيبة الخلق بأن يراقب الله في السّر والعلن .. بأن يراقب الله في الظاهر والباطن .. بأن يراقب الله ﷻ في الخلأ والملأ .. بأن يعلم علم اليقين بأن الله ﷻ لا يخلو عنه زمان ولا مكان، فلا يستطيع أن يحرّك جوارحه في أى زمان ولا مكان بمعصية الديان لأنه يعلم أن الله يطلع عليه ويراه .

والصيام من أهدافه العظمى هو ترقية هذه المراقبة الإلهية ووصولها إلى الحالة المثالية ولذلك قال فيه الله ﷻ للحفظة الكرام: {كُلُّ حَسَنَةٍ يَعَمِلُها ابنُ آدمَ بِعَشْرِ حَسَنَاتٍ إلى سَبْعِ مِئةِ ضِعْفٍ، يَقُولُ اللَّهُ: إلا الصَّومَ، فَهُو لي وأنا أَجْزِي بِه، يَدَعُ الطَّعَامَ مِنْ أجلي، والشَّرَابَ مِنْ أجلي، وشَهْوَتَهُ مِنْ أجلي، وأنا أَجْزِي بهِ }[51]

يراقب الله ولا يمشي إلا لله وبذلك تكون له مكانة عظيمة عند مولاه ﷻ، فإذا رأى الإنسان نفسه يخشى من الله ﷻ في أن يقع في عصيانه ولو كان بمفرده وحيداً ليس عليه شاهدٌ من الخلق، فإنه يستبشر ويعلم أن الله قد قبل عمله ورفع شأنه وجعله من عباده المقربين الذين يقول فيهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (النحل)، وقال ﷺ : { اتَّقِ المَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ }[52].

وعندها يُعِز سبحانه من أطاعه فيجعله في مقام أعلى من الملائكة الكرام، لأن الذين أطاعوا الله: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (فصلت).

٥١ صحيح ابن حبان عن أبي هريرة.
٥٢ سنن الترمذي عن أبي هريرة

العلامة الثالثة: تذوُّق حلاوة الإيمان

من علامة قبول العمل في شهر رمضان والتي يشعر بها كل مسلم أخلص لله قلباً وقالباً، أنه يشعر بحلاوة الطاعة ويتذوق حلاوة الإيمان فيدخل في حديث النبي ﷺ: { ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ، مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبّاً، وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً }[٥٣]، يتذوق طعم حلاوة الإيمان، وينعم بحلاوة تلاوة كتاب الله، ويأنس بمناجاة مولاه جلّ في علاه.

والذي يشعر بهذه الحلاوة لا يتركها بعد شهر رمضان إلى أن يأتي رمضان القادم، لأن الذى سيشعر بهذه الحلاوة لا بد أن يستزيد، يزيده الحميد المجيد من هذه الطاعة، ويحمله في قلبه من أنوار هذه البضاعة.

العلامة الرابعة: المداومة على الطاعات

ولذلك سنّ لنا الحبيب ألا نهجر الصيام بعد شهر الصيام، بل نواصل الصيام وقال لنا في ذلك مشجعاً ومرشداً: { مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِستَ مِنْ شَوَّالَ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ }.[٥٤]

والدهر أى السنة، فمن صام رمضان وأكمل ستّاً في شوال كتب عند الله صائماً طوال العام وإن كان مفطراً يأكل ويشرب .. عناية من الله وتحبيب للمؤمن على المداومة على طاعة الله، لأن النبي ﷺ علم بتعليم الله له ما يحبُّه من خلقه فقد سئل: { أَىُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ قَالَ: أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ }.[٥٥]

أى الذى تديم عليه ولو كان قليلاً، يعنى من يقرأ القرآن في رمضان في كل يوم مرة ويتركه في غير رمضان خيرٌ منه الذى يقرأ عشر آيات في

٥٣ . عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رواه مسلم.
٥٤ رواه الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري.
٥٥ عَنْ عَائِشَةَ رواه البخاري ومسلم.

رمضان وفى غير رمضان عند الرحمن ﷻ، لأن الله يحب المداومة على العمل الصالح ، وكان على هذا النهج سيدنا رسول الله ﷺ، فقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها واصفةً عمله لله: { كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً }.[٥٦]

أى يداوم عليه، فإذا جعل لنفسه وقتاً لذكر الله دام على هذا الوقت كل يوم .. وإذا جعل لنفسه ركعات يتهجّد بها لله دام على هذا التهجد في كل ليلة، ولذا لم يكن النبي ﷺ يتهجد في رمضان ويترك التهجد في غير رمضان، بل كان طوال العام إذا جاء الثلث الأخير من الليل يقوم مناجياً مولاه يصلى له في جنح الظلام لأن الله قال له : ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلاً ۝٤ ﴾ (المزمل).

فالعمل الصالح الذي وفقك الله له في رمضان يجب عليك أن تحافظ عليه وعلى جزئه بعد رمضان، فإن كنت لاتستطيع أن تصلي ماكنت تصليه في رمضان فلا تحرم نفسك ولو من صلاة ركعتين، فقد قال ﷺ : { رَكْعَتَانِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ يُكَفِرَانِ الْخَطَايَا }.[٥٧]

ولو ركعتين فلا تحرم نفسك منهما!، وإياك أن تكون قد مللت من كتاب الله وأغلقته في آخر يوم من رمضان ولم تفتحه، وستتركه للعام القادم، هذا يكون هجران للقرآن، والقرآن يشكو هاجريه، والمدّعى العام هو الذى يقدم الشكوى إلى خالقه وباريه ويقول كما قال الله : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا ۝٣٠ ﴾ (الفرقان)، لايكون إلا في رمضان، ثم بعد رمضان ليس عندهم وقت إلا للمقت وغضب الرحمن ﷻ .

كان أصحاب حضرة النبي ﷺ في اليوم الذى لا يستفتحون صباحاً بقراءة ما تيّسر من ذكر الله، يظل الرجل منهم مهموماً وحزيناً طوال اليوم

٥٦ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ صحيح البخاري ومسلم
٥٧ (فر) عن جابرٍ رضيَ اللّهُ عنهُ، جامع المسانيد والمراسيل

لأنه لم يستفتح يومه ويبتدأه بكتاب ربه ﷻ، فاجعل لنفسك ما تيسر من تلاوته، والله ﷻ لم يكلفنا شططاً بل قال: ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ (٢٠المزمل)، وقال ﷺ : { مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنْ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قامَ بِمَائَةِ آيةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتين، وَمَنْ قامَ بِأَلْفِ آيةٍ كُتِبَ مِن المقَنْطِرِينَ }[58] ، أى أن حسابهم بالقناطير من الثواب والأجر الكبير عند العلى الكبير ﷻ.

فالذى ذاق حلاوة الطاعة وذاق طعم هذه البضاعة الإيمانية لا يستطيع أن يتسلى عنها، أو أن يتخلى عنها مهما شغلته المسائل الكونية الدنيوية، لأنه يريد أن يستنكه دوماً طعم حلاوة الإيمان الذي جعله الله للمديم للطاعة لحضرة الرحمن ﷻ.

القاعدة الثالثة: الإِصْلاحُ يبدأُ بالقلوب

الآن وقد فهمنا قاعدتين أساسيتين من قواعد العملية الإصلاحية! وفهمنا أن إصلاح الفرد والمجتمع هو غاية الرسالة النبوية، وهو أيضاً غاية الطاعات والتكاليف الشرعية والقربات الإيمانية! فإجمالاً فهمنا أن الله جعل هذا كله لتحسين أخلاق الخلق وربطهم بالحق، وعرفنا العلامات الدالة على قبول الأعمال، وعرفنا أن العلماء والصالحين هم المؤتمنون على حوذة الدين لإصلاح الخلق أجمعين على هدى الأنبياء والمرسلين.

وهنا نتحدث عن القاعدة الثالثة: من أين يبدأ الإصلاح؟

ولنسأل السادة المصلحين والأساتذة العلماء العاملين، والعارفين بالكتاب المبين وبنهج النبي الأمين، ونسألهم أن يجيبونا عن هذا السؤال؟ وهاكم الجواب! وأول ما أسوق لكم من الجواب .. هو أيضاً سؤال:

هذا الإنسان! ما الذى يحرِّكه؟ وما الذى يسيِّره؟ وما الذى يوجِّهُه؟ إنه القلب والجنان! طبعاً إننا نعني القلب الروحاني وليس القلب الجسماني.

٥٨ سنن أبي داوود عن عمرو بن العاص.

القلب الروحاني هو الذى قال فيه طبيب القلوب ﷺ:

{ ألا وإنّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كله، أَلا وهِيَ الْقَلْبُ }[٥٩]

وهذه الفقرة هي نهاية الحديث الشريف، ولكن المستمعن في الحديث بأكمله يجد عجباً، فصدره يبدأ بقوله ﷺ: **{ الحلالُ بَيّنٌ والحَرَامُ بَيِّنٌ، وبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كثيرٌ من الناسِ }**، ووسطه: **{ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ ودِيْنِهِ ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهَاتِ وَقَعَ في الحرامِ}** وآخره: **{ألا وهِيَ الْقَلْبُ}**،فأوله عن الحلال والحرام والمتشابه: حلال مباحٍ، وحرامٍ ممنوعٍ، ومشتبهٍ يربك!، ووسطه: يحبِّب ﷺ الناس في إتقاء الشبهات ويخوِّف منها لأنها تستدرج للمحرمات، لكنه لم يخبر هنا كيف نعرفها لنتقيها، وفى آخره تجده ﷺ وبالبلاغة النبوية يخبر أنه إذا صلح القلب صلح الجسد كله! ... وهنا السرُّ في الحديث! فهنا يخبرنا ﷺ السرُّ أنَّ صلاح القلب هو الوسيلة التى بها نعرف المشتبهات، فهو يهب صاحبه النور الذى يكشف به فيعرفها ويتجنبها ويستبرأ لدينه وعرضه فينجو.

وكذلك بالقياس للمجتمع الأكبر! يصلح الفرد إذا صلح قلبه، وكذا يصلح المجتمع إذا صلح أفراده! أو إن شئت فقل: القلب في الفرد كالفرد في المجتمع، فالفرد هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد الكبير أى المجتمع، لأن أفراده ذوي القلوب الصالحة أصبح عندهم النور الكاشف الذي يفرقون به بين الحلال والحرام والمتشابه في مصالح المجتمع الكبير، فلا يتسللون بمجتمعهم لا عمداً ولا خطأً ولا سهواً للحرمات ولا الموبقات! فينجو الجسد

٥٩ رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.

الكبير، تماماً كما أنَّ القلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كلـــه، وهذا هو أساس عملية الإصلاح أو التربية الإيمانية:

١- من يُرد أن يُصلح المجتمعات لا بد أن يُصلح الفرد أولاً.

٢- ومن يُرد أن يصلح الفرد لا بد أن يصلح قلبـــه أولاً.

٣- ومن يُرد أن يصلح القلوب فعليه بالتربية الإيمانيَّة أولاً.

ولذلك كان إصلاح القلب هو الغاية العظمى لبعث المرسلين والنبـــيين والعلماء والصالحين إلى يوم الدين، فهو النواة لعملية الإصلاح برمتها.

والآن وقد اتفقنا على ذلك! فسنجد فوراً من يقول: لنأخذ بتجربـــة تركيا أو ماليزيا ولنبدأ بإصلاح التعليم! ولتشكل اللجان وتوضع التعليمات وتصدر النشرات وتدفع البدلات!!

إخواني! أعيد وأنبِّه وأقول لا تُسطِّحوا الأمور فحسب! نعم إصـــلاح التعليم من أول مهام عملية إصلاح الأفراد، ومن أول مهام التربية الإيمانيـــة نعم! لكن يجب إدراج ذلك بحرفية وإتقان تحت الهدف الأكبر الـــذى هـــو إصلاح الأفراد بإصلاح قلوبهم أولاً! تحت شعار التربية الإيمانية لأفراد الأمة الإسلامية! وهذا ما يجب أن تبنى عليه إستراتجية العملية الإصلاحية ويجعلـــه المجتمع هدفاً واضحا تسلَّط عليه الأضواء وبشدة.

ولكننا لو لم ننتبه وركَّزنا في إصلاح المجتمع على إصلاح أنظمة التعليم وترقيته فقط دون اعتبار إصلاح الأفراد أنفسهم بالتربيـــة الإيمانيـــة، فهـــل سينصلح الحال؟! حتى ولو بلغنا في ذلك أعلى مقام، فهل سنصير مثل الغرب مثلاً؟! وهل هذا ما نصبو إليه من أمر الإصلاح؟!!

مقارنة لازمة
بين مجتمعٌ راقٍ وقلوبهم فاسدة!

ولنأخذ أمثلة حيَّة على ذلك لتروا الفرق بين من فسدت قلوبهم مع الصلاح الظاهري في دنياهم! فأفسدوا في الأرض! فأذاقهم الله جزاء فعلهم! وبين من صلحت قلوبهم فأصلحوا في الأرض! فغيَّر الله أحوالهم!

فأهل الغرب من كثرة الخيرات عندهم يَرْمُونَها في المحيطات!!! يحسب تجار الزبد في فرنسا وهولندا تكاليف تخزين الزبد، فيجدون أنهم سيخسرون بتخزينها، فيلقونها في البحر حتى يرفعوا السعر بتقليل المعروض منها! فلتأكل الأسماك ولا يهم إن تضور البشر جوعاً لتزيد الأرباح!

وهم بلاد لا توجد عندهم مشاكل كمشاكلنا، فالبطالة محدودة ومن لا يعملون يستلمون إعانات كافية وتفرش بيوتهم، والعمل المضني يأخذون له من عندنا العمال بالبخس، ولا توجد أزمات سكن أو زواج أو مواصلات، فالخيرات متوفرة، فكل خيرات الدنيا عجَّلها الله لهم: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ (٢٠الأحقاف).

ولكن لفساد قلوبهم! هناك ضِيقٌ في الصدور، وهناك شُحٌّ وأثرة وأنانية في القلوب وخصال ذميمة – أَمَرَ بِنَحْرِهَا والقضاء عليها علاَّم الغيوب– ولذلك نجد حياتهم كلها نكد في نكد!! ولا يظن أحدٌ أن حياتهم فيها سعادة لما يبدو من ظاهرها لعينه!، لأن الله قال فيها: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (١٢٤طه)، فمعيشته تكون ضنكاً على الدوام! ولذا تجدهم وإن كانوا متفوقين في أموال البنوك! وفي المظاهر الحياتية الحسيَّة الظاهرة .. إلا أنَّ عندهم ...:

- أكبر نسبة من المصابين بأمراض نفسية وعصبية.
- أكبر نسبة من حوادث الإنتحار!
- أكبر نسبة من عقوق الأرحام والأقارب!!!
- أكبر نسبة من حوداث الإغتصاب مع الإباحية الموجودة!.
- أعلى نسب الأمراض الجنسية على الرغم من رقي ثقافتهم الجنسية كما يدَّعون! وبرغم التطور الطبي والعلمي الهائل!
- أعلى نسب من حوادث القتل الفردي والإغتيالات!
- أقل نسبة من الأمان في الشوارع وبالذات للنساء!!

وأشياء أخرى كثيرة لا تحصى، ولكن ماسبق يكفي! وكلٌّ هذا على الرغم من أن الخير عندهم في الجيوب موجود! لكن الخُلُق في القلوب مفقود! .. السخاء والجود .. والإخاء .. والحب .. والحياء ... وهو الأساس الذى يتحكم في خيرات الوجود كلها!! كلٌّ هذا وأكثر غير موجود! فهل رأيتم حالهم!!! هل هذا ما نريده؟! أو ما نصبو إليه؟!!

ومجتمع أوَّلي وقلوبهم صالحة!

وهنا أنظر بالمقابل إلى أصحاب حضرة النَّبىِّ ﷺ .... لتعرف تأثير صلاح القلب بالتربية الإيمانية في إصلاح الفرد .. ثم في صلاح المجتمع! كان الخير في المدينة قليلاً، والخلق والإحتياجات كثيرة!! ماذا فعل ﷺ؟ ... ظلَّ ﷺ يُوَسِّعُ في الصدور، ويداويها بمراهم القرآن وفيتامينات النُّور إلى أن أصبحت هذه الصدور كما يقول العزيز الغفور: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٩الحشر)

فلم تعد هناك مشاكل بينهم، لأن الوسعة ليست وسعة الأقوات

والأرزاق وإنما الوسعة التى ينشدها المصلحون والنبيون وسعة القلوب ووسعة الأخلاق وهى التى تتغلب حقيقة على ضيق الأقوات والأرزاق! .. فالنبي ﷺ وغيره من النبيين اختارهم العناية الإلهية وأعطتهم المراهم الربانية، والأنوار الإلهية، والأشفية الربانية، التي يعالجون بها في مصحَّاتهم قلوب إخوانهم وصدور الملتزمين بشرعهم ودينهم .. وكذلك فعل العلماء العاملين والعارفين والصالحين إلى يوم الدين.

فهل استوعبنا المقارنة بين حالى المجتمع إذا صلحت قلوب أفراده حتى لو رقَّ حالهم؟ وما إذا فسدت قلوبهم حتى لو رقى حالهم؟

تلك هى خطوة الإصلاح الأولى التى ينبغى التحرك إليها حثيثاً في التوِّ، لأنَّ ما صرنا إليه اليوم في مجتمعاتنا هو أمر غنيٌّ عن التعليق! فمجتمعاتنا تقطَّعت الأواصر والصلات بين أهلها وتفسخت علاقاتهم!!! فهل يصحُّ أن يكون هذا حال مجتمع المسلمين؟ القائمين على دين الإسلام بين العالمين!

هل نستمر على ما نحن فيه؟! أم ننشد التربية الإيمانية والإصلاح والتغيير والصلاح؟! فلننشد الإصلاح.

صناعة الإصلاح .. إصلاح القلوب

فببساطة كلٌّ من يقتنع بدخول الإسلام كان النبي ﷺ يدخله، وبعد نبذ الشرك وتثبيت عقيدة التوحيد والإيمان بالرسالة، تأتي الخطوة الثانية وهى بيت القصيد المنتج! التربية، وتبدأ بإصلاح القلب خطوة بعد خطوة!:

إذا كان القلب محتاجاً لجرعة قرآنية تطهِّره يطهِّره النبي ﷺ بالقرآن، وعلاجه: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (٢١الإنسان)، فيتلو عليهم القرآن،

ويشرح لهم معاني القرآن فيطهِّره الله بالقرآن ومعانى القرآن وأنوار القرآن.

والذى ما زال عنده المرض شديداً، يأخذه النبى العدنان بالتؤدة والرحمة واللين إلى أن يجري له العملية الجراحية النورانية الإلهية التي يقول فيها ربُّ البرية في قوله الكريم: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ (٤٧الحجر)، فالذى يقابل أخاه يقابله بالسرور والإنشراح والإنفتاح والترحيب، وليس بالضغينة والحقد والنفور والإشمئزاز.

أمثلة في التربية والإصلاح

فالتربية الإيمانية وإصلاح القلوب هى علاجات المصطفى ووظيفة أهل الصفا والوفا في كل زمان ومكان.

فعندما تنصلح القلوب تطهر الصدور وتمتلىء بالنور، ومن امتلأ صدره بالنور يكون بالنسبة لإخوانه المؤمنين كالميت، لا يغتاب أحداً، ولا يحسد أحداً، ولا يحقد على أحد، ولا في نفسه حاجة لما في يدِ أحدهم، وكأكمل الأحياء الذين يمشون بالنور فيما ينفع جميع إخوانهم .... لماذا؟ لأنه مات عن قبيح الأمراض وتخلص منها، وهو من قال فيه الله: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ (١٢٢الأنعام)، أحياهم الله وصاروا يمشون بنوره ﷻ! وخذوا نموذجاً على ذلك:

١- الرحلة العجيبة لرأس الشاة

وصل بهم الحال لما تربوا على المائدة المحمدية وانصلحت قلوبهم أنـــه أرسل أحدهم رأس شاة مشويَّة لرجل فقير من إخوانه - فقير لكن قلبه غـــني وبالنور الذي فيه من الله ﷻ كبير - فلم يسترها عـــن الجـــيران لكـــى لا

يحسدونه، ولم يقل أغلقوا الباب جيداً حتى لا يأتينا أحد بغتة أو يسمع بنا أحد!، بل قال لزوجته: يا أم فلان، أنا أرى أن أخي فلان وعياله هو أحوج إلى هذه الرأس منَّا، خذيها وأعطيها لهم! فأعطوها للثاني الذى فعل مثل الأول، وأعطاها الثاني للثالث!!

ليس في قلوبهم مرض ولا غرض ولا عرض، وهو سرٌّ تعبنا الآن! لكن عندما شُفِيَتْ الصدور كما رأيتم عندهم، اختلف الأمر وصار كلٌّ واحد يؤثر أخاه بالخير! مع شدة حاجته وأهله وأولاده له!! { فمرَّت الرأس على سبع منازل}[٦٠] وقيل تسعة ورجعت للمترل الأول مرَّة أخرى، وقيل: { فبعثوا به فلم يزل يدور بالمدينة حتى رجع إلى أصحابه الذين خرج من عندهم }[٦١]

هل تصدقون طاف الرأس ببيوت المدينة؟ كيف تربَّى هؤلاء؟! مم صيغت نفوسهم؟! ألم يستشرف واحدٌ منهم للرأس أو تمنعه زوجته أو يرق لصبيته وكلهم فقراء؟! إنها الرحلة العجيبة من الإيثار التي استحقت وسام الإبهار .. الذى يتلى آناء الليل وأطراف النهار! يُذكر بأثر التربية الإيمانيَّة! والأدوية المحمديَّة في أصحاب النبى المختار: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٩)﴾ (الحشر)

وكان الإيثار يقع في الحرب، فيموت الثلاثة أو الأربعة لأن كلٌّ يؤثر صاحبه بشربة الماء بدلاً عنه! إنه إيثار بالروح أيضاً.

ولنطير إلى عصرنا الحالي وهاكم مثالاً عصرياً من بيننا اليوم:

٦٠ أخرجه الحاكم وصححه. وابن مردويه. والبيهقي في «الشعب» عن ابن عمر ﷺ (نقلناه بالمعنى).
٦١ مصنف ابن أبي شيبة

٢- نار الغيظ والغضب

كلكم تعرفون جيداً عندما يبتلى أحدنا بواحد متخصِّص يغيظه ويضغط عليه حتى يكاد ينفجر في وجهه!! فماذا سيحدث؟ الغيظ يوشك أن يترجم إلى حركات، وربما سُباب! وربما يزداد المفعول ويتحول إلى ركلات وضربات، وربما يزيد أكثر فيتحول إلى أعيرة نارية أو غيره!!.

ولكن إذا جلس هذا الرجل مع أحد من العلماء العاملين الحكماء من لديهم نورٌ من ربٍّ السماء! ويعرفون كيف يعالجون هذا الإبتلاء أو ذاك البلاء! فيجلسون ليحدثوه ويرققوه ويواسوه ماذا يحدث يا إخواني؟ يقوم من بينهم وقد ارتاح فؤاده، وذهب غيظه، وشفى داؤه ومرضه!!!! بأى دواء؟ بالدواء الذي يحتاج إلى نور حضرة العزيز الغفور ﷻ: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٥٧يونس)

فالموعظة جاءت من العالم الصالح أو الرجل المصلح وجاء معها الشفاء لما في الصدر وأذهب الله بها الغيظ! ... ألا يبين لكم هذا بسهولة ويسر فعل العلماء المصلحين وأثر الإصلاح في الأفراد.

٣- الشرود في الصلاة

ومثال ثالث لتتلمسوا حاجتنا لصلاح القلب بوضوح فأصحاب رسول الله ﷺ ربَّاهم ﷺ على هذه الفضائل، وعلى هذه الصفات العالية، وكان لكل واحد معرفة بنفسه ويقيس حاله ويذهب لرسول الله لطلب الدواء القلبى ويسأل إخوانه ليبصرونه بعيوبه! هذا ما كانوا عليه.

والمثل هو لو أن الواحد فينا الآن لو رأسه آلمته يسارع إلى الطبيب، وإذا لم يجد علاجاً في بلده يسافر للقاهرة! وإذا لم يجد في القاهرة، يسافر إلى الخارج، لأن رأسه توجعه ويحتاج لعلاج لها!!

هذا حسن! ولكن ... عندما يصلي لا يدرى ماذا يقول! وليس عنده خشوع أو حضور في الصلاة، ولا يسأل!! هل هذا يصح أن يترك قلبه مريضاً هكذا؟! ألا يطلب له الدواء؟! المطلوب أن تعالج نفسك من مرض الشرود في الصلاة، لتكون من الذين أثنى عليهم الله، وقال في حقِّهم في كتاب الله:﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾.(١-٢المؤمنون)

فهذه أمثلة ثلاثة مختلفة سقناها لبيان وظيفة وصناعة الإصلاح التي يقوم بها النبيون ومن بعدهم العلماء العاملون، ودعونا نلخص العبرة:

من حلَّ مشاكل هؤلاء الفقراء في المدينة حتى آثر كل واحد أخاه بالرأس وهو في شديد الحاجة لها؟ ما الذي سدَّ فاقتهم وهي على أشدها؟

إنما هو صلاح قلوبهم ووسعة صدورهم، وشفاؤهم من أمراض الأثرة والأنانية والأحقاد والأحساد والغلُّ والشُّحّ والطمع والحرص والبخل، وما شابه ذلك وهى الأمراض التى تدمر كل بلد وواد!.

وفي المثال الثاني من الذى منع الشخص الحانق من أن يتطور غيظه إلى فعل مدمر أو عمل مؤسف؟! قد يجر عليه العواقب، ومعظم النار من مستصغر الشرر، إنه برد نصيحة العالم الرباني العارف بأمراض النفوس .. نزل على حرِّ غيظ نفسه فبردها وطيَّبها، بل وربما التمس العذر لأخيه!.

ومن الذي يعالج القلب في المثال الثالث من غفلته وقسوته حتى إذا دخل في الصلاة لم يشرد من بين يدى الله؟! بل يعلم أمام من هو واقف فيتصل بالله ويصير كلما دعاه أجابه ولبَّاه.

إنه علاج القلوب الذى لا يوجد في صيدليات ظاهرة ولكنها أدوية ربانيَّة يصرفها ويعرفها النبيون ومن بعدهم العلماء العاملون الذين معهم أسرار العلاج الناجع ومعهم الترخيص الرسمى بذلك كما قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٢الإسراء)، لم يقل: (أنزلنا)، بل قال: ﴿ وَنُنَزِّل ﴾ بالمضارع المستمر، أى: يتترل باستمرار على قلوب العلماء والصالحين ما به يشفون المرضى من هذه الأمراض التي هى سبب كل بلاء يترل في الأرض أو يهبط على أهلها من السماء، فيصلحونهم، نعم إنها التربية الإيمانية في ورشة الإصلاح النبوية!

القاعدة الرابعة: الإصلاح بالإقتداء بالنبى  والعودة للكتاب والسنة

هذه القاعدة هي مثار للجدل الأوسع بين علماء الإصلاح وخبراء التربية والتنمية في مجتمعات الإسلام! لأن الكلام عن العودة للكتاب والسنة والتمسك بهما بحرٌ زاخرٌ لا أول له ولا آخر، وأهل العلم هذه الأيام كلٌ لرأيه ناصر ولأدلته شاهر! فخروجاً من الإشكال والخلاف والإختلاف .. نُقَعِّد هنا قاعدة أساسية لكل من أراد أن يكون له في الإصلاح والدعوة نصيب وافر.

وهى قاعدة سهلة يسيرة لمن يسَّر الله عليه ، وأنا أتبعها والحمد لله منذ سنوات بعيدة للدعوة للإصلاح والصلاح وسبيل النجاح والفلاح، كيف ذلك؟ لما كان الإصلاح هو غاية الرسالات وهدف العبادات والقربات، إذاً وببساطة: الإصلاح في الإسلام يكون بتحقيق غاية الرسالات والعبادات، وهذا لا يكون إلا بإقامة الدين ظاهراً وباطناً على الأساس القوى المبين .. من القرآن حبل الله المتين، وسنة النبي الأمين! .. وتلك هي القاعدة الرابعة التي أبسطها هنا:

الإصلاح بالعودة الشاملة بالإقتداء بالنبي والتمسك بالكتاب والسنة!

وإن لنا يا إخواني مئات المحاضرات والدروس والخطب في الإصلاح، ويمكنكم العودة لها بموقعنا على الشبكة[٦٢]، وستجدون أن الكثير منها يبدأ بآية من كتاب الله أو بحديث من أحاديث رسول الله ﷺ أو بحادثة انشغل بها الناس، ثم نتناول فيه شيئاً من شئون المجتمع التي دب فيها الفساد أو نخرها سوس جور الحكام أو العباد أو الحادثة الواقعة.. وتسير المحاضرة في كيفية التمسك بالآية وتطبيقها التطبيق العملي أو الحديث الشريف لعلاج تلك الحالة التى تفشَّت أو المرض الذي استشرى، ونكون بذلك قد وصفنا الدواء المناسب لهذا الداء الذى ظهر في تلك الأرجاء! وهذا يا إخواني هو أيسر المداخل للتمسك بالكتاب والسنة والرجوع لهما.

وكلكم تعلمون أنَّ الله أرسل رسوله ﷺ إلى العرب وهم أّذّل الناس شعوباً وأخوفهم أمناً وأفقرهم مالاً!، فآمنهم الله ﷻ به وبشرعه من الخوف وأعزّهم بعد ذلةّ وأغناهم بعد فاقة وجعلهم باتباع شرعه والسير على هديه سادة الأمم في عصورهم.

لذلك فأنا أسوق لكم هنا القاعدة الرابعة من قواعد الإصلاح في التمسك بالكتاب والسنة من قول الله تعالى في محكم كتابه في آية من آيات القرآن نأخذها ونعمل بها كما أمر الرحمن!!. فنتلمَّس تلك القاعدة في هذه الآية من كتاب الله أمرنا الله فيها أن نقتدى بحبيبه ومصطفاه فقال لنا عزّ شأنه : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢١الأحزاب).

فاليوم قد كثرت المشاكل وزادت عن الحد في مجتمعنا الآن! كيف نقضي على هذه المشاكل جميعها ؟ وكيف ننتهي من كل هذه الخلافات ويرجع إلينا عزّ الأمن والأمان ! والحياة المطمئنة في جوار حضرة الرحمن؟ نعرض ذلك على الله ﷻ لعلّ الله ﷻ أن

٦٢ يوجد بموقعنا www.fawzyabuzeid.com تحت التراث الوافي للشيخ، تحت المقالات: أكثر من مائة موضوع تحت الإصلاح، و٢٥٠ موضوعا تحت التصوف والتربية، و١٠٠ موضوع تحت الآداب والأخلاق، ومئات أخرى تحت ما يخص النساء والفتيات وإصلاحهن، ومئات من خطب الجمعة تحت نفس المواضيع وهكذا.

يُجيبنا على ذلك، ما الحلّ يارب لكل مانحن فيه الآن؟ الحلُّ في العودة للكتاب والسنة والإقتفاء لنهج سيد الأنبياء ﷺ.

ولكن ... هل نحن الآن غير متبعين لحضرته؟ نحن والحمد لله كلنا متبعون لحضرته صلوات الله وسلامه عليه، ولكن أغلبنا يتَّبعه في باب! ولا يتبعه في سائر الأبواب، أغلبنا يتأسّى به ويقتدي به في باب العبادات .. في الصلاة .. وفي الصيام .. وفي الزكاة .. وفي الحج!! ولكن هل صدقنا في تلك العبادات وأخلصنا لله فيها حتى أنتجت ما وعدنا الله به من إصلاح الأخلاق وتوسعة الأرزاق؟

نعم قد اقتدينا به ظاهراً في العبادات! ولكن أخبروني بالله عليكم:

من الذى يقتدي به في سلوكه؟! من الذى يقتدي به في أخلاقه؟! من الذى يقتدي به في البيع والشراء؟! من الذى يقتدى به في بيته ومعاملته لزوجه وتربيته لأولاده؟! من الذى يقتدي به في تعامله مع الجيران؟! من الذى يقتدي به في كيفية حديثه والألفاظ التي تخرج منه؟! من الذي يقتدي به في مشيه وركوبه وقعوده بل ونومه؟! من الذي يقتدي به في صلة الأرحام؟! وفى البر بالفقراء والمساكين والعطف على الأيتام؟! من الذى يقتدي به في إزالة الأذى وإماطته عن طريق المسلمين؟! ونحن نرى المسلمين يقطعون الطريق على إخوانهم في كل ربوع البلاد ليضرون مصالحهم ويعطلونهم عن شواغلهم عامدين!، وهم يعلمون علم اليقين أنهم متضررون مثلهم وليس بأيديهم حلاً لما يريدونه من مصالح دنيوية لا تُغنى عن أمور المجتمع الذى نحن جميعاً شركاء فيه!!، وغيرها مما نحن في أمّس الحاجة إلى الإقتداء فيها برسول الله ﷺ!

من منا يقتدى به ﷺ ويتمسك بالكتاب والسنة في كل أو بعض ما ذكرنا؟!! بينما كان ﷺ كما علَّمه ربه ﷻ وبيَّن لنا في قرآنه هو القدوة والمثل في كل حركة أو سكنة من حركات أو سكنات حياته!! وهذا بالضبط ما ينبغي على كل مسلم منا ألا يفعل أمراً صغيراً أو كبيراً ولا يتحرك حركة ولا يسكن سكنة إلا ويزنها بأفعاله ﷺ.

فأنت لو وزنت أفعالك وأحوالك بأفعال رسول الله ﷺ، ولو كانت أفعالاً عادية وليست في نظرك عبادية! كالتأسي به في طريقة الكلام، ومعاملة الأنام والحركة والسير والمشى خالياً أو في الزحام! فكلٌّ أفعاله كانت مطابقة للكتاب لأن خلقه كان هو القرآن، وكل أقواله كانت من مشكاة وحى الله فقد كان لا ينطق عن الهوى كما أخبر مولاه، وكما قال لأصحابه أنه لا ينطق في رضا أو غضب إلا بما يرضي الله.

فأنت بمتابعتك له تثاب على ذلك وتؤجر على ذلك، ويصير العمل الذى هو في نظرك عملٌ عاديٌ عبادةً لله جلّ في عُلاه ... تستحق عليها أعلى أنواع الأجر وأفضل أنواع الثواب وأرفع مقامات التكريم عند حضرة الكريم الوهاب ... لأنك تشبهت بحضرة النبي الأواب وسرت على هدى السنة والكتاب!.

أما لو سار الإنسان في حياته وفي دنياه على ما تأمره به نفسه وهواه ولم يُوفق للتأسى في كل ذلك برسول الله، كانت أعماله وبالاً عليه يوم يلقى الله، ولا يجد لها حسنة ولا أجراً ولاخيراً ولا برًّا! بل وأسوأ من ذلك أنه بحاله يصبح مدعاة للتنفير من دين الله ونشر الأمراض القلبية التى تنفر الناس منه ومن نهج حبيب الله! فأساس الأجور عند الله أن يكون العمل مطابقاً لما كان عليه رسول الله، لأنه بذلك ينصلح المجتمع ويتقدم ويرقى بفضل إقامة دين الله والتخلق بأخلاق حبيبه ومصطفاه.

وقد مشى على هذا المنهاج أصحابه الكرام فأعزّهم الله على جميع أعداء الله وأغناهم الله ... وجعلهم وجهاء في الدنيا وسادة وعظماء في الآخرة مع حبيب الله ومصطفاه، ولذلك قال سيدنا عمر ﷺ: { **إنّا كُنّا أَذَلّ قَوْمٍ فَأَعَزّنَا اللّهُ بالإسْلاَمِ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزّ بِغَيْرِ مَا أَعَزّنَا اللّه بِهِ أَذَلّنَا اللّهُ** }.[٦٣]

فنحن جماعة المؤمنين أجمعين وأتباع سيد الأولين والآخرين نحتاج إلى ثورة داخلية قلبية وصحوة إيمانية! ليس في المساجد فقط ولكن في الشوارع والمعامل والمصانع

٦٣ عَنْ طَارِقٍ. رواه الحاكم، وقال : صحيح على شرطهما.

والمدارس والجامعات، ثورة حقيقية لنرجع إلى القيم التى أرساها رسول الله ﷺ ونرجع إلى الأخلاق التى كان عليها ونرجع إلى الأحوال التي أمرنا أن نتجمّل بها، فإذا قمنا بذلك مجتمعين وجمعنا قلوبنا على ذلك فإن الله لن يخيّب رجاءنا، بل سيُصلح جميع أحوالنا.

لقد وقف النبي ذات يوم أمام الكعبة المعظمّة وخاطبها قائلاً : { مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ. مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ. مَالِهِ وَدَمِهِ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلاَّ خَيْراً }، وقال أيضاً: { كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ . دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ }.[٦٤]

حرّم علينا الإسلام أن نعتدي بالقول أو بالفعل باللسان أو باليد أو بالسلاح أو بالتشنيع والتجريح على كل من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله،.من سبَّ واحداً من المسلمين العاديين، ما وصفه وما نعته ؟ يقول فيه حضرة النبى ﷺ : { سِبابُ المُسْلمِ فُسوقٌ وَقِتالُه كُفْر }، أى أن من سبَّ مسلماً صار فاسقاً والعياذ بالله ﷻ، أما من يقتله فهو كفر!.

أمَّا من يشنّع على مسلمٍ وهو يعلم أنه غير ذلك، وإنما يشنِّع عليه قاصداً أن يهدمه أمام المجتمع وأن يُخزيه أمام إخوانه المؤمنين، يقول فيه ﷺ: { مَنْ قالَ في مُؤْمِنٍ ما لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ الله رَدْغَةَ الْخَبَالِ حَتّى يَخْرُجَ مِمّا قالَ }[٦٥]، لأنه لا ينبغي لمسلم أن يُشنِّع على مسلم ..... ولا يعتدي على مسلم .... وإنما المؤمنون أجمعون شرقاً وغرباً نساءاً ورجالاً .. شيوخاً وأطفالاً.. قال الله ﷻ لنا فيهم أجمعين:
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١٠الحجرات).

٦٤ الحديث الأول: سنن ابن ماجه، عن عبد الله بن عمرو، والثانى: عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ، صحيح مسلم ، والحديث بتمامه للفائدة { لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِـعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ. وَكُونُوا، عِبَادَ اللّهِ إِخْوَاناً. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ. لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ. التّقْوَى هَهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرّاتٍ: بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشّرّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ . دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ }

٦٥ حديث {سباب المسلم}: صحيح البخاري ومسلم ، عن عبدالله، حديث {ردغة الخبال}: سنن أبي داوود عن بن عمر، وردغة الخبال هى عصارة أهل النار أعاذنا الله تعالى منها ومما يقرب لها.

كلهم أخوة بينهم التآلف .. بينهم التواد .. بينهم التحــاب .. بينــهم الــشفقة والعطف والرحمة .. بينهم اللين .. بينهم كل الأخلاق الكريمة التى كان عليها سيد الأولين والآخرين، ويجمعهم قول الله ﷻ في كتابه المــبين: ﴿ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ (٢٩الفتح)، رحمــة سابغة في المعاملة، وفي الحديث، وفي البيع والــشراء، وفي الأجــر في المستــشفيات، وفي الأجــر في المــدارس الــتى بالمــصروفات، رحمــاء بينــهم، والــشدة علــى مَــن؟ ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ ﴾ (٢٩الفتح).

لكن وجدنا في هذه الأيام الشدة يعاني منها المؤمنون ويُروّع منــها المــسلمون ويُخاف منها الآمنون المُطمئنون، وإذا سكتنا ولم نتحرّك سيأتي علينا الدور أجمعــين!! من منا لم يعاني في طريقٍ سار فيه فوجد الطريق مقطوعاً واستمّر ساعات حتى وصل ؟ من منا لم يركب المواصلات فوجد فيها الغاصبين والخطرين يريدون أن يعتدوا علــى الآمنين؟! والكل يأخذ نفسه جانباً ويقول: (وأنا مالي) إذا قلنا جميعاً ذلك! حــاق بنــا أجمعين مانراه الآن!! .يا أمة خير الأنام، يا أمة بلدٍ مدحه الحبيب عليه أفضل الــصلاة وأتم السلام.. يامن قال فــيكم رســول الله ﷺ: { **إذا فتح الله عليكم مصر بعدي فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض** }.[٦٦]

بلدكم يُدَمَّر والإقتصاد يُدَمَّر والأمن يُدَمَّر والمنشآت تُدَمَّر!! كيف نعــيش في بلدٍ يُدَمَّر ونحن نتفرّج! وكلٌ يقول ما شأني ماذا أصنع وماذا أفعل؟! ليس هذا حــال المسلمين وليس هذا حال المؤمنين وإنما المــسلمين والمــؤمنين يتكــاتفون، قــال ﷺ: { **المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنيانِ يشُدُّ بعضُهُ بعضاً، وشَبّكَ بينَ أصابعِه** }.[٦٧]

لا بد أن نتكاتف لإزاحة هؤلاء المنافقين وليكن ما يكن، لا بد أن نهبَّ جميعــاً لتطبيق الأخلاق المحمدية والأوصاف القرآنية التى أمرنا الله أن نكون عليها في حياتنــا الدنيوية، ويكفينا في هذا المقام لو تخلقنا بخلقٍ واحد كان عليه الحبيب المصطفى عليــه

٦٦ عمرو بن العاص عن عمر فى كشف الخفاء، ووردت في المقاصد الحسنة للسخاوي.
٦٧ عن أبي موسى ﷺ صحيح البخاري.

أفضل الصلاة وأتم السلام حتى قبل بعثته وقبل تكليفه برسالته، لقد كان ﷺ يُدعى بين قومه قبل أن يترل عليه وحى السماء ، وقبل أن يجتبيه الله للرسالة وقبل أن يتترّل عليه القرآن، كان يُدْعى بينهم الصادق الأمين، والأمة كلها وصفها الله في القرآن، فقال:
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (١١٩التوبة)

الأمة كلها إسمها أمة الصادقين! لا يكذب أحدهم؛ لا كباراً ولا صغاراً، حتى في اللهو واللعب، أمناء حتى في الكلمات التي يسمعوها، والبضاعة التي يبيعوها، وعلى المهمة التى كُلفوا بها، والعمل الذين يقومون به في كل أمر.

فلو تخلّقت الأمة بالصدق والأمانة لرفع الله عنا كل عناء، فما بالكم لو تكاملت أخلاق النبوة فينا، وكانت أوصاف القرآن فيما بيننا .. يترل علينا الرخاء من السماء ومن الأرض ويجعل الله حياتنا كلها في هناء لأنه يقول وهو الصادق الوعد الذى وعده لا يخلف: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (٩٦الأعراف).

فإذا سكتنا عن الباطل فقد ورد في الأثر :{ لعن الله قوماً أضاعوا الحق بينهم }، وفيما روي عن جبريل وقوم موسى :{ أن الله ﷻ أمر جبريل : انزل إلى قوم موسى في مكان كذا، فاجعل بيوتهم أعلاها في الأرض وأسفلها في السماء، فقال: يا رب إن فيهم الصالحين؟! قال : فبهم فابدأ، قال ولمَ يارب ؟ قال: لأنهم رأوهم على المنكر ولم ينهونهم عنه، فابدأ بهم أولاً }، ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (المائدة)، وأنتم قد مدحكم الله قبل هذا الكون كله فقال في هذه الأمة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ لِمَ الخيرية؟ ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (١١٠آل عمران)، وقال الإمام مالك ﷺ: { إنما يصلح آخر هذه الأمة بما صلح به أولها }.[٦٨]

٦٨ مجموع فتاوي ابن تيمية، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.

ضرب النبى ﷺ مثلاً لما يحدث في مجتمعاتنا الإسلامية الآن فقال: { مَثَلُ القائمِ على حدودِ الله والواقعُ فِيْهَا، كَمَثَلِ قومٍ اسْتَهَمُوا على سفينةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا، وأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فكانَ الَّذِي في أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا من الماءِ فَمَرُّوا على مَنْ فَوْقَهُمْ آذَوْهُمْ، فقالُوا: لو أَنَّا خَرَقْنَا في نَصِيْبِنَا خَرْقاً فَاسْتَقَيْنَا منهُ ولم نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جميعاً، وَإِنْ أَخَذُوا على أَيْدِيْهِمْ نَجَوْاْ جميعاً }.[٦٩]

وانظروا لإعجاز الحديث الشريف فإن من يخرقون السفينة لا يلزم أنهم يريدون إغراقها بل قد يريدون صالح بعض ركابها لأنهم يريدون ألا يؤذوهم بالمرور عليهم! ولكن النوايا الطيبة حتى لو كانت هناك لا تشفع لترك هؤلاء يدمروا الأمة والعقلاء ساكتون!! فما بالك بأصحاب النوايا السيئة المتعمَّدة! المهلكة والمفرِّقة!!

فهذه هي سفينة بلادنا الإسلامية الآن تماماً، فينا قلَّةٌ يقولون نريد صالح البلاد ولكن يجانبهم الصواب في مسعاهم فيكادوا يهلكون الناس لو تركوا، وآخرون خابوا في مسعاهم فوالوا أعداء الدين لا يريدون إلا المصلحة الشخصية وتأتيهم الأموال منهم لتشتيت بلاد الإسلام وتفتيتها واستمرار الفوضى فيها وتضييع الأمان منها، حتى يتسنَّى لهم أن يصنع الأعداء في بلاد الإسلام مايريدون ويملكونهم فيها كما يظنون!.

بل ربما يأتي الأعداء بقواهم ويحتلون بعض أقطاره كما في العراق وأفغانستان التي لم يحاولوا أن يقاوموا زراعة المخدرات بها، بل ساعدوا عليها لأنها مصدر الفساد للدول الإسلامية، ومصدر الأموال لدعاة الفرقة والتطرف، أو يزكون الفتن حتى يقسموا بلاد الإسلام كما حدث بالفعل في السودان ويريدون عودته في اليمن وغيرها!.

فالغرب الآن أشد قلقا على صنيعتهم إسرائيل بعد ثورة مصر في يناير، وبعد تلك النهضة السارية في الأقطار العربية والإسلامية للصحوة الإسلامية! فهم قلقون وأكثر قلقهم وخوفهم من مصر لأنها القوة الضاربة في بلاد العرب والتى قال فيها ﷺ:

٦٩ عن النعمانَ بنَ بشيرٍ، رواه البخاري في الصحيح عن أبي نُعَيْمٍ ، السنن الكبرى للبيهقي.

{ مِصْرُ كِنَانَةُ الله فِي أَرْضِهِ، مَا طَلَبَهَا عَدُوٌّ إِلاَّ أَهْلَكَهُ الله }.[٧٠]

فيريد الغرب أن تكون مصر وبلاد الإسلام دائماً في قلاقل تُصدّر إسرائيل لها الزلازل والمؤامرات والمخدرات والمجرمين عن طريق سيناء، ونحن نستسلم! و من استعصى عليه مطلوبه يقطع طريقاً، أو يعطل مصلحة! أو يخطف أجنبياً! أو يفعل ما يشاء! بما لا يليق بالعقلاء! تقطع الطريق على من؟! وربما كان مريضاً تسببت في موته! فتحاسب عليه! هل هذا هو العمل بالكتاب والسنة والإقتداء بسيد الأمة؟!!

نحن نحتاج إلى الإصلاح وبشدة! أسأل الله تعالى أن يوفقنا للدعوة لإصلاح البلاد والعباد بالعودة إلى شرع الله وسنة رسول الله ﷺ.

القاعدة الخامسة: أدوات شرعيَّة لازمة للداعى للإصلاح

الآن وقد أدركنا وفهمنا أربعة قواعد تؤسس عليها عملية الإصلاح! فإن أى متصدٍّر للدعوة لإصلاح المجتمع سوف يصطدم بالكثير من الأحوال التى لا ترضي الله ولا حبيبه ومصطفاه، فمن أين يبدأ في التوجيه ليعيدهم إلى شرع الله؟

هو يعرف كما أسلفنا أنه يجب أن يبدأ بإصلاح القلب فهو اللبُّ، فمن أين يأخذ بأيديهم للعودة إلى الشرع الشريف من الكتاب والسنة!

وكما أوضحت آنفاً .. أن ابدأ أيها الداعي إلى الإصلاح من حيثما تجد مجتمعك يحتاج أكثر ما يحتاج في الوقت الذى أنت فيه والمكان الذى تدعو منه، إذ أنك نائب عن الرسل في توصيل الرسالة التي هي لنفع الفرد والمجتمع، ولذلك أقول لك أنَّ المستبصر في قضايا إصلاح الأمم يجد أن كلَّ نبيٍّ كان يأتي أمته بما يناسبها بعد توحيد الله، فهذا كانت دعوته توفية الكيل، وذاك دعى لترك الفحشاء، وذاك دعاهم لكذا، أى أن عملية

[٧٠] اشتهر على أنه حديث ولكن لم يرد وقيل فى الدرر المنتشرة وغيرها: لا أصل له، ولكن ورد في كتاب (الخطط) يقال: إنّ في بعض الكتب الإلهيّة:{ مِصْرُ خَزَائِنُ الأَرْضِ كُلّهَا، فَمَنْ أَرَادَهَا بِسُوء قَصَمَهُ الله }، وعن كعب الأَحبار:{ مِصْرُ بَلَدٌ مُعَافَاةٌ مِنَ الفِتَنِ، مَنْ أَرَادَهَا بسوء كَبَّهُ الله عَلَى وَجْهِهِ }، وعن أَبي موسى الأَشْعري: { أَهْلُ مِصْرَ الجُنْدُ الضِّعَافُ مَا كَادَهُمْ أَحَدٌ إِلاّ كَفَاهُمْ الله مَؤُونَتَهُ }، قَالَ تبيع بن عامر الكلاعي: فأَخبرتُ بذلك مُعاذ بن جبل، فأَخبرني أَنّ بذلك أَخبرهُ رسول الله.

الإصلاح تبدأ في كل وقت ومكان بأشدِّ ما يحتاج إليه أهل المكان والزمان.

وداعي الإصلاح[٧١] في أيامنا هذه يجد عشرات المواضيع والأشياء في كل مكان يذهب إليه أو يدعو فيه!! فماذا يفعل؟ وكيف يختار ما يحدِّث الناس فيه؟

الحاجة للقواعد الكليَّة الشرعيَّة فى التصدِّى للإصلاح

هو يحتاج لميزان البصيرة الإيمانية، ولفهمه الواعى والمدرك لمقاصد الشريعة، وأن يكون دارساً مستنيراً للقواعد الشرعيَّة الكليَّة التى جاء بها الشرع لضبط منافع ومصالح الخلق تحت راية الدين، وعالماً بفقه الضروريات والأولويات ويفهم كيفية إندراجها وإنشقاقها تحت القواعد الشرعية الكلية فيختار للناس ما يوجههم إليه مما يراه غالباً عليهم أو يكون باباً لإصلاحهم، فلا يشغلهم بقضايا فرعية ولا مهجورة، وأن يكون واعياً لواجبات الوقت والعرف والضرورة تحت القواعد الشرعية وما يتفرع عنها حتى لا يوقع الناس في الفتنة ولا يشق عليهم ولا يشغلهم بأمر هم أحوج لغيره، أو يكون حديثه لهم وبالاً عليهم ولو تركهم لكان خيرا لهم، وهذا لنقًص علمه بما ذكرنا مما يجب أن يكون على دراية به وفقه مستنير، لأن جمع الخلق على الحق هو هدفه الحقيقى وهدف الرسل وغاية العبادات! وما لم يصل لهذا فما نفع كل ما يفعل؟!.

ونحن هنا لسنا بصدد تدريس ذلك ولكننا نوجه أنظار الدعاة لهذا، لما وجدناه من تصدِّى الكثيرين بدون علم كاف لدعوة الإصلاح، فيخوضون فيما لم يحن لأهل بلد وقته!، أو باستخدامهم لأساليب ذهب زمانها!، أو لقلة استيعابهم لفقه الواقع والحوادث والضروريات، فأوقعوا الناس بدعوتهم تلك في المحظور أو المكابرة أو النفاق!، أو سبَّبوا الفرقة والخلافات! وحسن النية لا يشفع لهذا، فوجدنا أن من واجبنا التوجيه والتنبيه.

وما سنذكره هنا هو للتعريف والشرح وليس للإستقصاء والدراسة، فالشأن أكبر بكثير من وريقات قليلة ولكن سقنا الأمر بتبسيط مع إنتقاء أمثلة من واقعنا المعاصر

٧١ أنصح من أراد الإستزادة بكتابنا: { كيف تكون داعياً على بصيرة}.

لنحثَّ الدعاة على فهم تلك القواعد ولنعطيكم أيها الإخوان الكرام فكرة أولية عن بعض الأسس اللازمة لدعاة الإصلاح، وخذوا أمثلة على ذلك:

أولا: قاعدة الأمور بمقاصدها:

خذ مثالاً: الداعي يذهب لمكان فيجد شيئاً ينكره في فهمه، فيقيم المكان ويقعده دفاعاً عن الشرع في ظنه! ولو علم صحة مقصدهم مما وجد لفهم الأمر ووفَّر على نفسه مشقَّة التصدى لما بنى في وهمه، ولرحم الناس من ظنونه ولكفاهم شرَّ الفرقة التي يزرعها ساهياً أو غير مقدر لما يجني.

مثل رجل نزل بلداً فوجد فيها ضريحاً لرجل من الصالحين يزار،فاستشاط الداعي غضباً في دعوته لظنه أنَّ هذا خروج عن الشرع، ولو علم من الناس مقصدهم في فعلهم وفقه الأمر كفقههم لأدرك أنَّ المقصد شرعي لأنهم يزورون الرجل الصالح كما أمرت السنة ويسألون الله عنده كما فعل سيدنا زكريا، ولا يسألون الرجل نفسه! وهم لا ينوون طوافاً حوله وإنما قصدهم تنظيم الحركة دخولاً وخروجاً! فلو علم أنَّ الأمور بمقاصدها لفقهها ولأراح واستراح وما سبب فتنة أبداً.

ويتفرع عن تلك القاعدة فروع أخرى مثل العبرة في العقود بالمقاصد لا الألفاظ، والأيمان مبنية على النيَّات فيما يحتمله اللفظ، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

ثانيا: قاعدة اليقين لايزول بالشَّكِّ:

وهذه من أخطر القواعد التي يحتاجها الداعي للإصلاح اليوم، لأنه يتفرع عنها أن الأصل براءة الذمة، و أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته كما نقول اليوم، ففي الصباح تجد شائعة حول رجل أو امرأة ومساءاً هي حقيقة ظنيَّة يشيعها الداني والقاصي، بل ويستخدمها مدَّعي الإصلاح بلا تثبُّت ولا رويَّة فيقع في الأعراض زوراً وبهتاناً، ولا يزيد الناس إلا مزيد البلبلة

والشقاق! فأين الإصلاح؟ ولو رآهم الأوائل لحكموا عليهم بحدٍّ القــذف!!، وقس على ذلك الكثير مما جدَّ في أيامنا من أبواب الكلام!!!

ويتفرع عن تلك القاعدة أيضاً أن الأصل في الأشياء الإباحة، وهــو باب هام لكل الدعاة الذين يتصدون لتحريم الأشياء التى لم تكن في عهد النبى ﷺ بقياس فاسد لأنه فقط يعسر عليهم أن تتيسَّر حياة الناس! أو أنهم سمعــوا هذا من أحدٍ، ويريدون أن يحملوا الناس عليه، فبئس ما يعملون ولو أحسنوا التربِّى على أيدي أهل الفهم لتغيَّر حالهم، ويتفرع عن تلك القاعدة الكثير مما ليس المجال مجال ذكره هنا.

ثالثا: قاعدة المشقة تجلب التيسير:

وهى قاعدة غاية في الأهمية للسادة دعاة الإصلاح الذين يريدون أخذ الناس للإقتداء بسيد الناس والعمل بالكتاب والسنة، ولو أنهم فهموا جيداً ما تندرج تحت تلك القاعدة مثل: إذا ضاق الأمر اتســع، والضرورات تبــيح المحظورات، والضرورة تقدر بقدرها، وهى قواعد انتشرت بين الناس حــتى ضربت أمثالاً، ولكنها للأسف غابت عن كثير من الدعاة فشقوا على الناس وأوقعوهم في النفاق والفرقة والتطاحن!، والأمثلة على ذلك كثيرة و معروفة!

رابعاً: قاعدة الضرر يزال ويقيدها لايزال بالضرر:

وهى أيضاً قاعدة أساسية للداعي الذي يرى ضرراً أو مخالفة تستوجب الإزالة، ولكنه لا يهتم أنه بأسلوبه سيحدث ضرراً أشد فيعمى سمعه وبــصره ولا ينظر إلا لإزالة الضرر الذى رآه، والشرع يقول له تمهل ألم ترَ أنَّ هارون عليه السلام ترك بنى إسرائيل على عبادة العجل بعد أن رفضوا نــصيحته إنتظــاراً لعودة موسى دفعاً لضرر فرقة بنى اسرائيل وهو أشد!.

ويتفرع منها ما هو معلوم للجميع مثل درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، فقد يطوِّل الداعي في الصلاة ليحظوا بالأجر الوفير، فإذا بــه ينفِّــر

الناس من المسجد، أو يدفعهم لترك صلاة الجماعة فأى داعٍ هذا!، ويتفرع عنها أيضاً الكثير مثل: الضرر يدفع بقدر الإمكان، والضرر لا يزال بمثله بل بالأخف، ويُتَحَمَّلُ الضرر الخاص لدفع الضرر العام.

وهناك قواعد أخرى كثيرة مثل قاعدة العادة محكمة، ويتفرع عنها أن المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً، ويحتاجها داعي الإصلاح لمعرفة أن العادات حيث يذهب لها في الشرع قوة تقدر بقدرها، وليس له أن يناطح الناس أعرافهم لفهم عنده، بل عليه أن يأخذ القواعد ككل واحد ليعرف من أين يأتي الناس لنصحهم والأخذ بأيديهم لشرع ربهم بسلاسة ويسر، ومنها أيضاً أن إعمال الكلام (تنفيذه) أولى من إهماله، ما لم يتعذر، ويتفرع عنها كثير منه أن المُطلق يجري على إطلاقه مالم يقيد، وهذا يحتاجه الداعي الذي يريد أن يقيد أمراً مطلقاً لم يقيده الشرع لمظنة في خياله.

ومن أجمل وأتم ما جمع فيه السادة العلماء روح وفقه تلك القواعد السابقة هو الإشارة إلى أن الإصلاح بالتدريج وليس بالطفرة! .... كيف؟

الإصلاح بالتدرج في العلاج

والإصلاح بالتدريج لا يعنى التفريط في شرع الله، وإنما هو من شرع الله ولكنه يحتاج لجراح ماهر يتقن كل الأدوات السابقة ويعلم كيف يأخذ بأيدي الناس خطوة خطوة إلى التمسك بالكتاب والسنة! فهو يدعو لترك المحرَّمات جملة واحدة، ويعلم أنّ الطاعات فرائض وسنن، والسنن درجات، والأحاديث مراتب، وعلى ذلك يملك الداعي البصير والحصيف والفطن أداة الإصلاح بالتدريج والتي قال فيها الله في أسلوب الحكمة في العلاج: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (١٢٥النحل).، والتى قال فيها ﷺ في حديث معجز يبين كيف أن التدريج هو السنة الطبيعية لإصلاح الأمور وكذلك لإفسادها فقال ﷺ:

{ لا يَلْبَثُ الجَوْرُ بَعْدِي إلاَّ قَليلاً حَتّى يَطْلُعَ، فَكُلَّما طَلَعَ مِنَ الجَوْرِ شَيْءٌ ذَهَبَ مِنَ العَدْلِ مِثْلُهُ، حتى يُوْلَدُ في الجَوْرِ مَنْ لا يَعْرِفُ غَيْرَه، ثُمّ يأتِي الله تَبارَكَ وَتَعالى بالعَدْلِ، فَكُلَّمَا جاءَ مِنَ العَدْلِ شَيْءٌ ذَهَبَ مِنَ الجَوْرِ مِثْلُهُ، حَتّى يُوْلَدَ في العَدْلِ مَنْ لا يَعْرِفُ غَيْرَهُ }[٧٢]

فكيف استخدم القرآن والنبي العدنان مبدأ التدرج في العلاج؟ نأخذ مثالاً على ذلك كلكم تعرفونه وهو موضوع تحريم الخمر.

وجد ﷺ في مجتمع يغلب على سكانه شرب الخمر ويعدونها علامة على الصواب والقوة والفتوة، وينشدون الشعر فخراً بذلك ويتباهون بهذا الصنيع .. ولم يكن عندهم الكثير غيرها!! فكيف قضى عليها القرآن الكريم؟ بالتدرج الإلهي الذي طالب الله ﷻ المسلمين بإتباعه عند أي أمر.

ولذلك يقول أمير الشعراء أحمد شوقي عند وصفه لرسولكم الكريم ﷺ: (دَاوَيْتَ مُتَّئِدًا وَدَاوَوْا طَفْرَةً)، أي: دَاويت بالتُّؤدة والتَّروِّي والأناة، وهم يريدون أن يقضوا على الداء بمشرط!! وليس كُلُّ داءٍ ينفع معه المشرط!! فالداء إذا وصل إلى النَّفس وتلذذت به، تحتاج إلى التمهّل في استئصاله، ولا يستطيع الإنسان أن يقضي عليه بقانون، لأنه مَرَضَ مرضًا اشتدت وطأته على نفوس متعاطيه، لكن يحتاجون إلى هذا العلاج القرآني.

فكان أول ما بدأهم الله ﷻ – وقد حدث في الصلاة – أن بعضهم كان يؤم رفاقه، فقرأ بعد قراءة الفاتحة: (قل يا أيها الكافرون. أعبد ما تعبدون!!)، وَصِحَّتُهَا: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ ﴾ (٢الكافرون)، فنزلت: ﴿ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ (٤٣النساء) كأنه أعطِ نفسك وقتًا تفيق فيه من سكرتك لتؤدي الصلاة لربِّك ﷻ .. فمن شرب الخمر

٧٢ رواه أحمد في مسنده عن معقل بن يسار، مجمع الزوائد

عصراً.. لا بد أن يعطي نفسه وقتاً يفيق منها لصلاة المغرب، وبعد المغرب هناك صلاة العشاء، ثم هناك الفجر والظهر والعصر! فأصبحت الأوقات التي يسمح فيها بتعاطي الخمر ضيقة وقليلة فقلت كمية تعاطيها منهم، ثم بعد ذلك حدث خلاف بين بعضهم وكان يشرب الخمر فلم يدر ما قال!!.

والله ﷻ من حكمته في شريعة الإسلام أنه جعل كل أحكام الشريعة تدور حول خمسة مقاصد للشريعة، أو أحكام، في الصلاة والصيام والميراث والزواج والطلاق وفي الحرب والسلم، .. فالغاية من جميع الأحكام:

حفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال، وحفظ العرض، وحفظ الوطن، وكلُّ أحكام الإسلام تدور حول هذه الكليات الخمس:

فالعقل هبةٌ من الله، ولذلك أمر الله ﷻ المؤمنين بالإبتعاد عما يغيب هذا العقل، وكان ذلك هو السبب والعلة في تحريم الخمر والمسكرات، والإسلام يحفظ النسل، ويريد من الناس أن يتناسلوا بالطرق الحلال الشرعية، ولذلك حرَّم الزِّنا وحرَّم حتَّى الإقتراب منه!!! حتى لا يقع الإنسان في المحظور بعد دخول هذا الحمى الذي حرَّمه الله ﷻ بالكُليَّة.

وأمر الله ﷻ بحفظ المال لكل فرد، ولذلك حرَّم السرقة والإختلاس والرشوة والنهب، ووضع القواعد الشرعية الإلهية لقسمة الميراث حفظاً لهذه الأموال، حتى لا يتعرض الناس للمشاحنات والتقاتل والتخاصم، لأن هذا المال هو موضع الداء وهو سرُّ الشحناء والبغضاء بينهم، وكذا العرض والوطن وهى أمور لا تحتاج لبيان.

هذه الأمور الكلية هي التي يدور عليها كل الأحكام التشريعية في الديانة الإسلامية فلما أراد الله ﷻ أن يحفظ العقل منع المؤمن من الإقتراب من الخمر في البداية عند الصلاة، ثم لما وقع الشجار بعد شربها وغياب عقل

شاربه .. وتطورت الحوادث، والمسلمون بين أمر وآخر حتى رغبوا في البيان القاطع فيها، وسأروى لكم الحديث الكامل عن سيدنا عمر لتـــروا كيـــف تدرج الله معهم في تحريمها خطوة خطوة، قال عُمَرَ رضي الله عنه:

{ لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانا شَافِيا فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ (٢١٩) فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانا شَافِيا فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِي فِي النِّسَاءِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ (٤٣) فَكَانَ مُنَادِي رَسُولُ اللَّهِ إِذَا أَقَامَ الصَّلاَةَ نَادَى: { لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حتى تعلموا ما تقولون}، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانا شَافِيا؛ فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَلَمَّا بَلَغَ:﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ قَالَ: انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا }[٧٣] .

فمنع رسول الله ﷺ المؤمنين من شربها وجعلها من الخبائث ونهى عنها وقال فيها ﷺ: { الخَمْرُ أُمُّ الخَبَائِثِ }[٧٤]، يعنى لا تقربوها وابتعدوا عنها حتى لا تقعوا في الخبائث، ونهى عن عصرها، وعن بيعها، وعن الإتجار فيها، وعن حملها، وعن تقديمها، وعن الجلوس حتى على مائدة تدار عليها الخمور، فقال ﷺ:

{ لَعَنَ اللهُ الخَمْرَ وَعَاصِرَهَا وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَحَامِلَهَا وَالمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ }.[٧٥] .

وقد جمع في سبب تحريمها عشرة أشياء جمعها الأئمـــة الأعـــلام مـــن أحاديث رسول الله ﷺ، فجعل الخمر والميسر – يعني القمار، والأنـــصاب–

٧٣آية المائدة:{﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ ، الحديث فى سنن النسائي الكبرى عن عمر <

٧٤ : رواه الطبرانى فى الأوسط وابن النجار عن ابن عمرو

٧٥ رواه أحمد وأبو داوود والبيهقي عن ابن عمر.

يعنى الأصنام التي تصنع من الحجارة،– والأزلام – وهى الأصنام التي تصنع من الخشب، كلَّها شيئًا واحداً، وهي أربعة، فكان الواجب طبقًا لقواعد اللغة العربية أن يقول: إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوهم، لكن الله قال: ﴿ فاجتنبوه ﴾ يعني جعل الأربعة لهم حرمة واحدة، أي أن شرب الخمر يعادل عبادة الأصنام بأنواعها، ويعادل القمار بأصنافه ودروبه وأشكال، إذاً حرَّم الله الخمر في هذه الآية كتحريمه لعبادة الأصنام وهذا ما اجتمع عليه المسلمون.

ولذلك لما نزلت هذه الآية وصاح المنادى بتحريمها؛ روت كتب السنة أن أهل المدينة لما سمعوا النداء أراقوا كل ما عندهم من دنان الخمر بأصنافها في الطرقات فى ساعة واحدة بلا سؤال ولا تثبُّت، ومما روى روى فى ذلك: { حرِّمت ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها، وما حرِّم عليهم شيء أشد من الخمر، فأخرجنا الحباب إلى الطريق فصببنا ما فيها، فمنا من كسر حبه، ومنا من غسله بالماء والطين، ولقد غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حيناً، كلما مطرت استبان فيها لون الخمر وفاحت ريحها }، وقيل: { فو الله ما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل، فجرت في سكك المدينة فانصبت حتى استنقعت في بطن الوادي }[٧٦]، فلم يحتاجوا إلى قانون جنائي، ولا إلى مكاتب للمتابعة أو للقبض على المخالفين، لأن تشريع الله ﷻ مُبَجَّلٌ من الجميع، وفيه النفع والشفاء للجميع، وقد نزل لهم مع بيان الحكمة الشافية، فكان علاجًا لهذا الأمر ناجعاً إلى يوم الدين، وكذلك يا إخواني موقفهم من كل المنكرات.

وأنتم تعلمون من كتابنا هذا في الباب الأول كيف أن أمريكا حرَّمت الخمر ثم عادت وأباحتها مرة ثانية لما لم تستطع أن تجبر الناس على تركها بالقانون، ولكن مجتمع الإسلام في المدينة المنورة كان مجتمع التربية الإيمانية.

٧٦ الأول: عن أنس: نهاية الأرب في فنون الأدب وكثير من التفاسير والسنة، والثانى : فتح الباري شرح صحيح البخاري.

الباب الثالث

محاور دورة الإصلاح القلبية والتربية الإيمانية

المحور الأول: ترسيخ المفاهيم الأساسية

١-أولويـة التخلُّـق بـالأخلاق الإيمانيـة، ٢- الثبـات علـى المَبْـدَأ ٣- لِلحَيَاةِ غَايَةٌ، ٤- الأُخُـوَّةُ الإِيْمَانِية، ٥- تقييم الأفراد٦- قصر الدنيا وحتميَّة الموت، ٧- قيمة الدنيا، ٨- كِتْمَانُ السرّ ٩- الأَمَانَةُ، ١٠- الصَّبر، ١١- عُكُـوفُ الـسِّرِّ عَلَـى الله ١٢- سـلاح الـدعاء، ١٣- إمـساك اللـسان، ١٤- صحبة كتاب الله ١٥- صحبة الصادقين، ١٦- مراقبة الله عز وجل، ١٧- التوبـة ١٨- الـشكر والإسـتعانة بـالله، ١٩- ذكـر الله عـزَّ وجـلَّ ٢٠- التَّرْبِيَةُ وَالأَخْلاقُ جَوْهَرُ التَّصَوُّفِ، الصُّوفِيَّةُ والدَّعْوَةُ إِلَى الإِسْلامِ

المحور الثاني: نوافل البر

المحور الثالث: نبذ العصبية وإقرار الحقوق الإيمانية

المحور الرابع: نبذ الخلافات بين المسلمين

المحور الخامس: الوسطيَّةُ في الدين

المحور السادس: واجب إظهار جمال الإسلام للعالمين

المحور السابع: تحديث الخطاب الديني العصرى

عبادة التفكر عبادة لا تنقطع

المحور الثامن: معاملة أهل الذمة بالإسلام

الباب الثالث: محاور دورة الإصلاح القلبية والتربية الإيمانية

تتنوع أعراض وأمراض المجتمعات .... بتنوع المكان والزمان ....

لكن المتبصر في الفهم والإدرك والعالم ببواطن الحوادث والتاريخ يدرك أنه مهما ظهر في عصرنا من أصناف المنكرات فلن تجد لها على مدار التاريخ أكثر مما كان حادثاً في أيام الجاهلية.

والعجب العجاب أن القرآن الكريم قد استطاع أن يقضي على كلٍ هذه المنكرات بشيءٍ واحد! غرس الإيمان في القلوب، وجعله مسيطراً ومهيمناً على النفوس. فأصبحت النفوس مِلْكاً للمليك القدوس، لا تفعل إلاَّ ما يأمرها به الله، وتنتهي بإرادتها طواعيةً واختياراً عما نهى عنه الله، لأن هذا موجب الإيمان كما بيَّن كتاب الله، وكما وضَّح لهم رسول الله ﷺ، وليس هذا فحسب أنه قضى على ما سبق، أبقى خيره وأزال شره، بل بنى بناءاً جديداً واستطاع أن يحول أهل الشظف والبداوة إلى قادة مرموقين وسادة بالحق فاتحين ومربين مهيمنين، وفى سنوات قليلة تحولت الأحوال وتبدلت الفعال والأقوال وصار الأمر كما لم يطرأ بالخيال!

ولذا فلا عجب أن جماعة من الفلاسفة والمفكرين الغربيين درسوا تأثير الرجال العظماء في الخلق فاختاروا أفضل مائة رجل أثروا في البشرية ، فللأسباب التى ذكرنا أعلاه قالوا العظماء مائة وأولهم محمدٌ ﷺ، فمهما صرنا إليه اليوم من أمراض وأعراض أصابت بالنكبة البلاد والعباد، فإن التاريخ يعيد نفسه، ولا صلاح لها إلا بمنهج الهُدى والرشاد، الذي وضعه النَّبيَّ المصطفى وسار عليه أئمة الإرشاد، وستظل المسيرة إن شاء الله إلى يوم الميَعاد.

ولذلك بشرنا ﷺ وأصحابه الكرام من بعده الواحد تلو الآخر بأن حالنا سينصلح ونرجع إلى سدَّة هذا الأمر، بإتباع نفس منهج الهدى والرشاد

وبنفس الطريق فقال سيدنا أبوبكر ﷺ مثلاً: { وَإِنّ هذَا الأَمْرَ الَّذِي هُوَ أَمْلَكُ بِنَا لا يَصْلُحُ آخِرُهُ إِلاَّ بِمَا صَلُحَ بِهِ أَوَّلُه }، وقالها أئمة كثر وولاة في خطبة تولِّيهم، وبشَّر بها الإمام مالك ونقلت عنه كثيراً: { لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها }[٧٧] ... بل وأخبر حبيب القلوب ﷺ ووعد الأمة أن الله سيصلح أحوالها ويكشف ما نزل بها وقال مبشراً: { ويكثر المال ويفيض، حتى يحمل أحدهم صدقته في حجره، فلا يجد فقيراً يأخذها منه}.[٧٨]

وفى هذا الفصل يا إخواني ندرس محاور دورة الإصلاح القلبية والتربية الإيمانية التى يعقدها أهل التربية لأتباعهم، بعد أن يعلموهم القواعد والأسس التي تناولناها في الفصول السابقة.

المحور الأول

ترسيخ المفاهيم الأساسية

سنتناول بعضاً من المفاهيم الأساسية التي نحتاج لتأكيدها لتأتي عملية إصلاح القلوب ثمارها، وتنتج دورة التربية الإيمانية نتاجها.

وهذه المفاهيم يا إخواني، ليست مرتَّبة حسب أولوياتها وإنما طبقا لتناولنا لها في تواريخ مختلفة، وبالطبع ما ذكرناه لا يشمل كلَّ المفاهيم التى نحتاجها وإنما بعضاً من أشهرها، ونحن بالطبع نتجاوز هنا عما هو معروف من الدين بالضرورة من التوحيد وغيره من الأساسيات، فنرجو ألا يتوقف أحدنا ليقول أين كذا وكذا؟ فلو استقصينا لاحتجنا مجلدات وما وفَّينا إصلاح القلوب حقه!

وأول المفاهيم التي نريد ترسيخها هو أهمية الأخلاق الإيمانية، فلا نجاح بدونها.

٧٧ عن مقولة لأبي بكر: رواه ابن عساكر عن خطبة لأبي بكر ﷺ في جامع المسانيد والمراسيل، وعن مقولة لمالك بن أنس ﷺ فى مجموع فتاوى بن تيمة، وأضواء البيان وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.
٧٨ رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن حبان وابن عساكر عن أبي هريرة ﷺ .

١-أولوية التخلُّق بالأخلاق الإيمانية

أعلا ديننا ونبيّنا وقرآننا شأن عبادةً يغفل عنها كثيرٌ من المسلمين، بل ولا يظنونها أنها عبادةً ، بل هي أعلى عبادة يقوم بها المسلم لخلق الله، وينال بها رضا مولاه، وهي التخلقّ بأخلاق الله والتخلقّ بأخلاق كتاب الله وأخلاق حبيب الله ومصطفاه، فقد جعل النبي ﷺ الغاية العُظمى من الدين هي الخلقُ الحسن فقال ﷺ : { إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ }[٧٩]

وعندما مدح الله نبيه في القرآن لم يمدحه على العبادة لله، ولا على أى عملٍ يقوم به في تبليغ رسالة الله، ولكن مدحه بالخُلق الحسن الذى قال له فيه مولاه:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ (القلم)

جعل النبي ﷺ الخُلُق العظيم هو سبب كل فتحٍ وكل تكريم، فمن أراد أن يكون في ميزان حسناته ثقيلاً يوم الدين ماذا يصنع؟ قال ﷺ : { مَا من شيْءٌ أَثْقَلُ في مِيزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ }[٨٠]

ومن أراد أن يكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وأن يكون في جوار سيد النبيين والمرسلين .. ما العمل الذى يوصلك لذلك؟ وما العمل الذى يقربك لذلك؟ .. قال في ذلك حبيبي ﷺ: { إنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقاً }، ومن أراد أن يُحبه الله وأن ينال فضله ﷻ ورضاه؛ ماذا يصنع ليحبه الله؟ قال في ذلك حبيب الله ومصطفاه ﷺ: { إِنَّ للّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً. مِائَةً إِلاَّ وَاحِداً. مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ }[٨١].

فالخُلق الحسن مع خلق الله هو أفضل العبادات وأعظم النوافل التي يتقرّب بها

---

٧٩ سنن البيهقي الكبرى عن أبي هريرة

٨٠ رواه الإمام أحمد والترمذي عن أبي الدرداء

٨١ الأول: رواه الترمذي عن جابر، الثاني: رواه البخاري عن أبي هريرة.

العبد إلى مولاه، ويُثّقل بها ميزان حسناته يوم الدين، ويكون فيها وبها مع النبى المصطفى ومع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وما أحوجنا في مجتمعنا الآن أجمعين إلى الخُلق الحسن مع جيراننا، ومع زملائنا ومع أهل بيتنا ومع عشيرتنا ومع ذوي قرابتنا ومع المجتمع أجمعين، لأن مجتمع المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عُضوٌ منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى.

وهنا يعلمنا النَّبِيُّ الكريم ماذا يجب أن يكون عليه كل مسلم مِنْ الخُلُقِ العظيم، فالمسلم لا ينتقم ممن عاداه، بل يعفو ويصفح إذا مَكَّنَهُ الله ﷻ منه، تأسِّيا برسول الله ﷺ، فالمؤمنون هم المعنيون بقوله : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ وهذه هي الدرجة الدُّنيا ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ وهذه هي الدرجة الوسطى ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣٤آل عمران) وهذه هي الدرجة العليا، أقل المؤمنين مَنْ يَكْظِمُ غَيْظَه، ولا يشفي غيظه في مؤمن أو مسلم، لأن المؤمنين أخوة، كما قال الله ﷻ في شأنهم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١٠الحجرات)

وبيِّنَ النبي حقيقة المسلم، فقال: { المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده }[٨٢]، وأخرج المسلم الذي يتظاهر بالإسلام ولسانه لا يكف عن الآثام من المعيَّة المحمدية، وقال: { ليس المؤمن بسبَّابٍ ولا لعَّانٍ ولا فاحشٍ ولا بذئ }[٨٣].

وإنما سِمَة المؤمنين كما قال ربُّ العالمين: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الحج).

ولذا فالرسول ﷺ رغم أذية الكفار البالغة له إلا أنه قال لملك الجبال: { إنما أرسلت رحمة، إنِّي أرجو أن يُخرج الله ُمِنْ أصلابهم مَنْ يُوَحِّدُ الله ﷻ }.[٨٤]

٨٢ رواه مسلم والبخاري وأحمد عن جابر.
٨٣ رواه أحمد والبخاري في الأدب وابن حبان والحاكم عن ابن مسعود.
٨٤ رواه البخاري ومسلم وأحمد والبزار عن عائشة.

٢- الثبات على المَبْدَأ

هذا الدين يجعل المؤمن - أهم ما يحرص عليه - هذه المثل وهذه المبادئ وتلك الأخلاق، لأن الإنسان يحيا في سبيل هذا المبدأ!! وقد قال الله ﷻ في هؤلاء القوم: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (المائدة)

وهذا الصحابي الجليل صهيب الرومي ﷺ لما وجد أن الكفار يضيقون عليه ليترك الإسلام ويرجع إلى الكفر ولا يستطيع ذلك، لأن بشاشة الإيمان خالطت شغاف قلبه، استخار الله ﷻ وهاجر، فتبعوه بكثرة، وبكتيبة مجهزة مدرَّبة مدجَّجة بالسلاح، ليستعيدوه إلى مكة رغماً عنه، وليس معه إلاَّ سيفه ورمحه وقوسه وإيمانه بربِّه، وفى مسند الحارث يروى سعيد ابن المسيب ﷺ:

{ أقبل صهيب مهاجرا الى النبي ﷺ فاتبعه نفر من قريش ونزل عن راحلته، وانتثل ما في كنانته، ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرماكم رجلا! وأيم الله لا تصلون ألي حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي! ثم أضرب بسيفي ما بقى في يدي منه شيء! ثم افعلوا ما شئتم !! وان شئتم دللتكم على مالي وقينتي بمكة وخليتم سبيلي! قالوا: نعم! ففعل، وفى رواية وأعطاهم علامة لذلك }.

فاشترى نفسه منهم بماله!! فآثر مبدأه على ماله!! وآثر قِيَمَهُ الخالدة الإسلامية على هذه الحياة الدنيا!! لأن الإنسان قِيمَةٌ ومَثَلٌ ومَبْدَأ!! إذا مات الإنسان، يقولون: مات فلان إنه كان وفيَّاً، مات فلان كان رجلاً صادقاً، أو مات وقد كان رجلاً صادق الوعد، أو مات رجل الشهامة والمروءة!

لكن إذا مات وعنده مليارات جمعها من الخبائث والغشِّ والخداع،

يسبُّونَهُ ويلعنُونَه،ويقولون: كان يفعل كذا .. وكذا .. وكذا.

دَقَّاتُ قَلْبِ المَـرْءِ قَائِلَةٌ لَـــهُ إِنَّ الحَيَـــاةَ دَقَــائِقٌ وَثَوَانِ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا فَالذِّكْرُ لِلإِنْسَـانِ عُمُـرٌ ثَانِ

في الحال نزل له وسامٌ عظيم!! نزل به الأمين جبريل، وأمر النَّبيَّ ﷺ أن يطوِّقه به في عنقه أمامِ أصحابه مكتوبٌ عليه بمِدَادِ القدرة النوراني: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧ ﴾ (البقرة)، فقال النبي ﷺ عندما رآه:{ ربح البيع أبا يحيى! ربح البيع أبا يحيى }.[85]

ولهذا السبب كانت الهجرة، فالهجرة هي في الحقيقة هجرة في سبيل التمسك بالمثل والمبادئ والقيم الفاضلة التي أمرنا بها الله، ونوَّه على أهميتها رسول الله ﷺ، وقد جعل الله لنا فيها درساً عظيماً، لأن مَنْ يضحي بالدنيا في سبيل الحفاظ على المثل والمبادئ والقيم لا بد أن يذلِّل له .. ويسخِّر له الله كل ما في الدنيا، كما صنع مع حبيبه ومصطفاه، ومع أصحابه من الأنصار والمهاجرين رضي الله ﷻ عنهم أجمعين.

فقد ضَحُّوا في سبيل المبدأ، لأن الإيمان عندهم إيمانٌ صادق، فكانت النتيجة أن أقام الله لهم دولة، وكسب الإسلام بهم جولة، وصار لهم في عالم الناس كلِّه صولة، وقذف الله الرعب منهم في قلوب أعدائهم، مع أنهم لا يملكون تكنولوجيا تناسب العصر الذي كانوا فيه!! فقد كانت أسلحتهم بدائية بالنسبة للأسلحة الرهيبة عند الروم وعند الفرس، وقوتهم العددية لا تقارن بجيوش الأعداء، وأبدانهم ضعيفة!!، ولكن السرَّ أنَّ إيمانهم صلبٌ وصلدٌ وقويّ! وأنَّ الثبات على المبدأ يصنع المعجزات! ويفجِّر الطاقات!!.

٨٥ رواه ابن سعد والحارث وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم.

٣- لِلحَيَاةِ غَايَةٌ

وهاكم مبدأ آخر نحتاج لترسيخه في القلوب!

ألا وهو ما الغاية من هذه الحياة؟ ما سِرُّ نجاح هذه التربية الإيمانية؟ ذلك السرُّ أنَّه ﷺ ربَّاهم على أن يكون الولد منهم، والرجل منهم، والفتاة منهن، كلٌّ له هدفٌ كريم يسعى إليه، ويبذل في سبيل تحقيقه كل ما يملك، ولذلك فإن ديننا الإسلامي لا يعرف شباباً بغير هويَّة، أى لا يدري لماذا خلقه الله في الأرض؟ وما رسالته التي كلَّفه الله بها؟ وما مهمته التي ينبغي أن يقوم بها لينفع نفسه، وأهله، ومجتمعه ووطنه، والعالم كُلَّه؟.

لا بد أن يكون للشاب أولاً هَدَفٌ نبيل، ومُثُلٌ طيِّبة، وقِيَمٌ فاضلة، يجعلها أمام عينيه، ويسعى لتحقيقها، هذا هو النسق الأول الذي ربَّى عليه سيدنا محمد ﷺ شباب الإسلام الأوائل، فجعل هدفهم هو نشر القيم الإنسانية الفاضلة التي جاء بها من عند الله بين ربوع هذه الحياة، ولا تستقيم الحياة إلا بهذه القيم التي تستمد من الإيمان، وأضرب مثلاً لذلك:

النبي ﷺ عندما كان في مكة، كان أهل مكة يتركون عنده أى شئ يخشون ضياعه، لأنه لم يكن يوجد عندهم بنوك يحفظون فيها الأموال، ولا خزن يودعون فيها الأشياء الثمينة، فكان أى شئ يخشون عليه يعطونه لرسول الله ﷺ ليحفظه عنده مع اختلافهم معه في الدين، ومع أنهم يحاربونه ويعلنون عليه الحرب المستمرة التي لا تنقطع لكن لا تنقطع ثقتهم به.

وقريب من هذا يا إخواني حكاه لنا بعض من نثق بهم أنه اليوم في كولومبيا معبر مخدرات العالم من أمريكا الوسطى إلى أمريكا الشمالية، توجد أسوأ مدينة أو أخطر مدينة بالعالم لإنتشار جميع أنواع الجرائم بها وغياب

الأمن تماما تقريباً! وبها قليلٌ من المسلمين، ولكن لا يسافر أحد من أهل البلدة ويترك أهله إلا ويأخذ مقتنياته وأمواله ويكتب عليها إسمه ويتركها وديعة عند أى جار مسلم ولو لم يعرفه! وقد سأل من أخبرنا بعض أهل البلدة الذين قابلهم: "ولماذا لا يهاجم المجرمون بيوت المسلمين؟" فأجابوه:" لا يجرؤ أى مجرم على ذلك فقد عهدنا أن الربَّ يحميهم! فنحن نرى المسلمين علامة الطهر والنقاء والصفاء الذى يحيا بيننا"! .. هذا اليوم يا إخواني ولا تعليق!

٤- الأُخُوَّةُ الإِيْمَانِية

الأخوة الإيمانية .. هى الساحر الخفى! أو قل السحر الحلال الذى نحتاج إليه جماعة المسلمين لحل المشاكل الإجتماعية!! ...

الإسلام يحتاج منا جماعة المسلمين أن نكون فيما بيننا صورة حيَّة لتعاليمه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١٠الحجرات) ..

فكيف تكون أخوة الإسلام؟ وكيف نطبقها على مسرح الحياة؟

أن يُحِبَّ أحدنا لأخيه ما يحبُّ لنفسه، وإذا وضعت قلب أحدهم تحت الميكروسكوب الإلهي تجده نقيًا من الغِلِّ والغشِّ والحسد والكبر والبغضاء والكره، إن الله يقول في شأن المؤمنين: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ (٤٧الحجر).

وخذوا مثالاً قد يعرفه بعضكم ... يذهب بعض التلاميذ إلى بيت الإمام أبي حنيفة فيجدون عنده فئران، فيقول بعضهم: عندي دواء للقضاء على هذه الفئران، قال: وما هو؟ قال عندي قطة ماهرة إذا سمع الفئران صوتها فرُّوا جميعاً من البيت، فقال الإمام أبو حنيفة: وأين يذهبون؟ قال: إلى الجيران، قال: إذاً أكون قد آذيتُ جاري، والرسول ﷺ يقول: { ما زالَ

جبريلُ يُوصِيني بالجارِ، حتى ظَنَنْتُ أَنّهُ سَيُوَرِّثُهُ }.[٨٦]

أين هذا الحق الآن؟!! الذي جعل جار أبو حنيفة اليهودي ينظر إليه في يوم شات وقد وقف قبالة بيته متحيراً وقتاً طويلاً، فقال له ما بك يا إمام؟!! قال عندما مشيت في الوحل خرجت هذه القطعة من الطين فلصقتْ في جدار بيتك، وأنت قد نظفته ودهنته من قريب، فوقفت متحيراً إذا تركتها فقد آذيتك!! وإذا أزلتها فأثرها أيضا يؤذي شكل بيتك!! فهل تسامحني في ذلك؟!! فقال: وهل دينكم يأمركم بهذا؟!! قال: وأكثر من هذا، قال: إنَّ هذا لهو الدِّينُ الحقّ.

أين هذا من الجار الذي يؤذي مَنْ فوقه، ومن تحته، بمجاريه، أو بمياهه، أو بدقِّه، أو بوسائل ترفيهية من إذاعة أو تليفزيون أو فيديو، أو رائحة طعامه، أو غير ذلك مما يعجز العقل والوقت عن حصره؟!!

فقد وجد الإسلام مجتمعاً كلَّه عصبيات وأحقاد وصفات كلُّنا نعرفها وسمعنا عنها الكثير، ما الذى فعله؟ أصلح القلوب بكلام علاَّم الغيوب وبنُورهِ الموهوب، فلما صلحت القلوب، طَهُرَتْ لله، فأصبحوا كما قال فيهم الله:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١٠الحجرات)

وأنتم تعلمون بعد ذلك الذي حدث، الذى كان يقسم بيته مع أخيه، والذي يقسم ماله، وكذا .. وكذا، وعندما جاء خير كثير وأراد النَّبي ﷺ أن يوزع الفيء ويعطي فقراء المهاجرين على أن يردوا للأنصار ما تنازلوا لهم عنه قبلاً، أو أن يعطي الأنصار ويبقي للمهاجرين ما أعطوهم من المنازل وغيره! وخَيَّر الأنصار!، فقالوا: لا يارسول الله بل أعطِ إخواننا المهاجرين! وما أخذوه منا لا يردوه لنا، لأننا لا نرجع فيما خرجنا منه لله ﷻ.

٨٦ رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن عمر وعائشة والبيهقي.

بمثل هذه التربية الإيمانية جهَّزهم النَّبىُّ الكريم، فكان الرجل منهم تجده رجلاً في كلمته، صادقاً في وعده وأمانته، شهماً وذو مروءة في معاملته، لا يستبيح لنفسه أن ينكث العهد حتى مع الأعداء، ولا يسمح لنفسه أن يخون حتى ولو كان مع الكافرين، لأن الله قال للنَّبي الأمين حتى في حالة الحرب: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الأنفال)

أى اخرج إليهم للحرب بطريقة واضحة وعرفاناً بهذه التربية، وإيماناً بها، وحرصاً عليها، كان مجتمع المؤمنين الصادقين أجمعين في عهود الخلفاء الراشدين، وفى العصور الزاهرة في مبدأ الإسلام، ومن تبعه إلى يوم الدين.

فقد ورد أن رجلاً قتل رجلاً في خلافة عمر بن الخطاب، وأقرَّ بجريمته ولما قُدِّم للقتل، طلب مهلة أيام من عمر، وقال إنَّ له مالاً لا يعلمه أحدٌ غيره، ولى صبيةٌ صغاراً يريد أن يدلهم على المال! وطلب المهلة لذلك. ثم ليرجع ثانية ليقتل. فقال عمر ﷺ: وَمَنْ يَضْمَنُكَ؟ فتفرَّس الرجل – يعنى: نظر في وجوه القوم – ثم التفت إلى أبي ذر ﷺ وقال: هذا الرجل يضمنني. فقال عمر لأبي ذر: أتضمنه؟ قال: نعم. قال: فإذا لم يَعُدْ تُقتل به؟ قال: أوافق!، فأمهل عمر الرجل ثلاثة أيام، وغادر الرجل، ومرت الأيام الثلاثة، وفي اليوم الثالث اجتمعوا قبل مغيب الشمس بعد صلاة العصر ينتظرون، وأشفق القوم على مصير أبي ذر لأن الرجل لم يحضر، وبينما هم كذلك إذا هم يرون أسودة من بعيد – يعنى: شيئاً أسود يتحرك من بعيد – فقالوا: انتظروا لعله يكون ذاك الرجل، وفعلاً كان الرجل، وكان يَجِدُّ في المسير لِيُوَفِّىَ بوعده.

فتعجب القوم وقالوا له: ما الذي جعلك تأتي بعد أن نجوت من القتل؟!! فقال لهم منبهاً ومبيناً لحقيقة التربية الإسلامية: حتى لا يقال ضاع الوفاء بين الناس، فقال عمر لأبى ذر: فلما ضمنته يا أبا ذر وأنت لا تعرفه؟

قال: حتى لا تضيع المروءة بين الناس، فقال أهل القتيل: ونحن عفونا عنه حتى لا يضيع العفو بين الناس!!.

٥- تقييم الأفراد

وهنا مبدأ أساسى تعرف به قيمة الرجال! كيف نقيمهم ونزنهم بميزان القرآن الكريم، نسأل كتاب الله فيقول لنا: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٨٩الشعراء) .. وليس المقصود في الآية أن يكون القلب سليماً من الأمراض الجسمانية، ولكن سليماً من الذى قلناه من الأنانية والأحقاد والأحساد!

أى أنه لم يجعل الله الدنيا أكبر همِّه ولا مبلغ علمه بعد أن طهَّر قلبه لله، فأصبح همُّه كلُّه إما الباقيات الصالحات، وإما في مراقبة الله في الجلوات والخلوات، وإما في العمل الذى يعتقد – تمام الإعتقاد – أنه هو العمل الباقى له بعد زوال الأرض والسماوات، وهذا الإنسان الذى يصلح به كل زمان وكل مكان، فكان يربي الأفراد على هذه الخصوصية.

سيدنا عمر ﷺ بعدما وزَّع كل ما في بيت مال المسلمين، أمر خادم بيت المال أن يرشَّه بالماء، حتى يحضر هو وبعض نفرٍ من أصحاب النبىِّ ﷺ لصلاة ركعتين فيه، وحضر وصلى ركعتين وجلس معهم وقال لهم: تمنوا – يعنى ما الذى تتمنون أن يملأ الله به بيت مال المسلمين؟ { فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهباً أنفقه في سبيل الله وأتصدق وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجداً وجوهراً فأنفقه في سبيل الله وأتصدق، ثم قال عمر: تمنوا، فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين، فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وحذيفة بن اليمان }.[٨٧]

٨٧ : زيد بن أسلم حدّثه عن أبيه، عن عمر المستدرك على الصحيحين.

وذات مرة خرج عمر يمشي ومعه أصحابه ﭫ في البقيع فقال لهم: { ليتمنى كلّ رجل منكم أمْنِيّتَهُ. فقال رجل: يا أمير المؤمنين، وددت أنّ عندي مالاً فأعتق لوجه الله كذا وكذا، وقال آخر: وددت أن عندي مالاً فأنفق في سبيل الله، وقال آخر: وددت أن عندي قوة امْتَحَ بدلو ماء زمزم لحاج بيت الله، فقال عمر: وددت أن لي رجالاً مثل عمير[٨٨] استعين بهم في أعمال المسلمين }[٨٩]

أصحابه عندهم نوايا طيِّبة، كُلُّ ما يتمنونه أموراً تساعد على دعـــوة الله، أو توصل إلى رضوان الله ﷻ، لا يحتاجون إلى الدنيا ولا الأمـــوال إلا إذا كانت تعينهم على هذه المهمات، وتساعدهم على هذه الملمـــات، لكـــن لا يحتاجوها لذاهم، .. لكن عمر ﭬ ماذا يتمنى؟ يحتاج ويتمنى الرجال لأهم من ينقلون الجبال ويحققون معجز الآمال! ويقومون بما فوق الخيال!!

٦- قصر الدنيا وحتميَّة الموت

فقد حفَّظهم وعرَّفهم بأن الدنيا كلها قليلة، فعرفوا جيداً أن المرء مهما عاش في الدنيا فهو خارج منها.

ويسألونه في الدار البرزخية: أين تأشيرتك؟ وكم عاماً في الدنيا عشت؟ فيتعجب ويقول: هل أنا عشت سنيناً؟! فمنهم الذي يقول: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ (٤٦النازعات)، أنا عشت إما قدر زمن العشاء، أو مقدار وقت الضحى، فلم يكمل حتى يوماً واحداً، أما المجرمون فيقسمون بأغلظ الأيمان، يقولون: أهم ما عاشوا غير ساعة واحدة!! والساعة في القرآن لحظة وليست ستين دقيقة: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ

٨٨ الإصابة في تمييز الصحابة، و عمير يعني عمير بن سعد بن عبيد وكان صحابيا شهد فتوح الشام واستعمله عمر على حمص إلى أن مات وكان من الزهاد وله قصص مشهورة فى ورعه وزهده وتقواه لما تولى حمصاً.

٨٩ رواه الطبراني، مجمع الزوائد .

ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (٥٥الروم).

والنبي ذكر لأصحابه بعض الأسئلة التى سئلت للسابقين لأننا كلنا سنتعرض لسؤال الملكين فقال لهم: نبي الله نوح بعدما خرج من الدنيا سألته الملائكة وقالت له: يا نبي الله، كيف وجدت الدنيا؟ - مع أنه عاش ألفاً وثلاثمائة سنة، وتسعمائة وخمسين هذه مدة الدعوة، لكن عاش فترة قبلها، وفترة عاشها بعد الطوفان، وجملتها ألفٌ وثلاثمائة سنة - كيف وجدت الدنيا؟ قال: { **وجدتُها كَدَارٍ لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر!!** }

فما لنا نأمل ونريد الإستكثار من الدنيا! وإذا لم يأت المال من حلال أتفنَّن في الحصول عليه من حرام، وأتفنَّن في الخداع!! من أجل أى شيء؟!!

نحن جميعاً مسافرون، والتذاكر خَرَجَتْ من خزانة ربِّ العالمين، والسفر هذا على يقين، ولكن لا أحد يعرف الميعاد، ولا يعلمه إلاَّ أرحم الراحمين ﷻ، ويا ليتني أعرف الميعاد، كنت عندما أنحرف قليلاً أجتهد وأرجع قبل الميعاد، ولا أسوِّف!!.

٧- قيمة الدنيا

وهنا تدريبٌ عملي بعد الترسيخ القولي! تدريب يقوم به النبي ﷺ في دورات التربية الإيمانية التي يعقدها لأصحابه الكرام! وهذا الأمر حفَّظه رسول الله لأصحابه ﷺ، بالقول والعمل لشدة أهميته، ولذا كان يأخذهم مرَّةً بالأمثلة القوليَّة ومرَّةً بالأمثلة العمليَّة وخذوا مثالاً عملياً ...

صحب رسول الله ﷺ معه نفراً من أصحابه ﷺ مرَّةً إلى مزبلة خارج المدينة، فوجدوا ثياباً بالية! .. وعظاماً نخرة فقال لهم ﷺ:

{ هَلِمُّوا إِلَى الدُّنْيَا ... وَأَخَذَ خِرَقاً قَدْ بَلِيَتْ عَلَى تِلْكَ المَزْبَلَةِ ... وَعِظَاماً قَدْ نَخِرَتْ ... فَقَالَ: ... هذِهِ الدُّنيَا }.[٩٠]

هذا الكلام نعرفه ونأخذه من العلماء العاملين، لكن عندما انشغل الناس عن مجالس العلم وانشغلوا بالمسلسلات وبالمحادثات، وبالجلوس على المقاهي وفي الشوارع والنواصي، فمنِ الذي يقول له العالِم؟! لا أحد يسمع، واذا حضر أحد ليسمع يكون مغروراً يقول في نفسه ماذا يقول ومن هو؟ أهو الشعراوى! ولو كان فعدنا الشيخ الشعراوي في التليفزيون ولا نحتاج هذا!!

وهذا ليس منهج المسلمين الأولين، لأن العلوم أسرارها تؤخذ من المواجهة بين العالم والمتعلمين، وهذه المواجهات فيها أنوار تحصل في قلوب الأبرار يرسلها الواحد القهار، لا تأتي للإنسان ولو جلس فريداً يطلب العلم بمفرده سنين طوال ليل نهار!! بركة هذه المجالس التى تحفُّهم الملائكة التي تُنزل السكينة على قلوبهم، والرحمة التي تغشاهم من الله ﷻ.

ولذلك لما عرفوا قيمة الدنيا وطهرت جوارحهم من الشغل بها تدفقت حلاوة الإيمان في قلوبهم، فصارت أحوالهم فوق العقول والمفاهيم! وهذا مثلٌ لذلك: سيدنا عثمان ﷺ كان يقرأ القرآن كلَّه من أوله إلى آخره في ركعتين بين المغرب والعشاء! تقول كيف ذلك؟ لا أعْرَفْ، إنما هذه أحوال كان فيها هؤلاء الرجال – وما زالت إلى أن يرث الله ﷻ الوجود بأسره؛ فسألوه ما الذى بينك وبين القرآن؟ قال: **لو طَهُرَتْ القلوب ماشبعت من كلام علاَّم الغيوب.**

والرجل الذى جاء من الصحراء، وكان شاعراً عظيماً، وقصائده تكتب بالذهب، ويعلقونَها على الكعبة (المُعَلَّقَات)، أول ما صنعه معه أصحاب رسول الله، أن يرفعوا إنشغاله بحطام الدنيا الفانية من قلبه، ليترل فيه كلام ربِّه ﷻ، لأن كلام الله نُور، والنُّور لا يجب أن يترل على ماعون فيه

٩٠ أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمي مرسلاً.

تفكير في فِسْقٍ أو فجور!! ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ (٣٥النور).

لأنك تقرأ كلام الله بلسانٍ يقول الكذب والزور!! أهذا يناسب نور كلام الغفور ﷻ؟!! لأننى عندما أقــرأ: ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (٦١آل عمران). فأنا بذلك ألعن نفسى!! إذاً لا بد أن أطهــر أولاً اللسان، وأطهر القلب والجنان، لتصلح الأعمال الصادرة مني لحــضرة الرحمن ﷻ.

فسيدنا عمر يختبر الرجل بعدما أجروا له عملية الطهــارة القلبيــة وأخرجوا التعلق بالدنيا من قلبه وأشهدوه حقيقتها كما جاء بالكتاب وكمــا سمعوا من النبي الأواب، فيختبروا الرجل الشاعر اللبيب ويقول له: أنــشدنا بعض قصائدك، قال: يا أمير المؤمنين، أأنت تقول هذا! ما ينبغى لي أن أمــلأ قلبي بشيء غير كتاب الله بعد إذ دخله! لا أنظر إلى شعر أو نثر، أو نظــم أو أغاني، أو مواويل أو مسلسلات، أو أفلام، ولا شيء من هذا القبيــل! بعــد قول الله ﷻ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ (٤الأحزاب).

ولكن مشكلتنا أننا لا نرى الدنيا على حقيقتها! مشكلتنا أننا نريد أن نجمع الإثنين، الدنيا والآخرة، وهذا لا يجوز!! فأنا لو خالفت سوف أجــري لأحصل الدنيا وهى تجري أمامي! ولا أحصِّلها أبداً، وأخرج منها ولا أخذت الدنيا ولا جمعت للآخرة، لأنني كنت مفتون ســعيت للظنــون، وتركــت المضمون وضاعت مني الأيام والسنون!.

لكن لو عرفت قيمة الدنيا حقاً .. فأنا أجمع نفسي على الله، وهو بعد ذلك يسخر لي كل ما أحتاج له في هذه الحياة .. هذا هو ســبيل المــؤمنين وطريق الصادقين! ... الذي ربانا عليه النَّبِىُّ الأمين ﷺ.

٨- كِتْمَانُ السرّ

وكتمان الأسرار محور من محاور التربية الإيمانية!

لأنه ما ضاعت الشهامة والمروءة بين الناس إلا لما ضاع كتمان السر من بينهم، وصار الخل الوفي أندر من الكبريت الأحمر، وصرت لا تستطيع أن تأتمن أحداً على سر ولا تبيح بمكنون نفسك لأحد!!.

انظروا لتاريخ الهجرة النبوية مثلاً تجدون عجباً في كتمان الأسرار!.واسمعوا للسيدة عائشة تقول : { لَقَلّ يومٌ كان يأتي على النبيّ ﷺ لا يأتي فيهِ بَيتَ أبي بكرٍ أحَدَ طَرَفي النّهارِ، فلمّا أُذِنَ لهُ في الخروجِ إلى المدينةِ لم يَرُعْنا إلاَّ وقد أتانا ظُهراً، فخُبِّرَ بهِ أبو بكرٍ فقال: ماجاءنا النبيُّ ﷺ في هذهِ الساعةِ إلاّ لأمرٍ حَدَثَ. فلمّا دَخَلَ عليهِ قال لأبي بكرٍ: أَخرجْ مَن عندَكَ. قال: يارسولَ الله، إنّما هما ابْنَتايَ، يَعني عائشةَ وأسماءَ }[٩١] ردَّ أبو بكر في ثقة لأنهما تعلَّمتا كتمان السرِّ وعدم إباحته إلا بإذن مِمَّن همس به في آذانهما؛ فأنبأ النبى ﷺ أبابكر بخبر الهجرة فى وجودهما، لأنه يعلم أن سرَّه مصونٌ ولن يصل إليه الكافرون.

هذه قيمة يقول فيها ﷺ: { اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِتْمَانِ }[٩٢] ، وهى خصلة إسلامية ما أحوجنا إليها الآن في حياتنا الاجتماعية والدراسية وفي كل أحوالنا فإن معظم مشاكلنا سببها الأول عدم كتمان الأسرار، فمن يسمع سِرًّا من زميله يذهب بسرعة ليذيعه لصاحبه فتنشب الخلافات وتقوم الصراعات، والسبب الأول أننا لم نتأدب بأدب الإسلام وهو كتمان السِّرّ، قال ﷺ: { إذا حدَّثك أخوك بحديث ثم التفت فهو أمانة }[٩٣] .

٩١ صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها
٩٢ رواه الطبراني عن معاذ بن جبل في الثلاثة.
٩٣ رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة.

يعني لا تذعه ولا تبلغه لأحد إلا بإذن ممن قاله، فهذا الخُلُق ربَّى عليه النَّبِيُّ ﷺ أصحابه جميعاً من البداية من أيام دار الأرقم!، فأمَّن الجبهة الداخلية، فأصبح العدو لا يستطيع أن يخترق بجواسيسه صفوفهم، ولا أن يصل إلى أسرارهم وأخبارهم، ولا حتى الأطفال الصغار!! ولا تعجبوا فقد جعلت التربية الإيمانية منهم خزائن لحفظ الأسرار فاقت الرجال الكبار!!.

غلام من غلمان المدينة يقول: { انتهى إلينا النبيّ ﷺ وأنا في غلمان فسلم علينا، ثم أخذ بيدي فأرسلني في رسالة وقعد في جدار حتى رجعت إليه، فلما أتيت أم سليم قالت: ما حبسك؟ قلت: أرسلني رسول الله ﷺ برسالة. قالت: وما هي؟ قلت: إنها سرٌّ، قالت: احفظ سرَّ رسول الله ﷺ، فما أخبرت به بعد أحداً قط.}، صار كذلك لأن النبى ﷺ ربَّاه التربيَّة الإيمانيَّة كما أخبر بنفسه: { وكانَ أَولُ ما أَوْصَانِي به ﷺ أَنْ قال: يا بنيّ أُكْتُمْ سِرِّي تَكُنْ مُؤْمِناً، فكانَتْ أُمِّي وأَزْوَاجُ رسولِ الله ﷺ يَسالْنَنِي عَنْ سِرِّ رسولِ الله ﷺ فلا أُخْبِرُهُنّ بهِ، ولا أُخْبِرُ بسِرِّ رسولِ الله ﷺ أَحَداً أَبداً }[٩٤].

أتعرفون من كان الغلام؟ إنه أنس بن مالك ﷺ، الذى يحكى عن بدايته فيقول:{ قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ، وأَنا ابنُ ثمانٍ، فاخَذَتنى أُمِّي إِلى رسولِ الله ﷺ، فقالَتْ: يا رسولَ الله إِنهُ لَمْ يبقَ أحدٌ مِنَ أَلانْصَارِ إِلاَّ قَدْ أَتْحَفَكَ بتُحْفَةٍ وإِنِّي لا أَقْدِرُ على ما أُتْحِفُكَ بهِ إِلا ابْنِي هَذا، فخُذْهُ فليَخْدُمْكَ ما بَدا لَك }[٩٥].

وأظنَّكم بالطبع تعرفون ماذا أصبح!.ودعونى أخبركم أنَّ رسول الله ﷺ دعا له ﷺ قبل وفاته ﷺ قائلاً: { اللهم أطل عمرَه، وكثِّر ولدَه ومالَه، واغفر له، قال أنس: قد دفنت من ولدي حوالي المائة، وغَلَّتي تأتيني في السنة مرتين، وبلغ سنُّه مائة سنة وسنين لم يَعُدّها، وترك وراءه من الولد أعداداهم كالقبيلة الوافرة }.[٩٦]

٩٤ الأول : مسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك، والثاني: مجمع الزوائد عن أنس ﷺ.
٩٥ مجمع الزوائد عن أنس ﷺ (بتصرف).
٩٦ الفاضل في اللغة والأدب وغيرها

فربَّى الرسول ﷺ أبناء مدرسة الإيمان المحمدية بالمدينة من صغرهم على كتمان السرِّ، والسرُّ هو كلُّ مادار بينك وبين أحد من صديق أو والد أو ولد أو أم أو زوجة أو أي إنسان، في أمر خاص ذو شأن خاص، أما الأمور العامة في السياسة والألعاب الرياضية والدراسة، فليس هناك سرٌّ في إذاعتها، ولذلك أباحها لنا الله ﷻ، إلا ما استأمنَّا عليه.

٩- الأَمَانَةُ

ومحور آخر من محاور التربية الإيمانية، نحن في أمسِّ الحاجة له جميعاً، وأذكركم بالهجرة أنه لما أراد أن يخرج مهاجراً، وعنده ودائع القوم .. والقوم قد فزعوا أصحابه، وأخذوا دورهم وأموالهم، وتركوهم يخرجون بدون ممتلكاتهم - خرجوا بدينهم وتركوا ممتلكاتهم - ليستولي عليها الكافرون ظلماً وعدواناً، فجاء بشابٍ يبلغ ثلاثة عشر عاماً - شاب صغير هو عليٌّ بن أبي طالب - وقال:

{ يا عليّ نَمْ في فراشي هذا، قال: يا رسول الله أخشى أن يدخلوا عليَّ غيلة (فجأة) فيقتلوني، قال: أبشر فلن يصلوا إليك بسُوءٍ، ابقَ في مكاني لتَرُدَّ الودائع إلى أهلها }

وكان درساً عظيماً في الكون كلِّه، من بدءه إلى الختام! مع هذه الحرب، ومع ما أخذوه من أصحابه! إلا أنه يلقِّنُهم هذا الدرس العظيم: **{ أدِّ الأمانة إلى مَنْ ائتَمَنَكَ ولا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ }**[٩٧] ، فحتى لو خانك هو فلا تردها بخيانة، لأن كُلَّ إناء بما فيه ينضح، إذا كان سمح لنفسه بالخيانة فخُلُقِي ودِيني وإِيمَاني لا يسمحون لي بهذه الخصلة الذميمة.

٩٧ رواه البخاري وأبو داود والترمذي والحاكم عن أبي هريرة

وأعلن ﷺ على الملأ سمات أتباعه منذ بعثته إلى يوم الدين، ما أبـــرز سِمَةٍ يتَّسمُ بها مسلم في كل زمان ومكان؟ الأمانة!! فقال ﷺ: {لا إيمان لمن لا أمانة له، لا إيمان لمن لا أمانة له، لا إيمان لمن لا أمانة له}[٩٨]

خُلُقُ الإسلام الأول هو الأمانة، والأمانة في كل شئ .. في المال، وفي المقال، وفي النظر في الأشياء، وفي الأسرار .. في كل شئ، وعلى المـــؤمن أن يلتزم بهذا الخُلُق ... خُلق الأمانة.

ولذلك وعى أصحابه هذا الدرس فبعد هجرة النبي ﷺ بـــأكثر مـــن ثلاثة أعوام، جاء رجل يسمى أبو العاص بن الربيع وكان متزوجًا مـــن ابنـــة النبي السيدة زينب رضي الله عنها ولما هاجرت إلى المدينة – وظلَّ على كفره – فرَّق الإسلام بينهما، فحدث أنه كان على رأس قافلة كبيرة للتجارة لقبيلة قريش إلى الشام، وبينما هو عائدٌ بالتجارة بربحٍ وفـــير، شـــرح الله صـــدره للإسلام قريباً من المدينة، فهمس في أذنه بعض المرجفين ضعاف النفوس فقالوا له: مادُمْتَ أسلمت فلا تَرُدَّ لقريش مالها، وأعطه إخوانك المهاجرين تعويضاً لهم عن مالهم وممتلكاتهم التي أخذها الكفار منهم في مكة، لكنه رفض وقال: بئسما نصحتني به يا أخا الإسلام، أتريد أن أبدأ عهدي مع الله ﷻ بالخيانة؟! لا يكون ذلك أبداً، لا بد أن أبدأ عهدي مع الله بالأمانة.

فذهب إلى مكة وردَّ الأموال لأصحابها، وقـــال:{ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، هَلْ بَقِيَ لأَحَدٍ مِنْكُمْ شَيْءٌ ؟ قَالُوا: لا وَاَللّهِ، قَالَ: فَإِنّي أَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلاّ اللّهُ، وَأَنّ مُحَمّدًا رَسُولُ اللّهِ لَقَدْ أَسْلَمْت بِالْمَدِينَةِ وَمَا مَنَعَنِي أَنْ أُقِيمَ بِالْمَدِينَةِ إلاّ أَنْ خَشِيت أَنْ تَظُنّوا أَنّي أَسْلَمْت، لأَنْ أَذْهَبَ بِاَلّذِي لَكُمْ }[٩٩] ، وذهب إليهم في دارهـــم ولم يخشَ أن يقتلوه أو يحبسوه ويسجنوه، لأنه يريد أن يثبت لهم القيم الإيمانية.

٩٨ رواه أحمد وابن خزيمة وان حبان والبيهقي عن أنس.
٩٩ المغازى للواقدى

١٠- رِدَاءُ الصَّبر

والمحور التالي في الصبر .. وكم نحتاج للصبر اليوم وكل يوم!

الرسول ﷺ دعا أهل مكة إلى الإسلام فلم يستجب له منهم إلا القليل، ولم ييأس وتحمل آذاهم، وهو يدعوهم متجملاً بخُلُقِ الصَّبر، لأن الصَّبر هو العُدَّة الأولى التي يعتمد عليها أي إنسان يريد أن يبلغ مناه، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ (٢٤السجدة)

فالصَّبرُ هو الخُلُقُ الأول الذي يحتاج إليه الإنسان ليواجه كل ضروب الحياة، ولذا قال ﷺ:{ الصبر من الإيمان بمنزلة الرُّوح من الجسد }[١٠٠]، فكما أن الجسد لا يستغني عن الروح! فكذلك المؤمن لا يستغني عن الصبر.

والصبر من أول ما نستفيد في حياتنا من نبيِّنا ﷺ في قصة الإسراء، فإننا خاصة ونحن في مقتبل العمر يدور في أذهان شبابنا طموحات كبيرة، وأمنيات كثيرة، قد يضيق الزمن عن تحقيقها، وقد لا يُسعف المال بتحقيقها، فما علينا إلا أن نَتَدَثَّر برداء الصَّبر، ولا نتعجل في تحقيق الرغبات بما يخالف الشرع، وهذه أكبر آفة في مجتمعنا الآن.

فإن الناس – نظرًا لكثرة متطلبات الحياة – لا تكفي دخولهم الحلال لتحقيق ما يطمحون إليه، فيلجأون إلى أبواب الحرام، وطرق الكسب غير المشروع، ليحصلوا على الأموال التي يلبون بها طلباتهم، فيخسرون الدنيا والآخرة لأنهم خالفوا شرع الله ﷻ!

ذهب النبي ﷺ إلى الطائف – لَّما يأس من أهل مكة – ولم ينطوِ على نفسه، ولم تنتابه العقد النفسية أو الأحوال العصبية أو المرضية، لأنه مُجَمَّلٌ

١٠٠ رواه ابن حبان وابن عساكر والبيهقي عن علي وابن أبي شيبة والديلمي في الفردوس عن أنس.

بِرُوحِ الله، وإذا يأس من قوم ذهب إلى آخرين، وتلك حكمة النبيين والمرسلين، ويكفى أنَّ الصبر هو أوسع عطاء وأبر رزق يسوقه الله للمسلم كما وجد في الحديث الشريف: { مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَعِفّ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَا رُزِقَ الْعَبْدُ رِزْقاً أَوْسَعُ مِنَ الصّبْرِ }[١٠١]

١١- عُكُوفُ السِّرِّ عَلَى حَضْرَةِ الله

وهنا محور دقيق من محاور التربية الإيمانية!

إن عالمك الداخلي الروحاني هو باب الصلة التي بينك وبين مولاك، والحبل الموصول الذي يصل إليك منه الخير من الله.

لما ذهب رسول الله ﷺ إلى أهل الطائف ودعاهم إلى الإسلام، وكذَّبُوه، وآذوه، وسلطوا عَبِيدَهُم وصبياهم عليه، يحفون به عند مسيره من كل الجهات، منهم من يقذفه في قدميه بالحجارة!!! ومنهم من ينهشه بلسانه بِسَبٍّ أو شتمٍ أو تجريح!!! ما المخرج؟!!!

الصبر أولاً وقد علمناه، ثمَّ هنا يعلِّمنا الله ﷻ درساً عملياً إيمانياً، نحتاج إليه جميعاً في كل لحظات حياتنا. أنَّ الإنسان إذا ضاقت به الأمور، وانقلبت عليه الخطوب، ماذا يفعل؟!! يرجع إلى الله، ويفزع إلى مولاه، فقد قال ﷻ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٢-٣الطلاق)

وهذا الباب هو الذي يحفظ التوازن لعباد الله المؤمنين، فَتَقِلُّ بينهم نسبة الأمراض العصبية، والآفات النفسية، والحوادث الإنتحارية، لأن المرء عندما يرجع إلى الله، ويفرغ الشحنة التي ضاق بها صدره إلى الله، فإن الله يَتنَزّلُ عليه بالسكينة والطمأنينة، ويهدِّئ روعه، ويُسكِّنُ جأشه، ويثبِّت

١٠١ (ابن جرير). عن أَبي سعيدٍ، جامع المسانيد والمراسيل

نفسه، ويجعله يتحمل الصعاب بنفس راضية!

أما غير المؤمنين ... فإن أكبر دول يتمتع أهلها بالحضارة المادية: الدول الاسكندينافية (السويد، النرويج، والدانمارك)، هذه الدول لا يحسُّ المرء فيها بأي مشكلات حياتيه، من جهة العمل، أو السكن، أو وسائل المواصلات، أو أي أمر يحتاجه المرء في دنياه، لكن الإحصاءات التي تجريها المنظمات العالمية تثبت أنها أعلى دول في العالم في الأمراض النفسية والعصبية وحوادث الانتحار، لماذا؟!!!! لأن عندهم جفافٌ رُوحَانيّ، وليس لهم طريقٌ إيمانيٌّ يلجأون إليه عند المصائب، فاجعل سرك دائماً عاكَفاً على حضرة الله، وباب قلبك مفتوحا لله، ولا ترم أحمالك على سواه، تكن على خير وأحسن وأفضل ما تحبه وتتمناه!.

١٢- سلاح الدعاء

ومحور الدعاء باب أساسي من أبواب التربية الإيمانية ..

هو شأن تربوي لا يستغني عنه مؤمن أبداً .. ولكننا نهمله وننساه، فالإنسان إذا نزلت به مصيبة، أو حلَّ به كرب، ماذا يفعل؟ .. غير المؤمن يحاول ويحاول فإذا لم يجد مخرجاً، قد يذهب ليعاقر الخمر وينسى الأمر، فينشغل لحظات ثم يرجع إلى صحوه، ويجد الهمَّ ملازمًا له كما هو، فيلجأ إلى الإفراط في تناول المهدئات، أو إلى تناول المسكنات، وإذا يأس يلجأ إلى الإنتحار لينهي حياته غير آسف عليها!! أما المؤمنون - حتى الجاهلون والأميُّون - فإن الإيمان في قلوبهم يحفظهم من هذه المحن، ويثبتهم عند نزول المصائب، فلجأ النبي ﷺ إلى الله، وعلمنا بالدعاء أن الدعاء يُنَفِّسُ عن المكروب، ويُفَرِّجُ عن المحزون، وقال في دعاءه الوارد الذى دعاه ﷺ بعد حادثة دعوة أهل الطائف وقبل الإسراء: { اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةَ

حِيلَتِي وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي أَمْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ تَكُنْ سَاخِطاً عَلَيَّ فَلاَ أُبَالِي غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الْكَرِيمُ الذِي أَضَاءَتْ لَهُ السَّمواتُ وَالأَرْضُ وَأَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَنْ تُحِلَّ عَلَيَّ غَضَبَكَ، أَوْ تُنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطَكَ، وَلَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ }.[١٠٢]

فالدعاء يخفف الأحزان، ويُفرغ الشحنة التي تثقل صدر الإنسان وتجعله مهمومًا مغمومًا في حياته، والمرء منا إذا تعب من أمر، لا يرتاح حتى يفرغ الشحنة فيحكيها، قد يحكيها لزميل، وقد يحكيها لصديق، لكنه لا يأمن إذا حكاها لزميل أو صديق أن يفشي سرَّه، فيسبب له مشاكل، هذا إلى جانب ماذا يفعل الصديق أو الزميل في الكربات العظام؟!!! لكنه إذا لجأ إلى الله، وبثَّه هُمُومَهُ وشَكْوَاه، فرَّج الله عنه في الحال، ولذلك قالت السيدة عائشة ﵂: .... {كان ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَى الصَّلاةِ }.[١٠٣]

يعني لجأ إلى الصلاة، والصلاةُ دعاءٌ يناجي فيه الإنسان الله، ويُحَدِّثُهُ بما في قلبه أو في نفسه، فَيُفَرِّجُ عنه الله ﷻ.

دعا النَّبيُّ ﷺ ربَّه كما ذكرنا في أول حديثنا عن الدعاء، فاستجاب له اللهُ ﷻ في الحال، ونزل عليه الأمين جبريل ومعه ملك الجبال وقال له: .....{ يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ. فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ (جبلان يحيطان بمكة)، فَقَالَ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً }[١٠٤]

١٠٢ رواه الطبراني وابن اسحاق عن عبد الله بن جعفر.
١٠٣ أحكام القرآن ابن عربي، فتح الباري شرح صحيح البخاري)
١٠٤ صحيح البخاري ومسلم عن عائشة.

١٣- إمساك اللسان

وإمساك اللسان! وما إمساك اللسان في هذا العصر والأوان! إنه أصعب من القبض على الجمر أو إمساك حية من ذيلها! فأعظم وأخطر فتن هذا العصر تتأتى من اللسان والكلام وما يتبعه! وأخطرها ما ارتبط بالفكر!، وهذه تؤدّى كما قال ﷺ :
{ يُصْبِحُ الرّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً ، وَيُمسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً }[١٠٥]

لماذا ؟ من الفكر والبلبلة والإثارة التي فعلتها الفضائيات والنت، والتي فعلتها وسائل الإعلام، والتي تُثيرها القوى المُتعددة في المجتمع، مثل الأهواء، والنزعات، والميول، وهى ليست خالصة لوجه الله، كل هذه الأشياء عملت بلبلة في المجتمع، فماذا نفعل في هذا العصر؟ سيدنا رسول الله أكّد عليها فقال: **{ بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتّى إِذَا رَأَيْتُمْ شُحّاً مُطَاعَاً، وَهَوَىً مُتّبَعَاً، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُل ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصّةِ نَفْسِكَ }**[١٠٦]

ماذا يعني هذا؟ الآن الناس يُقحمون أنفسهم في الجدال في كل مكان وزمان، والجدال لا يأتي بنتيجة في النهاية لأهل العصر، فكل واحد مُعجبٌ برأيه، ومُتشبث به، ولن يتخلَّى عنه، فما الفائدة من الجدال؟!!.

ولذلك لا تشغل نفسك بغيرك، فاشغل نفسك بمن لا يؤمن وحاول أن تهديه للإسلام، خيرٌ لك من أن تشغل نفسك بمن آمن بفكر وأصرّ عليه، ولا تستطيع أن تُزحزحه قدر أنملة عما هو مُصِرٌّ عليه في فكره، فما الفائدة من هذا الأمر؟ فهذا

١٠٥ الحديث عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه وتمامه للفائدة: قَالَ: { أَتَتْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللّيْلِ الْمُظْلِم، يُصْبِحُ الرّجُلُ مُؤْمِنَاً وَيُمْسي كَافِرَاً ، وَيُمسي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِرَاً، يَبِيعُ أَحَدُكُمْ دِينَهُ بعَرَض مِنَ الدُّنْيَا قَلِيل، قُلْتُ: فَكَيْفَ نَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ قَالَ: تَكْسِرُ يَدَكَ، قُلْتُ: فَإِنِ انْجَبَرَتْ، قَالَ: تَكْسرُ الأخْرٰى، قُلْتُ: حَتّى مَتىٰ ؟ قَالَ: حَتّى تَأْتِيكَ يَدٌ خَاطِئَةٌ، أَوْ مَنِيّةٌ قَاضِيَةٌ}. (كر).

١٠٦ وتمام الحديث { وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعوَام، وَإِنّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيّامَ الصّبْر، الصّبْرُ فِيهنّ مِثْلَ الْقَبْضَ عَلَى الْجَمْر، لِلْعَامِلِ فِيهِنّ مِثْلُ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ، ــ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ ــ ؟ قَالَ: لاَ، بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ» (د تَ هــ حب) عن أَبي ثعلبة الْخشني رضي الله عنه (ز)، جامع المسانيد والمراسيل

شيعي، وهذا صوفي، وهذا سلفي، ما لنا وهذه الأمور؟!! نحن في الوسطية التى اختارها لنا الله في القرآن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (١٤٣البقرة).

وقال ﷺ ناصحاً لكل فرد من أفراد الأمة: { أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ }[١٠٧]، فأهم شيء في هذا الزمن أن الإنسان يمسك زمام اللسان، تطورت فرامل السيارات كثيراً! فلا بد من تحديث فرامل السان! فلا تتكلم إلا في ضوء قول الله: ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (١١٤النساء).

فإذا نطق للخلق أجمعين فيكون هديّه للناس أجمعين كما قال تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ (٨٣البقرة)، وإذا تحدّث مع المؤمنين فيكون هديه: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ (٢٤الحج).

فمن فعل ذلك أضمن له عند الله أن يكون من أولياء الله!

فمن يُنفّذ هذه الروشتة هنا؟ هي سهلة ولكن لمن يُعينه الله، لأن الإنسان دائماً يميل إلى الثرثرة، وإلى الإكثار من الكلام، وإلى إضاعة الوقت في اللهو.

لكن إذا كان المؤمنون: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾ (المؤمنون)، وهؤلاء هم المؤمنون، فكيف بنا ونحن نريد أن نكون من المحسنين، ومن الموقنين؟!! إذا كان المؤمنون العاديون يُعرضون عن اللغو، واللغو كما قيل: هو الكلام الذى لا يفيد، يتكلم في السياسة، أو في الانتخابات، أو في غيره، ماذا تُفيد الكلمات في هذه الموضوعات و أشباهها ؟!!

المؤمن لا يشغله إلا الإقبال على الله، أو المُهمّة التى كلفه بها الله، ومن أعلاها إظهار جمال الدِّين لخلق الله جلّ في عُلاه. ... من لا يتكلمّ كثيراً ماذا نُسمّيه؟ نسمّيه حكيماً، وهل يوجد مثل هذا؟ أو لقب مثل هذا؟ قال ﷺ: { مَنْ صَمَتَ نَجَا }[١٠٨].

١٠٧ عن عُقبةَ بن عامرٍ رضي الله عنه، جامع المسانيد والمراسيل

١٠٨ (حم ت) عن ابن عمروٍ رضي الله عنه، جامع المسانيد والمراسيل.

من الناجي في هذا الزمان؟ من يحافظ على الصمت فيأخذ دواء الصمت مع الخلق، وهنا سؤال عارض يفرض نفسه .....: كيف يصمت المرء و في نفس الوقت يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف؟ وأجيب فأقول: إذا صدقت النية يُوّفر الله للإنسان كل ما يحتاجه بلا سبب، وإنما من رب البريّة، وهذه لا تحتاج إلى تحكيم العقل، والأمر بالمعروف هنا لنا أولاً: هو أن تأمر نفسك وتنهِ نفسك، ثم أهلك ثم الأقرب فالأقرب، وبهذا تسير الأمور إن شاء الله رب العالمين.

لكن المصيبة هنا أنه يأمر الناس وينهى الناس، وهو لم ينتهِ ولم يمتثل، يخطب على المنبر خطبة عصماء عن الحجاب وابنته تسير في الطرقات وعورتها ظاهرة! .. فماذا يقول الناس؟ أليست هذه ابنة الشيخ؟ فكيف يسمعونه؟!! يتكلم عن القرآن وقيمة الوقت في القرآن، وعن الوقت وإضاعة الوقت، ويقول: الوقت أحدُّ من السيف! وكذا! وتجده في مقهى يلعب أو يتسامر أو في النت كافيه يضيع وقته!كيف تتكلمّ عن الوقت وأنت جالس تقتله؟! فلا بد أن يكون الإنسان أولاً قدوة في هذا العصر.

١٤- صحبة كتاب الله

وهذا المحور الإيماني من أسس حياة المسلم! فعندما قال سيدنا رسول الله ﷺ كما روى الإمام عليّ ﷺ وكرَّم الله وجهه: { **إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، قَالَ: قُلْتُ: فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: كِتَابُ اللهِ** }.[١٠٩]

فعليك بالقرآن فإنه حبل النجاة الذى أنزله في الأكوان! فإن أهل الصلاح والتقوى في زماننا هذا احتاروا كيف يسوقون المريدين ليستمرُّوا في تلاوة كتاب الله، ولا يقفوا مثلما يفعلون بعد رمضان، فيقرأوا ما تيّسر منه بعد رمضان، لأننا نرى بعضهم بعد أن ينتهي رمضان – وبعضهم قبل إنتهائه بيومين أو ثلاثة أيام – يترك

١٠٩ أخرجه البزار فى مسنده عن عليّ ﷺ.

تلاوة القرآن .. لماذا؟! هل وجدت الخير في غيره؟!! هل وجدت البرَّ في تركه؟!! هل وجدت خيراً في ترك الإستمرار في تلاوته وقراءته؟!!

ألم تتنزَّل عليك الخيرات؟!! ألم تأتك البركات؟!! ألم يُحطك الله عز وجل بالعطاءات والنفحات؟!! لماذا تتركه؟!! عليك بالقرآن، والقرآن يسَّره الله لنا في هذا الزمان كما قال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر)

لا تستطيع القراءة؟ .. تسمع!

وقد وفَّر لك سماعه في كل مكان، فإذا ركبت السيارة تسمعه من مُسجّل السيارة، أو المُسجّل الذى معك .. أصبح في هذا الزمان مُيسّر سماعه بالمحمول الذى معك .. فهل تُوجد الآن مشكلة؟ تريد أن تقرأ لا مانع، أو تريد أن تسمع لا مانع. فانظر إلى الحُجَّة التى عليك الآن؟!! فهذه حُججٌ عليك .. معك الموبايل وتستطيع أن تُنزّل عليه القرآن، وأنت راكب، وأنت جالس ستسمعه، في الطعام وفي الشراب، وكلنا معنا موبايلات، فما الذي يمنعك؟! فتحتاج أن تقرأ وتتدبّر: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر).

فالقرآن يا إخواني في هذا الزمان هو حصن الأمان.

١٥- صحبة الصادقين

أما دوام الإجتماع على الصادقين فإنه حصن حفظ حصين وأمين!

لماذا؟..... لأنهم الذين صدقوا في اتباعهم للنبىِّ الأمين، وهم يحفظون الخلق في هذا الزمان من الخزعبلات الفكرية، ومن الموجات الإلحادية، ومن الأفكار النفسية، التى لا تليق بالعبد مع ربِّ البريَّة، ومن كل الأشياء المُخزيّة .. ولذلك قال لنا الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (١١٩التوبة).

والسرُّ في ذلك ..أنَّ الإنسان دائماً يتشاكل – وإن لم يدرِ – مع من يخالطه ويجالسه ويصاحبه، فلا توجد عدوى تعدي الإنسان مثل الأخلاق والسلوكيات التي ينقلها من الجالسين، وتلاحظوها في أى مكان، فتنتقل لك طريقة كلامه وطريقة مزاحه، أو حتى تناوله للموضوعات، فتنتقل إليك العدوى وأنت لا تشعر.

ولذلك أنا في بلدتي أبحث عمن أجالسه – بشرط أن لا يشغلني عن الله – فلا أجد!! فماذا أفعل؟! أخذت من حديث النبي قوله: { لِيَسَعْكَ بَيْتُكَ }[١١٠]

فأجلس في بيتى .. وهو مفتوحٌ لمن يأتيني، ولكن ليتكلّمْ في مسألة شرعية، أو دينية، أو في مسألة شخصية (بصورة مُبسطة وليست تفصيلية) فلا مانع، أما إذا كان سيشغل الوقت في كذا أو كذا فأقول له: أنا ليس عندي وقت أضيعه!!!

فأنا في الحقيقة مُفلس، فكيف أذهب إلى الله وأنا مُفلس؟!! فلا أريد أن أبذّر ما بقي من العُمر، ولكن أدبِّر بعض الأمور!! تقول لي: كيف تكون مفلساً وأنت تُصلىّ وتصوم؟ أقول لك: أنا لا أدرى هل قُبلَتْ صلاتى وصيامي أم لا؟!.فالعبرة بالقبول، فإذا ضمنت القبول! انتهى الأمر! .. ولكن لا أضمن القبول، فأنا خائف من أن يقولون لي هناك:﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الفرقان)

اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، من يضمن القبول؟!! نعم! مع وجود الأمل – والحمد لله – ولكن لا بد من العمل!

فيحفظ الإنسان نفسه أولاً من الخطأ والزلل، وهو المهم، ولا يضمن الإنسان العصمة والحفظ من الزلل وهو جالسٌ مع الهالكين أو البُعداء التُعساء، فلن يصلح لأنه أحياناً اللسان يتكلم، وأنت تريد أن توقفه ولا تستطيع، لأنه يستمّر في الكلام، إذاً كيف يكون الحفظ؟ هو في مجالس الصادقين .. أما رفقاء السوء فنبتعد عنهم بالكلية، ولذلك سأل رجل الإمام أبا العزائم ﷺ وأرضاه وقال له: أنا أريد أن أسلك الطريق إلى

١١٠ مجمع الزوائد، عن عبد الله بن مسعود

الله ﷻ، أريد روشتة بسيطة، فماذا أفعل؟ قال له: **(طريقنا هو: مصاحبة الأخيار، ومفارقة الأشرار، والسير على المناهج والسنن والآثار)**

فهل يصّح أن أجالس الأخيار والأشرار معاً؟ لا، لا بد من مصاحبة الأخيار ومفارقة الأشرار، ولا أريد منك أكثر من ذلك، فأساس كل شيء أنك أولاً تُصاحب الأخيار، وتُفارق الأشرار، فصُحبة الصادقين تنفع وترفع إن شاء الله تعالى.

١٦- مراقبة الله عز وجل

محور المراقبة من محاور التربية الإيمانية التي كانوا يبذلون فيها النفس والنفيس حتى يتعلمه ويعيشه المؤمن! فلا يحتاج كل واحد واحداً بجانبه يراقبه .. لأنَّ مولاه معه حيث ذهب وولى! والمراقبة من أسس التربية الإيمانية التي تحل مشاكل المجتمعات بكلمة واحدة! وعندها لا تحتاج الأمة لكل هذه الجيوش من الشرطة والرقابة والتموين في كل مكان ووراء كل ناصية أو جدار.

سيدنا سهل التُّسْتَري الصُّوفي، لم يكن له في وقته نظيرٌ في المعاملات والوَرَع، وكانَ سببَ سُلوكه هذه الطريقَ خَالُهُ محمد بن سوار، فقد قال: قال لي خالي يوماً (قيل وكان عمره عندها ثلاث سنوات):

{ ألا تذكر اللَّهَ الذي خلقك؟ فقلت له: كيف أذكره؟ فقال: قل بقلبك عند تَقَلُّبك في ثيابك ثلاثَ مرات مِنْ غير أَنْ تحرّكَ به لسانَك: (اللَّهُ معي، اللَّهُ ناظرٌ إليّ، اللَّهُ شَاهِدي)، فقلتُ ذلك ليالِيَ ثم أعلمتُه فقال: قُلْها كلّ ليلةٍ سبعَ مرّات، فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال: قلها في كلِّ ليلةٍ إحدى عشرة مرة، فقلت ذلك، فوقعَ في قلبي حلاوةٌ، فلما كان بعد سنةٍ قال لي خالي: احفظْ ما علَّمْتُك ودُمْ عليه إلى أن تدخلَ القبرَ فإنه ينفعُك في الدّنيا والآخرة؛ فلم أزلْ على ذلك سنينَ، فوجدتُ لها حَلاوةً في سِرِّي؛ ثم قال خالي يوماً: يا سهلُ مَنْ كانَ اللَّهُ معه وهو ناظرٌ إليه وشاهدُه يَعْصيه؟!

إياك والمعصيةَ } فكانَ ذلك أولَ أمره. [١١١]

الله ﷻ غنىّ غنىً كاملاً، وماقدره من خير لعبد أو للعبيد لاينتظر من هذا العبد شيئاً يفعله للحميد المجيد ولايريد منا شيئاً، مع أنه يعطينا المأكل والمشرب ويحيينا ويهدينا، ولا يوجد أحدٌ منا إلا ووقع في شدّة، إن كان في مرض أو في حاجة إلى مال أو في مشكلة، ولا يوجد واحد منا وقع في شدّة وقال يارب وتخلىّ عنه أبداً .. من منا يا إخواني حدث له ذلك ؟ لو كل واحد منا كتب ماحصل له من حضرة الله يكتب مجلدات لأنه قال هذا: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾ (٢-٣الطلاق).

هو يريد شيئاً واحداً منا فقط وهو أن نتقي الله، ونراقب الله، ونخاف من الله، ونخشى من غضب الله، ونعمل حساب لليوم الذى نلقى فيه الله، وكل واحد منا يحسب حساباته ويجهّز صُحفه .. أنا راجع .. فماذا أحمل معي عند رجوعي إلى الله؟ كم مخالفة عليّ؟ وكم محضر مسجّل عليّ وسأحاسب عليهم هناك؟ وكم لي من الرصيد هناك؟ وذلك لكى أرضي خصومي وأعطيهم من هذا الرصيد ؟

يكفى واحداً فقط أو إثنين وينفد هذا الرصيد، ويقولون لى : إحمل عنا مما عندك .. المؤمن يا إخواني دائماً يحاسب نفسه على هذا الحساب، فأنا لا أعلم متى خروجي من هنا، فلو أعرف الميعاد، فلا مانع .. آتى قبلها بسنة وأترك كل السوء والمعاصي وأبدأ في الطاعات .. فمن منا يعرف بميعاد موته؟! ﴿ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ ﴾ (٣٤لقمان).

ليس معي شيئاً .. فلا بد وأن أكون جاهزاً دائماً على الفور للقاء الله ...

انظر إلى أصحاب رسول الله ﷺ.. فكلنا نحزن عندما يأتي الموت، لكنهم كانوا يفرحون { فقد روي عن حذيفة أنه كان يتمنى الموت، فلما احتضر قال: حبيب جاء

١١١ الوافي بالوفيات، وحلية الأولياء

على فاقة، وعن عليّ أنه كان يطوف بين الصفين بغلالة، فقال له ابنه الحسن: ما هذا بزي المحاربين، فقال: يا بنيّ لا يبالي أبوك، أعلى الموت سقط، أم عليه سقط الموت، وكان كل واحد من العشرة المبشَّرين بالجنَّة يحبُّ الموت ويحنُّ إليه، وعن عمار، لما كان بصفين قال: الآن نلقى الأحبة، محمداً وصحبه، ولَمّا احْتُضِرَ بِلالٌ قَالَ: غَدًا نَلْقَى الأَحِبّةَ مُحَمّدًا وَحِزْبَهُ، قَالَ: تَقُولُ امْرَأَتُهُ: وَاوَيْلاهْ ! وهو يقول: وَافَرَحَاهْ !.}[112] ... أين أنا ذاهب ؟ أنا ذاهب لرسول الله وصحبه الكرام!

إذا كان من يذهب من هنا بجسمه في الدنيا ليزور حضرة النبي ويطوف بالبيت نقيم له حفلاً وفرحاً ونهنئه .. حتى من يفوز في القرعة كلنا نبارك له، لماذا ؟ لأنه ذاهب ليزور النبي ويطوف بالبيت!، فكيف بمن هو ذاهبٌ إلى الله بذاته وليس لبيت الله! وذاهبٌ أيضاً لرسول الله وللصحابة الكرام والأنبياء والمرسلين والصالحين، وهم ينتظرونه ليهنئوه بسلامة الوصول !! .

١٧- التوبة

فالمؤمن ماذا يكون حاله؟ دائماً المؤمن يكون جاهزاً للقاء الله!

والله ﷻ يحبُّنا حبَّاً لا يستطيع أحدٌ أن يصفه، فهو يحبُّ المؤمنين:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾(٢٢٢البقرة).

يحبُّ الجماعة الذين يتطهَّرون! كلُّ فترة ذاهبون، آيبون، يتطهَّرون لكي يتوب عليهم الله ﷻ، ونحن لماذا نصلِّي؟ قال ﷺ:{ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ مَا تَقُولُونَ؟ هَلْ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شيئاً؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: ذلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِن الخَطَايَا }.[113]

١١٢ تفسير البحر المحيط ، تفسير السراج المنير الشربيني وكثير غيرها، وسير أعلام النبلاء، والوافى بالوفيات
١١٣ صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ.

فكلما أذنب الواحد منا، وارتكب بعضاً من الذنوب، ثم يخرجه الله من هنا مغفوراً له .. فيعود ثانيةً فيفعل الذنوب، فيخرجه الله من هنا مغفوراً له، فالله ﷻ يحبُّ هؤلاء القوم التوَّابين والمتطهِّرين .. فالتوبة! التوبة! وقد كان الحبيب القريب من مولاه يتوب إلى الله في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة! وهو من غفر اله له ماتقدَّم من ذنبه وما تأخر! فما بالنا بنا نحن! كم يجب علينا من التوبة في اليوم والليلة؟

١٨- الشكر والإستعانة بالله

وهذا الذى يأمرك بالتوبة ليغفر لك ويوفقك! ألا يجب عليك شكره؟ ونحن نحتار فيمن قدَّم لنا خدمة! كيف نشكره؟ هل نهديه؟ ونتشاور ما الهدية؟ ما المناسبة والخدمة التى أدَّاها لي؟ فمن منا يستطيع أن يحسب الخدمات التي قدمها لنا ربنا ﷻ؟ إن كانت في الدين أو في الدنيا أو في الآخرة؟ من يستطع أن يحسب هذه النعم؟!

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ (٣٤إبراهيم)

انتبهوا للآية، لم يقل (وإن تعدوا نعم الله) إنها نعمة واحدة فقط .. انظر إلى نعمة البصر، أو نعمة السمع، أو نعمة الكلام، أو نعمة الإيمان، أو نعمة الهداية .. نعمٌ لا تُعد ولا تحصى، فإن لم يكن المرء شاكراً على هذه النعم، فعلى الأقلّ يكون شاكراً لمولاه، ومن يشكر مولاه ماذا يفعل معه؟ ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾ (٧إبراهيم).

فالشكر باب المزيد!!ولذلك جعلناه محوراً هاماً في التربية الإيمانية وأسرار الإصلاحات القلبية التي عليها المعول لحل المشاكل الحياتية!، فكلما شكر يزيده من هذه النعم مادام هو شاكراً لله ﷻ على نعمه، فكيف نشكر على هذه النعم الإلهية؟ وانتبهوا لهذه الإجابة التالية! سيدنا رسول الله ﷺ بين لنا في حديثه المبارك :

{الإسلامُ أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ – أى توحِّده– ولا تُشْرِكَ بهِ }.[١١٤]

١١٤ صحيح البخاري عن أبي هريرة من حديث طويل عن الإسلام والإيمان والإحسان.

واعتنوا بفهم المعنى يا إخواني لأنه يغيب عن الكثيرين! الإسلام أن تسلم لله! ولا ترى سواه فاعلاً ولا غيره متصرفاً فتوحده ولا تشرك معه أحداً، عندها تستحق منه كل العون والعطف والزيادة التي تريد، والخير الذى تصبو إليه لتكون سعيدا!.

ونوضح أكثر فنقول: أى ترى الأفعال في نفسك وفي مالك وفي أهلك وفي ولدك وفي حقلك وفي أى شيء في الدنيا لك ولغيرك هي من الله ﷻ، وإياك أن تظن في لحظة أن هناك أحدٌ من العباد يقدر أن يضرّك بدون إذنه، أو يقدر أن ينفعك بدون إرادته، ولذا قال ﷺ فى الحديث الجامع المانع: { وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ.}.[١١٥]

قد يمرض الرجل، وأولاده به بررة، وأهله يحبوه ويريدون أن يذهبوا به لأى مكان ويدفعوا له أى مبلغ من المال، والمهم أنه يُشفى .. وهو ﷻ قدّر له أنه سيرجع إلى الله، ماذا يفعلون؟! الأطباء الذين يذهبون إليهم لا يستطيعون أن يفعلوا له شيئاً .. لماذا ؟ لأن مايصير هنا هو أمر الله جلّ في عُلاه .

فلا بد للإنسان أن يعلم علم اليقين أن الفعال هو الله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (٥٣النحل)، فإياك أن تتباهى بنفسك وتقول: أنا رجل شاطر، أنا رجل ماهر، أنا عقلي لايوجد مثله عقل، إذاً فمن الذى صنعه وخلقه ووجهه؟! كذلك نظري ليس له مثيل .. من الذى صنعه؟! وكيف لو أن نقطة وقعت عليه ماذا يفعل أطباء الدنيا كلها؟! .. ماذا يفعلون؟! لايستطيعون فعل شيء، يقول: أنا أسمع دبيب النملة، من الذي خلق فيك السمع، وأصلح السمع، ويوالى السمع؟! ولو تخلى عنه لحظةً تصير أصمّاً.

يقول : ليس هناك قوّةً مثل قوّتي، من الذى أعطاها لك؟! لو كان من الأكل لكان الأكل يعطي قوةً للذي يأكل، لكن القوة من الله والأكل هو سبب إذا جعل فيه الله سرّ القوّة التى تُقوّى العبد، فإذا أخذ منه سرّ القوّة ولو كان هذا الأكل كله فيتامينات فلن

١١٥ سنن الترمذي عن ابن عباس

يؤثر في الإنسان ولا يستطيع أن يتحرّك ولو حركة واحدة لأن الُمحرّك للكل هو الله ﷻ:
﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ (٢٢يونس)

فالمفروض أن الفضل تنسبه إلى الله ﷻ، فماذا أنسب لنفسي؟ أنسب لنفسي الذنب، والمعصية، والغفلة، والجهل: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ (٧٩النساء)، نعود كما كان عليه أصحاب رسول الله! كيف؟

الرجل يقول: يا فلان زرعك هذا العام كان ماشاء الله أحسن زرع في البلد، فيقول له: طبعاً! أنا وضعت السماد وعملت بهمة عالية وينسى فضل الله وتوفيقه! وهنا الخطأ، فالواجب أن تقول: هذا بتوفيق الله ومعونته، قد وفقني الله لعمل كذا وكذا، فيذكر أولاً توفيق الله ومعونة الله، لأنك قد تعمل كلَّ ذلك! ولا يصحُّ أو تهاجمه الآفات!.

مثالٌ آخر .. يقول الرجل : أنت يا سيدنا الشيخ كان صوتك في العزاء مثل الكروان، من الذي أعطاه هذا الصوت وجمّل هذا الصوت؟! ويُشرف على هذه الحنجرة ليخرج الصوت جميلاً؟ هو الله ﷻ، فلو وضع في الحنجرة مرضاً خفيفاً ينتهي الصوت! فماذا يقول ؟ يقول : هذا من فضل الله ومن كرم الله ﷻ ومن نعم الله ﷻ .

وآخر يقول : يا فلان إبنك ما شاء الله حصل على ٩٩ %، إذا كان غافلاً سيقول: لقد أعطيته دروس فى جميع المواد! وصرفت عليه كذا .. وينسى فضل الله!، أما إذا كان ذاكراً شاكراً من الصالحين أو الصادقين فسيقول: هذا من فضل الله، صحيح أنا عملت له كذا وكذا، لكن لولا فضل الله لما تمّ المراد، لأن المراد لايتم إلا بفضل الله:
﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ (٢١النور)

فينسب الإنسان كل شيء لربه ﷻ، هل نستطيع أن نفعل ذلك؟ هذا أول درس أعطاه سيدنا رسول الله لأصحابه الكرام وقال: { اللهم لولا الله ما اهتدَينا، ولا تَصدّقْنا ولا صلَّينا، فأنزِلن سكينةَ علينا، وثبِّتِ الأقدامَ إن لاقَينا }.[116]

١١٦ صحيح البخاري عن البراء رضي الله عنه

فالسبب في الهداية الهادي ﷻ، فلو ذهب الهادي وجاء المضلّ .. أنا وأنت ماذا نفعل؟! لو أن المضلّ جاء لأحد الأولاد ماذا تفعل؟!

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (٥٦القصص)، لن تقدر أن تفعل شيئاً لا أنت ولا أنا ولا أحدٌ أبداً، من منا يستطيع أن يُهيمن على القلوب أو يدخل عليها؟ من الذي يحرك القلوب؟ إنه علام الغيوب ﷻ: { **إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ كقلب واحد يصرفه كيف يشاء، ثم قال ﷺ: اللهمَّ مصرِّف القلوب، اصرف قلوبنا إلى طاعتك** }[117]

فالإنسان لكي يُوحِّد الله توحيداً حقيقياً لا بد أن يعمل بقوله ﷻ: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ (٧٩النساء)، فينسب الفضل كله لله ﷻ ... فأنا خطبت الجمعة اليوم، وهل أنا حضّرت لها من أسبوع؟ لا والله يا إخواني، فأنا ليس معي شيئاً ولا أملك شيئاً، لكن الموضوع هو أن الواحد منا يقف أمام الله ويقول: أنا الفقير وأنت الغني! أنا الجهول وأنت العليم! أنا الضعيف وأنت القوي! .... يا غني أغنِ الفقير .. يا عليم علِّم الجهول .. ياقوي قوِّ الضعيف!

وعندها ففى الحال يلهمك بالكلمات، وهو يمدُّك بقوة الصوت والنغمات والحركات، وهو الذى يتولَّى حفظ الإنسان من الهفوات .. الإنسان كثير الهفوات وخاصة زلات اللسان، مَن الذي يحفظك منها غير حضرة الرحمن ﷻ.

ولذلك سيدنا موسى نفسه قال: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (القصص)، فقال له: { **يا موسى سلني عن ملح قدرك وعلف شاتك** }[118].

يعني عندما تحتاج الملح أو العلف وهو في الدكان فارجع لي لكى أجعل صاحب الدكان يفتح حانوته وتجده غير مشغول بغيرك وعنده ما تريد فيعطيه لك! لكن لو لم

١١٧ مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما

١١٨ تفسير الرازي والألوسي

ترجع إلىّ فتطوف على حوانيت البلد كلها والبلاد التى من حولك، وتجدهم كلهم مغلقين، أو ليس عندهم طلبك!أو تفقد المال! فماذا تفعل؟! ارجع إلَّ في كلِّ شيء!

فسيدنا موسى أخذ هذا الدرس، وعندما آلمته أسنانه قال: يا رب ماذا أفعل؟! فقال له: إذهب إلى أرض كذا فيها نبات صفته كذا وخذ منه وضعه على أضراسك فتشفى بإذني، فذهب إلى الأرض وأتى بالنبات ووضعه على أسنانه فشُفي، وبعد فترة آلمته أضراسه مرةً ثانية، فقال في نفسه: أنا عرفت الطريقة، ولم يرجع إلى الله !! .....

والله عَجَّلَ يريدك أن ترجع دائما إليه في كل صغيرة وكبيرة، تريد أن تأكل فلا بد وأن تقول بسم الله، فلو لم تقل بسم الله ممكن أن يجعل لقمة واحدة تقف في حلقك، فماذا تفعل؟! لا الماء يترلها ولا الطبيب يستطيع أن يفعل لها شيئاً، لو وقفت الأجهزة التى فيك فهل أنت الذى تشغلها؟!.. هل أنت الذى سيشّغل المعدة للهضم؟! هل أنت من يشغّل اللسان لكى يتذوّق الطعام؟! هل أنت الذي تحرّك اليد لتمسك وترفع اللقمة؟! غير قوة الرحمن فهو عَجَّلَ قائمٌ بكل شيء، ولكن عندما تُسمّى الله عَجَّلَ.

فعندما أتى سيدنا موسى بالنبات ووضعه على أضراسه، زاد الألم فتذكر وقال: يارب لِمَ زاد الألم؟ فقال له: يا موسى في الأولى رجعت إلينا فجعلنا الشفاء في النبات، وفى الثانية لم ترجع إلينا فترعنا الشفاء من النبات!!.

إذا مرضت تقول أنا أعرف الطبيب فلان، وأعرف مكان الصيدلية، والعلاج معروف، الطبيب والعلاج هذا سبب، وأى سبب في الوجود لا يتحرّك إلا بأمرٍ من مسبب الأسباب عَجَّلَ، فإذا قال : إشفِ! يشفى!، وإذا قال : توقف! يقف الشفاء، فلا بد قبل الرجوع إلى السبب أرجع لله: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٨٠الشعراء). قبل الطبيب وقبل الدواء !!!

يقول الرجل : أنت يا فلان كيف شفيت؟ يقول له: ذهبت للطبيب فلان وكتب لي الدواء فأنا شفيت بسببه ببركة الطبيب .. هذا نسي مسبب الأسباب عَجَّلَ .. لا! بل أنا

أقول : بفضل الله ﷻ .. وبمنّ الله ﷻ عليَّ وبمعونة الله ﷻ لى .. ذهبت إلى الطبيب فلان وكتب كذا وتمّ الشفاء !!! أرجع أولاً لله ﷻ وقبل أن أتناول الدواء أقول: بسم الله الشافي المعافي، لأن الشافي المعافي لو وضع سرّه في الدواء يتمّ الشفاء!! ... لكن لو أخذ الله من الدواء سرَّ الشفاء فمن أين يأتي الشفاء؟

فالإنسان يرجع لله في كل الأحوال، فسيدنا موسى بعد ذلك يرجع لله في كل شيء، أخذ الدرس واستوعبه من أول النظر إلى وجه الله حتى رغيف العيش، ذهب لمدين وصنع جميلاً للبنات وسقى لهم وجلس ويريد أن يأكل، فلم يدر على البيوت ويقول: أريد طعاماً، ولكن ماذا قال؟ قال:﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ (٢٤القصص)، أنا أريد أن آكل يارب!، فربنا على الفور قذف في قلب شعيب وقال لإحدى بناته: اذهبي إلى هذا الرجل ليأتينا لكى نعطيه أجره على العمل العظيم الذى عمله لكم: ﴿ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا ﴾ (٢٥القصص)، مَن الذي وجَّه القلب ؟ الرب ﷻ!

وفوق ذلك الطعام طلب سيدنا موسى من الله ﷻ متعة خاصة إلهية فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ (١٤٣الأعراف)،وهنا مشهد عال! انظر: من أول النظر إلى وجه الله إلى رغيف العيش .. كله من أين؟! من الله! وأين نحن منً هذا يا إخواني؟!

وهل معنى ذلك أني لا أطلب من الخلق؟! أنا لم أقل ذلك، وانتبهوا لقولى! ماذا أقول ؟ نطلب من الأسباب ولكن ننسب الفضل أولاً إلى مسبِّب الأسباب ﷻ، لأننا لم نستغن عن بعض، ونحن كلنا نحتاج إلى بعض، ولكن لا ننسب الفضل لبعض إلا بعد أن ننسب الفضل أولاً لله وهذا هو المطلوب منا ... وهذا شيءٌ سهلٌ ولكن يحتاج إلى إنتباه الإنسان مع الله، وهذا معنى أن توحدّه ولا تشرك به شيئاً وأن تطيعه، يعنى تنفّذ شرعه الذى أمرك به الحبيب المصطفى.

ولا تعصاه أى لا تخالف الشريعة، لأن مخالفة الشريعة همٌ في الدنيا ونكدٌ في الدنيا والعياذ بالله وخزىٌ في الآخرة .. فكل المشاكل التي نحن فيها إن كان أفراداً او أسراً أو المجتمع سببها الأساسي مخالفة الشريعة.

١٩- ذكر الله عزَّ وجلَّ

وهنا محور من محاور الدين الأساسية .. ومن أعمدة التربية الإيمانية، وأحد الأدوات الرئيسية في العملية الجراحية لعمل الإصلاحات القلبية! ألا وهو ذكر الله!

فإن الله ينادي علينا في القرآن كل فترة : يا أيها الذين آمنوا .. ماذا تريد يارب؟ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾ (الأحزاب).

كم مرة ؟ لم يحدد .. يعني ماتقدرون عليه في ذكر الله .. وكيف وأين نذكر؟ ﴿ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ (١٩١آل عمران).

وأنت ماشي في الطريق فما الذى يمنع اللسان أن يتحرّك ويذكر الرحمن؟! وما المانع وأنت نائم أن تذكر الله؟ فأنت لو نمت على ذكر الله قال ﷺ: { مَنْ نَامَ عَلَى تَسْبِيحٍ أَوْ تَكْبِيرٍ أَوْ تَهْلِيلٍ أَوْ تَحْمِيدٍ بُعِثَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ نَامَ عَلَى غَفْلَةٍ بُعِثَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَعَودُوا أَنْفُسَكُمْ الذكْرَ عِنْدَ النَّوْمِ }.[١١٩]

فما الذي يمنعك من أن تذكر الله حتى تنام؟!

فإن الصلاة وهي أهم ركن في الإسلام لها شروط: لا بد وأن يكون العبد متطهراً من الحدث الأصغر والأكبر، والصلاة تكون في مسجد أو مكان طاهر، ولا بد أن تتجه للقبلة، لكن الذكر قال: لا أريد فيه مسجداً ولا تتجه للقبلة ولا تحتاج إلى الطهارة، حتى لو أن الإنسان كان جُنُباً ممنوع أن يصلي وممنوع أن يقرأ القرآن أو يلمس المصحف، لكن ليس ممنوعاً من ذكر الله، مع أنه جُنُب!! لأنه ليس هناك شيء يمنع عن ذكر الله.

ولذلك الذين سيدخلون الجنة ــ ونسأل الله أن نكون جميعاً منهم – هل هناك أحدٌ يدخل الجنة ويحزن يا إخواني؟ النبى ﷺ قال نعم، هناك من يدخل الجنة ويحزن، من هم يا رسول الله الذين بعد النعيم المقيم والدرجات العُلى يحزنوا؟! قال: { لَيْسَ يَتَحَسَّرُ

١١٩ الدَّيلمي عن الْحكم بن عمير رضي الله عنه

أَهْلُ الْجَنَّةِ عَلَى شَيْءٍ إِلاَّ عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ ﷻ فِيهَا }.[١٢٠]

والساعة يعني اللحظة، فيقول لماذا أنا ضيعت هذه الأوقات في الغفلة ولم أذكر فيها الله؟ أما الغني في الجنة فيقول : يا ليتنى كنت قد ازددت، والفقير في الجنة يقول: ياليتني كنت قد أكثرت، يندم على اللحظات التي تركها من غير ذكر الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ : ينادي علينا، فنقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك ربنا وسعديك ماذا تريد منا يارب؟ فيقول :﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ إياك أن تقول: أن مالك وعيالك يلهونك عن ذكر الله، ومن الذي يفعل ذلك ؟ . ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝ ﴾ (المنافقون).

وماهو المُبرر الذى ستقوله لربك عندما يقول لك أنت كنت غافلاً يوم كذا وساعة كذا؟! ماذا تقول له في عُذر عدم الذكر الآن؟! ليس لك عذرٌ .ماذا تقول له؟! هل تقول له: أني كنت أشاهد التلفزيون، أم كنت ماشياً في الطريق ناسي وغافل!! أليس الأفضل أنك تذكر الله؟! وإذا كان عندك هم أو غم فقد قيل: { تَعَرَّفْ إِلى الله فِي الرّخاءِ يَعْرِفْكَ في الشّدَّةِ }[١٢١]

وإذا ذكرت الله، فإنك تكون جالساً مع الله لأنه قال: { أَنَا جلَيسُ عَبْدِي حِينَ يَذْكُرُنِي }[١٢٢] ، ووقت ما تذكره يذكرك: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ (١٥٢البقرة).

كيف يذكرني؟ إذا ذكرته من الضيق، يفرج الضيق فهذا هو ذكره، وإذا ذكرته للشدّة يزيل هذه الشدّة، وإذا ذكرته وأنا مريض يشفيني من المرض، وإذا ذكره الطالب الذي يمتحن، فذكر الله له هو أن ينجّحه في الإمتحان، فذكر الله للعبيد أنه يقضي لهم الحاجات التي من أجلها ذكروا الله ﷻ.

---

١٢٠ (طب هب) عن معاذٍ رضي الله عنه

١٢١ المستدرك على الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما

١٢٢ أخرجه الدّيلمي عن ثوبان ﷺ، جامع المسانيد والمراسيل ، وتمام الحديث : { قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَب أَقَرِيبٌ أَنْتَ فَأُنَاجِيكَ، أَمْ بَعِيدٌ فَأُنَادِيكَ، فإِنِي أُحِسُّ حِسَّ صَوْتِكَ وَلاَ أَرَاكَ، فَأَيْنَ أَنْتَ ؟ فَقَالَ اللَّهُ: أَنَا خَلْفَكَ وَأَمَامَكَ وَعَنْ شِمَالِكَ يَا مُوسَىٰ، أَنَا جلَيسُ عَبْدِي حِينَ يَذْكُرُنِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي }

هل هناك عذرٌ في ترك ذكر الله في كل الأحوال؟

إذا كنت ماشياً أو نائماً أذكر الله .. بماذا ؟ **لا إله إلا الله فهذا ذكر، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فهذا ذكر، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فهذا ذكر، تلاوة القرآن فهذا ذكر، سماع القرآن فهذا ذكر، مطالعة العلم الدينى فهذا ذكر، مجلس العلم الذى نحن فيه فهذا ذكر، والإستغفار ذكر، والصلاة على حضرة النبى ذكر.**

الذكر مدده واسع وأبوابه كثيرة لكى لا يكون للمؤمن حجّة يوم لقاء الله ﷻ، من يارب أعلى الناس في الدرجة عندك؟ قال: أعلى الناس فى الدرجة ذُكروا في آية سورة الأحزاب فى قوله تعالى: ﴿ **وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾** ﴾.

ذكر الله قوماً بأهم أهل اليمين فقال: ﴿ **وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾** ﴾ (الواقعة) .... وذكر قوماً آخرين بأهم السابقون: ﴿ **وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾** ﴾ (الواقعة) .. فهؤلاء المقربون العالون كيف وصلوا؟

إستمعوا لحضرة النبي ﷺ إذ قال لأصحابه ﭫ وهم سائرون بجوار جبل جمدان: **{ سِيرُوا هَـذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ، قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتُ، يَضَعُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقَالَهمْ فَيَأْتُونَ يَوْمَ القيامَةِ خِفَافاً }**[١٢٣]، وفى روايات: **{الْمُفَرِّدُونَ . الْمُفَرَّدُونَ . الْمُفْرِدُونَ . الْمُفْرَدُونَ }**، فهؤلاء هم السابقون السابقون ! وضع الذكر عنهم أثقالهم حتى يلقوا الله ﷻ خفافاً، لأنه عندما تذكّر الله فإنَّ: ﴿ **إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ** ﴾ (١١٤هود)، فمثلاً:

لو أنت قلت: لا إله إلا الله مرة واحدة، حضرة النبى ﷺ ماذا يقول لك؟ .. **{ إِنّ الْعَبْدَ إِذَا قَالَ لاَ إِلـهَ إلا الله أَتَتْ إِلَى صَحِيفَتِهِ فَلاَ تَمُرُّ عَلَى خَطِيئَةٍ إِلاَّ مَحَتْهَا**

١٢٣ رواه مسلم والترمذي. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

حَتّى تَجِدَ حَسَنَةً مِثْلَهَا فَتَجْلِسَ إلَى جَنْبِهَا }.[١٢٤]

فعندما تقول : لا إله إلا الله، تذهب إلى صحيفتك فتمسح كل الذنوب التي بجوارها، إلى أن تجد حسنة فتقف بجوار هذه الحسنة: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ (هود). وقال: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الواقعة)...ف ماذا يفعل؟؟ لا يملّ ولا يكلّ ولا يغفل عن ذكر الله ﷻ.

٢٠ – التَّرْبِيَةُ وَالأَخْلاقُ جَوْهَرُ التَّصَوُّفِ الإسلامِي

وهذا المحور جعلناه لأجل أن نؤكد للجميع أن التصوف الحقيقي هو الحالة الصافية الطاهرة النقية التي كان عليها الأصحاب والأتباع للحبيب المصطفى ﷺ، فلم يكونوا بحاجة لإسم خاص ولا لتسمية لأنهم كلهم كانوا جميعاً على تلك الشاكلة من الصفاء والنقاء والأخوة الإيمانية!.

وعلى ذلك فهذا المحور هو محور جامع لكل ما سبق من المحاور التربوية الإيمانية النظرية والتطبيقة ولذلك ختمنا به المحاور التي نريد ترسيخ مفاهيمها معاً، والله المستعان وبه توفيق البيان.

فالتصوف في معناه الصحيح والذي اتفق عليه كل الأئمة :

هو العمل بأحكام شرع الله، والإقتداء بسنة رسول الله ﷺ في هذه الحياة، طمعاً ورغبةً فيما عند الله ﷻ يوم لقياه.

فالشريعة تدعونا إلى العمل، والتصوف هو التطبيق الفعلي لهذا العمل.

فالتصوف هو جوهر الدين، وحقيقة اليقين، لأنه لا حياة لمبادىء ومُثُلٍ بغير عمل، إن لم تُترجم المبادىءُ والمُثُلُ إلى أعمال فهي إلى زوال، لكن الذي

١٢٤ إحياء علوم الدين، وقال للعراقى أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف

يكتب لها البقاء والخلود في عالم الدنيا والإرتقاء هو التطبيق الفعلي على نهج المرسلين والأنبياء.

والتطبيق العملي للصوفية ليس في ميدان العبادات.. كيف؟

قد ظنَّ أقوامٌ أن التصوف هو أن يخلو المرء بنفسه ويتعبد لربِّه ﷻ، فيقوم الليل ويصوم النهار، ويواصل تلاوة القرآن، ويذكر الله ﷻ في الصباح وفي المساء، ويقضي ليله ونهاره كلَّه في ذكر ربِّه .. هذا ما ظنُّوا أو زعموا!..

لكننا فى الحقيقة ... إذا كان الإنسان على هذه الشاكلة لا نسميه صوفيًّا، وإنما نسميه عابداً!

فالعابد هو الذي اشتغل بعبادة ربِّه ﷻ، وأخذته العبادة أحياناً عن أخصِّ شئون الحياة، فربما لا يكون عنده وقت لطلب الأرزاق، وربما يضيق وقت عبادته عن الزواج، أو رعاية الأولاد، أو النظر في أمور المجتمعات، وهذا ليس كمالاً، ولذلك ليس هو المثل الأعلى في ديننا القويم ومنهج رسولنا الكريم ﷺ، وإنما التصوف في حقيقته:

- أن يعطي المرء لكُلِّ ذى حقٍّ حقَّه.
- ولا يهضم حقًّا –لأصحاب الحقوق – مميزاً به حقًّا آخر على سائر الحقوق.
- فيعطي لله ﷻ حقَّه في توحيده، وفى طاعته وعبادته.
- ولا يقصِّر في حقِّ زوجه أو أولاده.
- وألا يتوانى في حقِّ أفراد مجتمعه، وإنما يعطي للجميع حقوقهم ويقوم لهم أجمعين بموازين الشريعة الغراء، وبسُنَّة النَّبِيِّ ﷺ الواضحة الزهراء.

وهذا هو الفرد الذى يبغيه الإسلام، ويطلبه ويسعى إلى إيجاده نَبِىُّ الإسلام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

الصُّوفِيَّةُ والدَّعْوَةُ إِلَى الإِسْلامِ

أدرك رجال الصوفية في كُلِّ عصر هذه الحقيقة الإيمانية، فجعلوها جوهر التَّصَوُّف، فقال في ذلك الإمام أحمد البدوى ﷺ:

{ التصوف هو الخُلُق، فمَنْ زاد عليك في الخُلُق فقد زاد عليك في الصفاء }

فجعلوا جوهر ولُبَّ التَّصَوُّفِ هو الوصول إلى مكارم الأخلاق.

ولذلك لو نظرنا نظرة عابرة إلى البلدان غير العربية التي فتحت – ووصلت إليها الدعوة الإسلامية:

نجد أن أغلب هذه البلدان كإندونيسيا، والملايو (ماليزيا الآن)، والفلبين، ودول أفريقيا كلها، وصلتها الدعوة عن طريق التجار والصوفية الصادقين، بحسن أخلاقهم وسمتهم وهديهم جذبوا هؤلاء القوم إلى هذا الدِّين، لم يفتحوها بسيف أو رمح، ولا طائرة ولا دبابة ولا مدفع، وإنما فتحوها بحسن أخلاقهم وجمال معاملتهم!! آثروا هؤلاء القوم وأسروهم بحسن أخلاقهم، وجذبوهم إلى دين الله بالأخلاق الكريمة العالية التي كانوا عليها في كل أحوالهم.

وهذا الدين – كما قال فيه بعض من لم يؤمنوا من العرب – قال فيه خطيب العرب أكثم بن صيفي:

(إن ماجاء به مُحَمَّد، لو لم يكن دِيناً لكان في أخلاق الناس حسناً)

لأنه يدعو إلى مكارم الأخلاق ... فالإسلام كلُّه – جملةً وتفصيلاً يدعو إلى مكارم الأخلاق، لكن المسلم الذي يستطيع أن يأخذ نفسه بتعاليم الإسلام، ويجمِّلُها ظاهراً وباطناً بمكارم الأخلاق، هذا هو الذى نسميه صُوفِي، وهذا هو الذى يقول فيه الله:

﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾ (٢٣الأحزاب)

فإن الناس في كل زمان ومكان – يشدُّهم إلى الله أُنَاسٌ أخلصوا ابتغاء وجه الله – لا يغرُّهم المال، ولا تلفتهم زخارف الدنيا وزهرها، فيغيِّرون أخلاقهم، أو يتملصون من طباعهم وهديهم – فيشدُّهم ذلك إلى الدين شدًّا قويًّا، لأنهم أهل التصوف الصادقون العاملون والعاملون.

المحور الثاني

نوافل البر

وهذا المحور جعلناه المحور الثاني ليعلم الجميع أن أحسن العبادة بعد الفرائض هو ما تعدَّى نفعه لغيرك.

ولذلك بيَّن النبي ﷺ قيمة العمل الذي يعمله الإنسان لبني الإنسان وبيَّن أنَّه أكبر النوافل في الثواب عند حضرة الرحمن.

ماهي أكبر النوافل في الثواب؟

تعالوا معي نستعرض بعض ما ذكره النبى الأواب ﷺ:

يظنّ بعض الناس أن أكبر النوافل هي قيام الليل، أو صيام النهار، أو تلاوة القرآن، أو تكرار الحج والعمرة لبيت الله الحرام .. هذا صحيحٌ إذا لم يكن هناك عملٌ يستطيع أن يُقدّمه لمن حوله من بني الإنسان!! ....

واسمع إلى حضرة النبى الصفىّ ﷺ وهو يقول لصحبه الكرام ولنا ولمن قبلنا ولمن بعدنا منبهاً وموضحاً .. وأعيرونى أسماعكم وفهمكم بارك الله فيكم وعليكم:

{ أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ، لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ }[١٢٥]

بمعنى أن الأخ المسلم لو يقضى بعضاً من ليلة في الصلح بين إثنين متخاصمين خيرٌ له من قيام هذه الليلة راكعاً ساجداً لمولاه، أو تالياً لكتاب الله، أو ذاكراً لحضرة الله، لأن العمل الذى يقدّمه لله ﷻ هو العمل الذى يتعدّى المرء إلى ماعداه.

قيام الليل وصيام النهار وتلاوة القرآن والذكر والحج أعمالٌ صالحة يقول فيها الله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الجاثية)، ومعي شاهدٌ من العصر الأول :

تعالوا بنا ننظر إلى قيام الصديق لليل فكيف كان قيامه؟ ذهب عمر بن الخطاب إلى امراة مُقعدة في بيتها ولا تجد من يخدمها، وكلما ذهب إليها وجد بيتها وقد جُهّز ونُظفّ، وحاجاتها قد قُضيت فسألها: يا أمة الله من الذى يأتى إليك ويقضي هذه الحاجات ؟ قالت: رجلٌ لا أعرفه، قال متى يأتيك؟ قالت: قبل الفجر بساعة، أو قالت كما قيل في بعض الروايات عند الآذان الأول، والآذان الأول كان يؤذّن قبل الفجر بساعة، فذهب قبل الموعد وتخفى في بعض نواحي الطريق لينظر من يأتيها.

فإذا بأبي بكرٍ الصديق ﷺ يذهب إلى هذه المرأة يكنس بيتها ويُحضر الماء والطعام لها، ويُنظّف هيئتها ويتركها على خير حال، لأن هذه هى العبادة الأرقى والأسمى التى علمها له نبيّنا الكريم ورسولنا الرؤف الرحيم ﷺ!!

وأراد ﷺ أن يبيّن ذلك لأصحابه الكرام، فذات يوم بعد صلاة الصبح التفت إلى صحبه سائلاً وكثيرا ما كان ص ﷺ يعقد لهم الدورات الخاصة بعد صلاة الفجر:

١٢٥ رواه أبو داود والترمذي وابن حبان فى صحيحه عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ

{ أَيُّكُم أَصْبَحَ صَائِماً؟ قال أبو بكر: أنا يا رسول الله، قال: أَيُّكُمْ عادَ مَرِيضاً؟ قال أبو بكر: أنا يا رسول الله، قال: أَيُّكُمْ شَيَّعَ جِنَازَةً؟ قال أبو بكر: أنا يا رسول الله، قال: أَيُّكُمْ أَطْعَمَ مِسْكيناً؟ قال أبو بكر: أنا يا رسول الله، قال: مَنْ كانَتْ لَهُ هَذِهِ الأربع، بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ في الجنَّةِ }[١٢٦]

أراد أن يعلمهم أن الصديق بدأ يومه بالصيام الذى يقرّبه لرب العالمين ﷻ، ولكنه أكثر من العبادات التي تنفع المؤمنين كعيادة المريض، الجنازة، وإطعام المسكين!.

وفي حديث آخر بيّن النبى ﷺ الأعمال التى ينبغي أن تكون دأب المسلمين في كل زمان ومكان وخاصة في هذا العصر والزمان، فقال ﷺ: { من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيرا له من اعتكاف شهرين }[١٢٧] وروى: { مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُل خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا سَبْعِينَ حَسَنَةً وَمَحَى عَنْهُ سَبْعِينَ سَيِئَةً إِلَى أَنْ يَرْجِعَ مِنْ حَيْثُ فَارَقَهُ، فَإِنْ قُضِيَتْ حَاجَتُهُ عَلَى يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، وَإِنْ هَلَكَ فِيمَا بَيْنَ ذلِكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ }[١٢٨].

وقد فقه أصحاب النبي ذلك ووعوه وطبقوه حياتياً وعملياً، واسمعوا لقصة سيدنا عبدالله إبن عباس إذ كَانَ مُعْتَكِفاً فِي المَسْجِدِ النبوى، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا فُلاَنُ أَرَاكَ مُكْتَئِباً حَزِيناً؟ قَالَ: نَعَمْ:

{ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، لِفُلاَنٍ عَلَيّ حَقُّ وَلاَءٍ، وَحُرْمَةِ صَاحِبِ هذَا الْقَبْرِ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ: أَفَلاَ أُكَلِّمُهُ فِيكَ، فَقَالَ: إنْ أَحْبَبْتَ؟ قَالَ: فَانْتَعَلَ ابْنُ عَبّاسٍ، ثُمّ خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ. فَقَالَ لَهُ الرّجُلُ: أَنَسِيتَ مَا كُنْتَ فِيهِ؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنّي

١٢٦ وعن عائشة رواه البزار
١٢٧. أخرجه الحاكم وصححه من حديث ابن عباس، تخريج أحاديث الإحياء العراقي.
١٢٨ الْخرائطي في مكارم الأَخلاق والْخطيب (كر) والْخطيب عن أَنس ﷺ.

سَمِعْتُ صَاحِبَ هذَا الْقَبْرِ، وَالعَهْدُ بِهِ قَرِيبٌ فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَهُوَ يَقُولُ: مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، وَبَلَغَ فِيهَا كَانَ خَيْراً لَهُ مِنِ اعْتِكَافِ عَشْرِ سِنِينَ، وَمَنِ اعْتَكَفَ يَوْماً ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلاَثَ خَنَادِقَ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ }.[١٢٩]

الحب للمؤمنين والحب لرسول رب العالمين، والحب لله هو الترجمة العملية التى تُصلح شأن مجتمعنا، فقد قال ﷺ: { أَدبُوا أَوْلاَدَكُمْ عَلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ: حُبِّ نَبِيكُمْ، وَحُبِّ أَهْلِ بَيْتِه، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ فِي ظِل اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ مَعَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ }.[١٣٠]

ركّز النبي ﷺ على ما ذكرناه لبناء مجتمع إيماني سديد، فكان يُربّـي أصحابه على النقاء وعلى الصفاء وعلى الوفاء، ثم بعد ذلك يدعوهم لتنشيط الأعضاء بخدمة إخوانهم طمعاً في مرضاة الله، وعبادة الله ﷻ كما أمر وكما بيّن في قرآنه العظيم.

فالحب هو الأساس الأول في هذا الدين وطهّرة النفس من الأحقاد والأحساد هي التي عليها قبول الأعمال وعليها صلاح الأحوال، فلن تنصلح أحوال المجتمع إلا إذا طهّرنا نفوسنا من الأحقاد والأحساد والأنانية والأثرة وكل الصفات التى نهى عنها كتاب الله ﷻ، ولن يقبل الله أعمالنا إلا إذا امتلأت صدورنا وقلوبنا بالحب لله، والحب لرسول الله، والترجمة العملية لذلك في حب الخير لجميع عباد الله، واسمعوا لتلك القصة من دروس التربية العملية التى كان ﷺ يربيهم بها والأمة من بعدهم:

{ كُنَّا جُلُوساً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ: يَطْلُعُ الآنَ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ تَنْطُفُ لِحْيَتُهُ مَنْ وَضوئِهِ قَدْ عَلَّقَ نَعْلَيْهِ بِيَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمّا كَانَ الْغَدُ قَالَ النَّبيُ مِثْلَ ذلِكَ، فَطَلَعَ ذلِكَ الرّجُلُ مِثْلَ المَرّةِ الأُولَى، فَلَمّا كَانَ الْيَوْمُ الثّالِثُ قَالَ النّبيُ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضاً، فَطَلَعَ ذلِكَ الرّجُلُ

١٢٩ رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي واللفظ له. والحاكم مختصراً، الترغيب والترهيب
١٣٠ أَبُو نَصْرٍ عبد الكريم الشيرازي في فَوَائِدِهِ (فر) وابنُ النَّجَّارِ عن عَلِيٍّ رضي الله عنه.

عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الأَوَّلِ، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ: إِنِّي لاَحَيْتُ أَبِي، فَأَقْسَمْتُ أَنِّي لاَ أَدْخُلُ عَلَيْهِ ثَلاثاً، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتَ. قَالَ: نَعَمْ،. قَالَ أَنَسٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ الثَّلاَثَ اللَيَالِي فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئاً غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ تَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّه ﷻ، وَكَبَّرَ حَتَّى لِصَلاةِ الْفَجْرِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلاَّ خَيْراً، فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلاَثُ اللَّيَالِي، وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْن أَبِي غَضَبٌ وَلا هجْرَةٌ، وَلكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ لَكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ: يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلاَثَ الْمَرَّاتِ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ، فَأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ، فَأَقْتَدِيَ بِكَ، فَلَمْ أَرَكَ عَمِلْتَ كَبِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ؟ قَالَ: مَا هُوَ إِلاَّ مَا رَأَيْتَ، فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلاَّ مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَنِّي لاَ أَجِدُ فِي نَفْسِي لأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلا أَحْسُدُ أَحَداً عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ.} وفى رواية: { غَيْرَ أَنِي لاَ أَجِدُ فِي نَفْسِي سُوءًا لأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلاَ أَقُولُهُ، قَالَ: هذِهِ الَّتِي قَدْ بَلَغَتْ بِكَ وَهِيَ الَّتِي لاَ أُطِيقُ }.[١٣١]

هى الخصلة التى علا بها واستحق بها النعيم، ولذا قال ﷺ لأنس فيها: {يَا بُنَيَّ! إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لأَحَدٍ فَافْعَلْ، يَا بُنَيَّ! وَذلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْيَانِي، وَمَنْ أَحْيَانِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ}.[١٣٢]

ما فائدة قيام الليل وصيام النهار وتلاوة القرآن وصاحب هذا العمل يحقد على أخيه فلان ويحسد فلان على ما آتاه الله، ويريد أن يُدّبر شرّاً لعبد من عباد الله، ويُفكّر

١٣١ رواه أحمد ومسلم والنسائي، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، والزيادة فى (كر) جامع المسانيد والمراسيل عن أَنسٍ ﷺ
١٣٢ رواه الترمذي عن أَنسٍ ﷺ.

في بلْوى يترلها لشخص يكون قد أذاه، أبهذا أمره الله؟! أم على هذا كان حبيب الله ومصطفاه؟! كلا يا إخوانى فإن الله ﷻ قال للمؤمنين : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٣٤فصلت)

وقال في وصف عباد الرحمن:﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ (الفرقان).

وقال في شأن النبي مُوجّهاً له ولكل صفي من أتباع النبي:﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (١٩٩الأعراف).

من أراد أن يرى هذه الأوصاف ظاهرة جلية الآن فأمن يراه ؟

فإنَّ ما يظهر بيننا في الشارع وفي السوق وفي العمل وفي البيت وفي الأسرة الواحدة من الخلافات والمشاكسات والمشاحنات، ينبأ بوضوح وجلاء أننا بحاجة ماسة شديدة إلى الرجوع إلى هدى الله وإلى كتاب الله الآن.

ولذلك عندما رأى الحبيب الذى أنزل الله على قلبه قوله:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (١٠الحجرات)، عندما رأى بين أصحابه خلافاً، علَّمنا وعلَّم الأمة كلها أنه واجب ملزمٌ للمرء أن يقوم فوراً حتى ولو لم ينتدبه أحد بالإصلاح بين إخوانه المسلمين، ولدرء هذا الخلاف، ولا نتركه لتتسع شقته!.

هل تُوجد عبادة نفلية أو من نوافل البر أفضل من الصلح بين المسلمين؟.لا، بنص الحديث، قال ﷺ: { أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ، لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ }، وكان ﷺ يقول ليقضى على الداء فى مهده: { لا يُبْلِغْنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً فإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُم وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدّرِ }.[١٣٣]

١٣٣ الأول: أبو داود والترمذي وابن حبان. عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، والثانى: سنن أبي داوود عن عَبْدِ الله بن مَسْعُودٍ.

أظن أننا قد وصلنا إلى سبب ما نحن فيه الآن أجمعين، أين الوقفة الأولى مع الصدور وتطهيرها بالنور؟ وماهو الواجب هو علينا نحو إخواننا لندخل في قوله ﷺ:

{ مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى } [١٣٤]

فيريد من المؤمن أن يخالط المؤمنين لا ينفع أن يكون إنعزالي أو إنفرادي، فلا بد من المخالطة لأن لهم حقوق، وعليهم واجبات لكل المؤمنين وكل المسلمين بطهارة القلب بالكلية من الأخلاق التي أمرنا الله ﷻ أن نتخلىّ عنها، وأوصانا النبي ﷺ أن نتطهّر منها !

فإذا تحققنا بتلك الطهارة وتجملنا بهذه الأوصاف فمن أين تأتى الغلظة والقسوة والشدّة بين المؤمنين؟! هل يوجد أفعال من هذه بين المؤمنين مثل القسوة والغلظة والشدة؟.. نسأل الله ﷻ: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢٩الفتح).

نفترض لو أن شخص عاصياً، لا بد وأن أرحمه لكى أنتشله من المعاصي، فلو عاملته بشدة فسيفر منّي وينتهي الأمر .. فبماذا أعامله؟

أعامله بالحكمة والموعظة الحسنة لكى آخذه من يد الشيطان وأضمّه مرة ثانية إلى صفوف الرحمن .. وأين الشدة؟ الشدّة مع الآخرين من الكافرين والجبارين.

والقرآن الكريم! هو الملاذ في الشدائد، وهو المخرج من الفتن ما ظهر منها وما بطن! وأنا لا أدعو إلى تلاوة القرآن فقط، فالقرآن يُتلى آناء الليل وأطراف النهار في الإذاعات وفى المسجلات ......:

لكن أدعو إلى العمل بالقرآن يا أمة القرآن ...، فعلينا أن نتوجّه جميعاً للعمل بالقرآن! العمل بالقرآن! العمل بالقرآن!وفى هذا ما يكفى من البيان لكى ذى جنان!.

١٣٤ صحيح البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه

المحور الثالث

نبذ العصبية وإقرار حقوق الإخوة الإيمانية

وهذا المحور الإيماني هو الذى بدونه تنشب الحرائق وتقطع الوشائج!...

إنه نبذ العصبية! والإقرار العملي بحقوق الأخوة الإيمانية!

لقد بُعث ﷺ والعرب أمة همجية يأكل القوي منهم الضعيف، ويحيف الغني منهم على الفقير، وينصر الأخ أخاه ولو كان ظالماً على الآخر ولو كان مظلوماً، ولا يُقام بينهم لمظلوم قضية، ولا يُحكم بينهم في القضايا بالعدل والسوية !!!

وفي لحظة بُعث خير الأنام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ..

اسمع إليه ﷺ في هذا الحوار وهو يحاور رجلاً حديث عهدٍ بالإيمان وقد كان ملكاً من الملوك لطئ وإسمه عُدّى بن حاتم الطائي، قال له رسول الله ﷺ كاشفاً الحجب عن بعض الغيوب:

{ يا عَدِيُّ، هل رأيتَ الحِيرةَ ؟ قلت: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها. قال: فإن طالتْ بكَ حَياةٌ لتَرَيَنَّ الظَّعينةَ تَرتحِلُ منَ الحِيرةِ حتى تَطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحداً إلا اللهَ - قلتُ فيما بيني وبينَ نفْسي فأَين دُعّارُ طَيىء الذينَ قد سَعَّروا البلادَ؟ - ولئنْ طالَتْ بكَ حياةٌ لتُفتَحنَّ كُنوزُ كِسرَى،. قلتُ: كِسرَى بن هُرمُزَ؟ قال: كِسرَى بنِ هُرمُزَ، ولئنْ طالت بكَ حياةٌ لَتَرَينَّ الرجلَ يُخرجُ مِلْءَ كفِّهِ من ذهبٍ أو فضةٍ يَطلُبُ مَن يَقبلهُ منهُ فلا يَجِدُ أحداً يَقبلهُ منه، ولَيلقَيَنَّ اللهَ أحدُكم يومَ يَلقاهُ وليسَ بينَهُ وبينهُ ترجمانٌ يُترجمُ لهُ، فيقولَنَّ: ألم أبعَثْ إليكَ رسولاً فيُبلِّغكَ؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أُعطِكَ مالاً وأُفْضِلْ عليك؟ فيقول:

بلى، فيَنظرُ عن يَمينه فلا يَرى إلا جهنَّم، وينظرُ عن يَسارهِ فلا يَرى إلا جهنَم، قال عَدِيٌّ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: اتَّقُوا النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، فمن لم يَجِدْ شقَّ تمرةٍ فبكلمةٍ طيِّبةٍ، قال عديٌّ: فرأيتُ الظعينة ترتحلُ منَ الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلا الله، وكنتُ فيمن افتتحَ كنوزَ كسرَى بنِ هُرمُزَ، ولئنْ طالت بكم حياةٌ لَتَرَوُنَّ ما قال النبيُّ أبو القاسم ﷺ: يُخرجُ مِلءَ كفه }[١٣٥]

وقد قال الشاعر:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحى دينا

كيف وصل النبى ﷺ بصحبه الكرام ومجتمع المسلمين إلى هذه الحالة؟

- حالة الإيمان والإطمئنان التام على النفس وعلى العرض وعلى المال وعلى الزوجة وعلى الولد وعلى كل أحد.
- لا يُروِّع الإنسان أحدٌ ولا يروِّعه أحدٌ والكل في رحاب الإسلام في أمان يحرسهم الله ويحكم بينهم القاضي بشرع الله.
- والحوافظ هي جوارحهم وأعضاؤهم التي امتثلت لطاعة الله وامتنعت عن عصيان الله عز وجل.

وصل إلى ذلك النبي ﷺ بأسباب كثيرة نكتفي هنا منها بسبب واحد حتى لا نطيل عليكم وقد أتخذناه موضوعاً لهذا المحور من محاور التربية الإيمانية:

وجد النبي ﷺ العرب يفترقون إلى قبائل شتى، وبينهم عصبيات قبلية، وكل قبيلة تتعصب لمن تنتسب إليها وتفاخر غيرها بما لديها، وكانت هذه العصبية شديدة جداً لأنهم كانوا في جاهلية قبل أن تشرق عليهم أنوار آيات الله جليّة!

١٣٥ البخاري عن عَدِيٍّ بن حاتمٍ

فأول ما بدأ به ﷺ قال:

{ لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ }[١٣٦]

أبطل العصبيات القبلية وأعلن على الملأ أن كـل الخلـق في جميـع البقـاع والأسقاع كما قال في حديثه المبارك:

{ كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ }[١٣٧]

كل الذين على هذه البسيطة شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً تناسلوا من إثـنين آدم وحواء، فالكل في نهاية النسب وفي أعلى ذُرَى شـجرة الحـسب ينتـسب إلى آدم وينتسب إلى حواء، فنحن إذاً جميعاً أخوة في الآدمية، بيننا أخوة إنسانية لجميع البريـة كما بيّن سيدنا رسول الله ﷺ .

ثم أبطل بين أصحابه العصبيات القبلية وأعلن عن تكوين قبيلـة واحـدة، عائلـة جامعة واحدة، أسرة واحدة هى أسرة المؤمنين وهى أسرة المسلمين التي يقول فيها لنـا الله ﷻ أجمعين: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١٠الحجرات).

كل فرد قال : لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله فهذا أخٌ لى ولـك، ولـه علـىّ حقوق ولى عليه واجبات، وأنت كذلك، وكل رجلٍ منا كذلك:

فلو أننا قمنا بحقوق هذه الأخوة الإيمانية كنا جميعاً أسرة واحـدة وإن وصـل تعدادها إلى مليارات، لأننا جميعا مؤمنون، فربنا واحد وديننا واحد وكتابنـا واحـد ونبينا واحد وعقيدتنا واحدة وعباداتنا واحدة ومعاملاتنا واحدة، كلها من كتـاب الله أو من سنة حبيبنا رسول الله ﷺ.

١٣٦ سنن أبن داوود عن جبير بن مطعم ﷺ
١٣٧ رواه البزار عن حذيفة ﷺ

وأكّد النبي ﷺ هذا الأمر في حوادث عِدّة لا تُعدّ ولا تُحد فقال عن بلال الحبشي رضي الله عنه كما ورد فى الأثر المعروف:

{ أدخل الإسلام بلالاً في نسبى وأخرج الكفر أبا لهبٍ من نسبى }.

فلا نسب إلا نسب الإيمان، وبلال مع أنَّه من الحبشة إلا أنّه أصبح من أمة النبي العدنان من قبيلة التوحيد للحنان المنان عز وجل، وقال الحبيب عن سلمان الفارسي:

{ سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ }.[١٣٨]

ولذلك حار بعض العرب فسألوا سلمان من أبوك؟ فقال رضي الله عنه: أبى الإسلام!

دَعِيُّ القومِ يَنْصُرُ مُدّعِيهِ لِيُلْحِقَهُ بِذِي الحسَبِ الصّمِيمِ
أبِي الإسلامُ لا أبَ لِي سِوَاهُ إذا افتخَرُوا بقيسٍ أو تَمِيم

فأبُوّتى هي الإسلام! وجعل الله لنا أمة المسلمين من عصر النبي إلى يوم الدين أمهات نشترك فيهن أجمعين:﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾ (٦الأحزاب)..

كلنا نشترك في هذه الأمهات وأزواج حضرة النبى أمهات لنا أجمعين والنبي ﷺ كما ورد في الرواية القرآنية التى فوق العشر: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وهُوَ أبُوهُم وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾.

فالنبي ﷺ أبٌ لنا أجمعين، ونحن بيننا رابط الأخوة الإيمانية، والعصب الذي بيننا هو عصب الإيمان، وهو العصب الذى يُحبّذه ويدعو إليه الرحمن عز وجل، والفصيلة التي ننتمي إليها هى فصيلة التوحيد لحضرة الرحمن، فكلنا موحدون ونقول في كل وقتٍ وحين (لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله) وأمر النبى ﷺ أن يلتزم أهل هذه العائلة

١٣٨ (طب ك) عن عمرو بن عوفٍ رضيَ اللّهُ عنه، جامع المسانيد والمراسيل

الإيمانية بقول اللسان، ولا يتحدثون ولا يُنقبون ولا يُفتشون عما في القلب والجنـــان، فقد قيل فيما ورد من الأثر المشهور:

{ نَحْنُ نحكمُ بالظَّاهرِ والله يتولَّى السّرائرَ }[139]

إياك أن تُعرّض برجلٍ ينطق بالشهادتين وتغمّزه في دينه، أو تلمزه في عقيدتـــه لأن هذا أمرٌ قال فيه الله: ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ (٥٧الأنعام).

هذا أمرٌ خاصٌ بالله جلّ في عُلاه ، وفى الحديث الشريف .. وانظر إلى دقَّة فهم الصحابة الذين تربوا على المائدة الإيمانية لخير البرية ﷺ، واســـتمع لـــراويهم وتمتَّـــع بالفهم، وهى قصة وردت عن أسامة بن زيد ﷺ وذاع صيتها:

{ بَعَثَنَا رَسُولُ اللّهِ فِي سَرِيّةٍ. فَصَبّحْنَا الْحُرُقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ. فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً. فَقَالَ: لاَ إِلهَ إِلاَّ الله. فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذلِكَ. فَذَكَرْتُهُ لِلنّبِيّ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: أَقَالَ: لاَ إِلهَ إِلاَّ الله وَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنّمَا قَالَهَا خَوْفا مِنَ السّلاَحِ. قَالَ: أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتّى تَعْلَمَ : أقالها أم لا، فَمَا زَالَ يُكَرّرُهَا عَلَيّ حَتّى تَمَنّيْتُ أَنّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ، فَقَالَ سَعْدٌ: أَنَا وَالله لاَ أَقْتُلُ مُسْلِما حَتّى يَقْتُلَهُ (أُسَامَةَ). قَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلِ الله: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ كُلُّهُ لله} (٣٩الأنفال) فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ قَاتَلْنَا لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ. وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتّى تَكُونَ فِتْنَةٌ.}[140]

بيننا وبين الخلق شهادة الحق والقلوب يطَّلع ويعلم ما فيها علام الغيـــوب ﷻ، أمرنا الله أن نشهد للرجل بالإيمان إذا رأيناه يصلي الفرائض الخمسة في بيت الـــرحمن،

١٣٩ اشتهر هذا الأثر كحديث وليس بحديث، وإن كانت له شواهد عدة تؤيده من الأحاديث قال صحب الدرر المنتشرة: هذا من كلام الشّافعيّ في (الرِّسالة)، وقال الحافظ عماد الدِّين بن كثير في (تخريج أحاديث المختصر): لم أقف له على سندٍ. انتهى، وأضاف بعضهم أنه قد أورده أكثر المفسرين على أنه حديث شريف ومن هنا كثر اللبس وإن صح الإستدلال.

١٤٠ صحيح مسلم، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَهذَا حَدِيثُ ابْن أَبِي شَيْبَةَ

وقال في ذلك النبى العدنان ﷺ:

{ إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بالإِيْمَانِ }[١٤١]

لأن لنا الظاهر والله يتولى السرائر.

لو حافظنا على هذه الأخوة الإيمانية وقمنا بالحقوق والواجبات علينا نحو إخواننا في الدين، لصارت كل بلدة من بلاد المسلمين عائلة واحدة، لأن الذى يُوّثق عُرى الإيمان فقال فيه النبى العدنان ﷺ:

{ مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ في تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى }[١٤٢]

لم يقل في صلاتهم ولا في صيامهم لا في قراءة كتاب ربهم لأن تلكم أعمال صالحة يقول فيها الله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الجاثية)

أنت تقوم الليل كله وتصوم الدهر كله وتقرأ القرآن كل يوم مرة، كل هذا لمن؟! لا ينبغى أن تُدّلّ على أخيك به، ولا أن تفتخر على غيرك أنك تفعله، لأن الله ﷻ إن كنت تريد وجهه يريد الإخلاص منك في هذه العبادات، وأول شرط الإخلاص هو أن تطهر من الرياء! وهو حب الظهور بين الخلق وطلب السُمعة بينهم.

جعل النبى ﷺ لكل مؤمن حقاً علينا، هذه الحقوق بها صرنا جميعاً كأننا رجلٌ واحد، منها: أن تُسلمّ عليه إذا لقيته، ولذلك قال الحبيب ﷺ عندما سأله رجل:

{ أَىُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قال:

١٤١ سنن الترمذي عن أبي سَعِيدٍ ﷺ

١٤٢ صحيح البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير ﷺ

{ تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَعَلَى مَنْ لَمْ تَعْرِفْ }.[١٤٣]

لا ينبغي أن تسلمّ في هذه المدينة على من تعرف فقط، بل تُسلمّ على كل من تقابله في الطريق، حتى كان النبى ﷺ يُسلمّ في طريقه على الصغار، ويجعل ذلك علامة على إنشراح الصدر للإسلام، أين نحن الآن من سنة خير الأنام ﷺ؟

إذا دخل المسجد يُسلمّ، وإذا خرج من المسجد يّسلمّ، إذا دخل بيته يُسلمّ، وإذا خرج من بيته يُسلمّ ويتعارف.

إذا كنا في مكان واحد كالمسجد ونجتمع فيه للصلاة، لا ينبغى أن نصلي في هذا المكان سنين ولا يعرف بعضنا بعضاً، لأن النبي ﷺ قال: { إِذا أَحْبَبْتَ رَجُلاً فَاسْأَلْهُ عَنِ اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَعَشِيرَتِهِ وَمَنْزِلِهِ، فَإِنْ كَانَ مَرِيضاً عُدْتَهُ، وَإِنْ كَانَ في حَاجَةٍ أَعَنْتَهُ، وَإِنْ كَانَ غَائِباً حَفِظْتَهُ في أَهْلِهِ }.[١٤٤]

وأمرنا أن نصافح بعضنا لأن ذلك زيادة في التعارف والألفة، تمدّ يدك لأخيك عرفته أو لم تعرفه، لأن كل المسلمين لهم حقوق علينا أوجبها رب العالمين ﷻ، فإذا صافحته ماذا لك عند الله ؟ يقول ﷺ: { إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ أَخَذَ بِيَدِهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُمَا ذُنُوبَهُمَا كَمَا يَتَحَاتُّ الوَرَقُ عَنِ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ في يَوْمِ رِيْحٍ عَاصِفٍ وَإِلاَّ غُفِرَ لَهُمَا وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوْبَهُمَا مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ }.[١٤٥]

إذا كلَّمته كلمة طيبة فالكلمة الطيبة صدقة، إذا نظرت إليه وتبسَّمت في وجهه، فتبسُّمك في وجه أخيك صدقة، إذا غاب تسأل عنه لأن له حقوقاً عليك، تُسلِّم عليه إذا لقيته، وتعوده إذا مرض، وتُشيّعه إذا مات، وتعينه إذا احتاج، وتُهنِّئه إذا فرح، وتُعزِّيه إذا أصيب بمصاب.

١٤٣ صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما
١٤٤ (الْخَرَائِطِي في مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ) عن ابن عُمَرَ رضيَ اللَّهُ عنهُمَا
١٤٥ رواه الطبراني عن سلمان

تلكُمُ الأعمال هى التى تُقوّى الروابط بين المؤمنين، فيصيرون كأهم رجلٌ واحد وعائلة واحدة في أىّ زمان ومكان، زوجته أختٌ لي، وإبنته بنتاً لي، أحميها وأصونها كما أمر الرحمن ﷻ، فإذا كنا كذلك فمن الذي يستطيع أن يخترق صفوفنا؟ أو أن يُروّع أحدنا أو جمعنا، أو يُثير الفتنة والبلطجة فيما بيننا؟!!.

هذا لايكون أبداً لأننا أمة المؤمنين نعمل بقول النبي الأمين ﷺ .. إذا أخطا واحدٌ منا أمرنا النبى ﷺ أن نصلح خطأه بالحكمة والموعظة الحسنة، أنصحه فيما بيني وبينه، ولا أنصحه على الملأ لأن النصيحة على الملأ فضيحة، وإذا نصحته لا ألوك في عرضه مع الآخرين وأشنّع عليه بين المسلمين، فتلك الأمور هي التي تُشحن الصدور، وتؤجج السخائم في القلوب، وتجعل العداوة بين الأخوة المؤمنين.

ولذلك هى النبي عن الغيبة والنميمة والتعدّي بالقول والفعل على أىّ رجلٍ من المسلمين، فقال في الحصانة الإلهية التى أعطاها الله لكل مسلم: { كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ }.[١٤٦]

هذه الحصانة من الله، والتي وضّح حدودها ومواصفاهّا إمامنا وحبيبنا رسول الله ﷺ، واعلم يا أخي علم اليقين أن الذي يُقصّر في حقوق الأخوّة يحاسبه على ذلك يوم العرض والجزاء رب العالمين ﷻ، اسمع إلي ذلك في الحديث القدسي وهو يصف الحساب فيقول عندما تقف أمامه:

{ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ

١٤٦ صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذلِكَ عِنْدِي }.[١٤٧]

ما الحدود التى أزور فيها المرضى؟ حدّها حضرة النبي فقال: **{ امْشِ مِيلاً عُدْ مريضاً، امْشِ مِيلَيْنِ أَصْلِحْ بَيْنَ اثْنَيْنِ امْشِ ثلاثَةَ أمْيالٍ زُرْ أخاً في اللَّهِ }.**[١٤٨]

والميل هو اثنين كيلومتراً إلا ربعاً من كل الجهات، أى أن أىّ مريض في هذه الجهات زاد مرضه عن الثلاثة أيام عليك أن تزوره وإلا سيحاسبك على ذلك المولى ﷻ أمام الأنام يوم الزحام.

إذا قمنا بحقوق الأخوة فيما بيننا كنا رجلاً واحداً ومن أهمها قبل أن أختم هو قوله ﷺ ليعلمنا أصول نصرة الإخوان! مما لو تمسكنا به لتجنبت الأمة الكثير من الويلات:

{ انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ }[١٤٩]

فلو قمنا بهذا الحديث لكان مجتمعنا كله في أمان، لو حذفنا من قاموسنا كلمة [وأنا مالي] فعندما يري الإنسان رجلاً قوياً يضرب طفلاً صغيراً يقول: أنا مالي!! تلك القضية ينتصر له فيها رب البرية يوم الدين، عندما يرى شاباً سفيهاً يحاول أن يعتدى على فتاة مؤمنة ويغُض طرفه ويقول: أنا مالي!!. وقد رأينا سلفنا الصالح، كان لا يجرؤ واحدٌ أن يفطر في رمضان لكثرة اللائمين الذين يردّون عليه ويمنعونه من الجهر بالفطر، ولا يستطيع شاب أن يعاكس فتاة لكثرة اللائمين ...

١٤٧ صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ
١٤٨ ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان) عن مكحول مرسلاً، الفتح الكبير
١٤٩ صحيح البخاري عن أنس ﷺ

ومن الجانب الآخر للنصرة .. فعندما يستنجد بى أخى أو قريبى أو صديقى لمشاجرة له مع أحد فأذهب مغمض العينين وآخذ الآخر ركلاً وضرباً ! من أين أتيت يا أخى بهذا اليقين؟ ألا يجوز أن يكون قريبى هو الظالم المخطىء والمستحق للزجر والعقاب! أوليس الآخر أيضاً هو أخوك فى الدين أو الجيرة أو الوطن!!! إنه التعصب الأعمى هو الذي أوصلنا إلى مانحن فيه الآن!

إخوانى الكرام .. أننا جميعاً أسرة واحدة ويجب أن نكون كما أمرنا ربُّ العالمين ..متعاونين متعاضدين نسعى جميعاً لمصلحة الجميع يقول فينا الله فى (٢٩الفتح):

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

المحور الرابع

نبذ الخلافات بين المسلمين

وبعد نبذ العصبية وإقرار الأخوة الإيمانية! ما الداعي للخلاف؟! إنه قلة الفهم والفقه في دين الله.

لقد خصَّ الله ﷻ هذه الأُمة بختام الأنبياء والمرسلين، وجعله رسولاً للناس كافة منذ زمنه إلى يوم الدين، وجعله نبياً رءوفاً ورحيماً يدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وجعل في شريعته أحكاماً لكل الخلق على اختلاف أزمنتهم وألسنتهم وبلداهم وأحوالهم، لأن هذا الدين هو دين الختام وفيه كل ما يتعلق بكل مصالح الأنام منذ بعثته إلى يوم الزحام.

فجعل فيه أحكاماً للشباب، وأحكاماً للشيوخ، وأحكاماً للنساء، وأحكاماً للرجال، وأحكاماً للعرب، وأحكاماً لسكان المناطق الباردة،

وأحكاماً لسكان البلدان الحارة، وأحكاماً لأهل زمانه، وأحكاماً لكل أهل زمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

كل ذلك بيَّنه وفصَّله الحبيب في زمن بعثته الذي كان قصير الأمد في الدنيا، ولكن الله ﷻ منَّ عليه بفضله وجوده وكرمه فأصدر الأحكام التي تتعلق بجميع المكلفين المؤمنين به إلى يوم الدين، فترك ثروة تشريعية فوق طاقة أى فرد من البشر، جمعها الناس من بعده وهم الصحابة والتابعين وفَصَّصوها ووضحوها وبينوها أبلغ بيان.

لكنهم كانوا كما علَّمهم النبي العدنان أحرص ما يحرصون عليه أن يكونوا مجتمعين غير متفرقين، متوحدين غير مختلفين، لأننا جميعاً والأولين والمعاصرين والآخرين لا نختلف في العقيدة، فربنا واحد ونبينا ﷺ واحد، وكتابنا واحد، والكعبة قبلتنا جميعاً، وفرائض الله ﷻ التى فرضها علينا لا نختلف في شأنها، فلا يوجد في جماعات المسلمين من جعل الصلوات ستاً أو أربعاً!! بل الكل يتفق على خمس صلوات وعلى عدد ركعاتها وعلى توقيتاتها، والكل يجتمع على صيام شهر رمضان، والكل يتفق على أنصبة الزكاة، والكل يتفق على حج بيت الله من وقته ومناسكه وكيفيته ... لأن ذلك كله ورد عن رسول الله ﷺ.

وإذا وُجد خلاف آناً أو أحياناً بين بعض المسلمين فليس في أصول هذا الدين، ولا في عقيدة الإيمان التي يتفق عليها جميع المؤمنين، حتى أن الخلافات لا تصل إلى الفروع، لكنها أمور هامشية ينبغي أن يكون أقوى منها وأحرص عليها نحن جميعاً الأُخُوة الإيمانية التى بيننا جماعة المؤمنين.

هذا يرفع يديه في تكبيرة الإحرام وهذا لايرفع، هذا يبدأ الفاتحة بالبسملة وهذا يبدأها بالحمد لله رب العالمين، هذا يجهر بختام الصلاة وهذا

يختمه في سره، والإثنان يختمان الصلاة! أمور هامشية لا تدعو للفُرقة والتشيع بين الأُمة الإسلامية لأن الله حذر من ذلك أبلغ تحذير فقال في آياته القرآنية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (١٥٩الأنعام)

هؤلاء خارج الدين وخارج منهج سيد الأولين والآخرين.

الصحابة المباركون كانوا يختلفون لكنهم جعلوا شعارهم: (الخلاف لا يُفسد للود قضية) لا تجريح ولا اعتراض ولا سب ولا شتم ولا لعن ولا خروج عن طبيعة الإسلام والإيمان لأن المسلم قال فيه النبي المصطفى ﷺ:

{ لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ ولاَ اللَّعَّانِ ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيِّ }[١٥٠]، والمؤمن يقول فيه ﷺ: { مَا هُوَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ لَمْ يَأْمَنْ جَارُهُ بَوَائِقَهُ }[١٥١].

كانوا يختلفون ويئتلفون، والخلاف لا يؤدى إلى إعراض هذا عن ذاك، كانوا يخرجون مع نبينا ﷺ مجاهدين في الغزو، منهم من يصوم ومنهم من يفطر، لا يعيب الصائم على المفطر ولا يرى أنه بصيامه أفضل عند الله من أخيه المفطر، لأن التقوى محلها القلب، والله وضع قانونها فقال:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (١٣الحجرات)

قال لهم النبي وهو ذاهب إلى حصار بني قريظة في أمر صريح:

{ لا يُصَلِّينَّ أَحدٌ العصرَ إلاّ في بني قُرَيظةَ، فأَدركَ بعضَهمُ العصرُ في الطريقِ، فقال بعضُهم: لا نُصلِّي حتى نأْتِيَها، وقال بعضُهم: بل نُصلِّي، لم يُرَدْ منا ذلكَ. فذُكِرَ للنبيِّ ﷺ فلم يُعَنِّفْ واحداً منهم }[١٥٢].

١٥٠ مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وصحيح ابن حبان عن عبدالله بن مسعود.
١٥١ مصنف ابن أبي شيبة عن أنس بن مالك رضى الله عنه.
١٥٢ صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه.

فَقِهَ قوم من حديث رسول الله أن يبدأوا أولاً بصلاة العصر ثم يتجهوا إلى بني قريظة، وفهم آخرون أنهم يؤخرون صلاة العصر حتى يذهبوا إلى بني قريظة، لا هؤلاء اعترضوا على هؤلاء ولا هؤلاء سفَّهوا هؤلاء لأن الإثنين معاً صلُّوا العصر، هؤلاء صلُّوا العصر في أول وقته، وهؤلاء صلُّوا العصر في آخر وقته، والكل استجاب وذهب حيث ينفذ أمر النبي ﷺ ....

وهكذا كان أمرهم في كل الخلافات التي تنشأ بينهم، ويرجعون بعد ذلك إلى علمائهم ليحكموا بينهم، وليوفقوا بينهم، المهم أن تكون الأُمة الإسلامية كلها في نظرهم عاملة بقول الله ﷻ فى كتابه الكريم فى محكم التتريل: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾(١٠٣آل عمران)

انظروا معي إلى حادثة عجيبة :تعلمون أنَّ النبى ﷺ سنَّ لأصحابه يوم عرفة أن يُصلي الحجيج على عرفة الظهر قصراً ركعتين وبعده مباشرة العصر قصراً ركعتين، وظلَّ المسلمون على هذا العهد سائرون، فى عهد أبى بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم فطن عثمان رضي الله عنه إلى أن الإسلام دخل فيه أناس كثيرون جدد لا يفقهون حقيقة الدين وربما ظنُّوا أن صلاة الظهر والعصر ركعتين في يوم عرفة فريضة ومن تركها فقد خالف النبي الأمين؛ كما روى أنَّه رضي الله عنه وجد فى الحج إعرابياً مازال يصلى الظهر والعصر ركعتين ركعتين منذ الحج الماضى- فصلَّى يوم عرفة الظهر أربع ركعات والعصر أربعاً، أى صلاهما كهيئتهما المعتادة بدون قصر، فرأى ذلك بعض المنافقين فذهبوا مسرعين إلى أبى ذر الغفارى رضي الله عنه وقالوا له: أرأيت ما فعل عثمان اليوم؟

{ إِنّ عثمانَ صَلَّى أَرْبَعاً- أى الظهر أربعاً والعصر أربعـــاً- فاشْتَدّ ذَلِكَ على أَبِي ذَرّ وقالَ قَوْلاً شَدِيداً، وقال: صَلَّيْتُ مَعَ رسولِ الله ﷺ فَصلَّى ركعتينِ وصلَّيتُ مع أَبِي بكرٍ وعُمرَ، ثمّ قامَ أَبو ذرٍ فصلَّى أَربعاً، فقيلَ له: عِبْتَ على أَميرِ

المؤمنينَ شَيئاً ثمّ تَصْنَعُهُ؟! قال: الخِلَافُ أَشَدُّ }.[١٥٣]

لأن نبينا شدَّد على عدم الخلاف بين المسلمين، فتركوه وذهبوا إلى سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ ونقلوا له نفس الحوار، وردَّ عليهم بنفس الردِّ الذى ردَّه أبوذر الغفاري، ولكن للعجب فعل بن مسعود مثلما فعل أبو ذر ﷺ، فتعجبوا وسألوه لِمَ صليت الظهر والعصر أربعاً أربعاً؟ قال: الخلاف شرٌّ، ذلك لأن الله ﷻ منع المسلمين عن الخلاف.

أما إذا حدث خلاف بينهم في أمر من أمور الدين، فما دام الأمر وارداً عن رسول الله والكل يأخذ من سُنة حبيب الله ومصطفاه، لِمَ الخلاف بيننا؟!!

أخذتَ جانباً وأخذتُ أنا جانباً آخر!، العلماء أصحاب المذاهب كانوا مختلفين في هذه الهوامش لأن كل واحد منهم أخذ ما ارتضاه من الذى ورد إليه من رسول الله، ولكننا لم نسمع أنه حدث بينهم خلافٌ أو حدث بينهم صدامٌ أو مشاحنات، ولكنهم كانوا يُعظِّمون بعضهم ويُقدِّمون بعضهم لأنهم علموا أن ذلك كله من دين الله ﷻ.

الإمام الشافعي ﷺ صاحب المذهب كان عنده القنوت (الدعاء في صلاة الصبح) بعد القيام من الركوع، والإمام أبو حنيفة عنده القنوت في صلاة الوتر في الركعة الثالثة، ذهب الإمام الشافعى ليصلى الفجر في مسجد أبي حنيفة بعد موته فترك القنوت في الصبح، فقالوا له: لِمَ تترك القنوت مع أنه واجب في مذهبك؟! قال: تأدُّباً مع صاحب المذهب في مسجده!!

هكذا كان أدبهم مع العلماء، لم يكن بينهم لا سباب ولا شتم ولا لعن ولا عصبية لأنها كلها واردة عن خير البرية ﷺ، مادام الرأى الذى تهواه أنت له أصل في السُنة، والرأى الذى أهواه أنا له أصل في السُنة لِمَ العصبية؟!

١٥٣ رواه أحمد عن رجل لم يسمه، مجمع الزوائد

{ قيل للإمام مالك إنه يلينا قوم يرون خلاف ما ترى في السهو، يرون أن ذلك عليهم بعد السلام فيسجد بنا بعد السلام ، قال: اتبعوه فإن الخلاف أشد }.[١٥٤]

ولماذا يعتقد الإنسان أن رأيه هو الأفضل وهو المعتبر؟! هذه هى سر الخلافات التى تحدث بيننا في هذه القضايا، مادمنا ليست بيننا خلافات في الأصول ولا في العقيدة علينا أن نتحفظ على كل الخلافات في الفروع والهوامش حتى نُبقي على وحدة صف المسلمين وعلى جماعة المؤمنين، ولا نسمح لأى مُغرضٍ يُعكر صفو الجماعة الإسلامية ويُفرق شملها ونطرده من بين صفوفنا حرصاً على جماعة وأُلفة المؤمنين التي ارتضاها لنا الله ﷻ.

لماذا نُسمي أنفسنا بأسماء ونترك الإسم الذى اختاره الله لنا في خير كتاب وسمانا به أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ﴾ (٧٨الحج).

فيُسمِّى قوم أنفسهم سلفيين، والآخرون صوفيين، والآخرون أنصار سُنة، والآخرون جمعية شرعية .... إذا كانت أسماء اصطلاحية فلا بأس بها، لكن ينبغي ألا توجد خلافاً بين المسلمين، نحن جميعاً على اختلاف الطوائف مسلمين آمنا بالله رَباً وبمحمد نبياً وبالقرآن كتاباً ولا نختلف في أى بند من بنود العقيدة ولا في أى أصل من أصول الدين، لماذا نثير هذه الخلافات الفرعية الهامشية ونجعلها هى المحك الذى يفصل بين المسلمين؟! وهذه الجماعة تنتمى إلى الشيخ فلان وهذه الجماعة تنتمى إلى الشيخ فلان!!!

أصحاب النبى قال فيهم ﷺ أجمعين:

{ حكماء فقهاء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء }.[١٥٥]

١٥٤ المدونة الكبرى للإمام مالك

١٥٥ أحاديث الإحياء العراقي – كتاب الصبر.

كان لكل رجل منهم تلاميذ، لعليّ بن أبى طالب تلاميذ، ولعبد الله بن مسعود مريديه، ولأبى ذر الغفارى المتعلِّقون به، وكلٌّ رجل من أصحاب النبى ﷺ كان له من يقتدي بهديه ويأخذ بهداه، لكنه لا يتعدَّى على غيره ولا يسبُّ أحداً من الآخرين، ولا يدَّعى أنهم جماعة وأنهم أفضل المسلمين، وأن غيرهم أقل منهم شأناً عند الله، وأقل منهم علماً في دين الله !! .. ذلك لأن الله ﷻ جعل المقياس بين المؤمنين أجمعين هو التقى وقال فيه: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (١٣الحجرات)، ولما سألوا النبي ﷺ عن التقوى أشار إلى صدره وقال: { التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا، يَقُولُ: أيْ فِي الْقَلْبِ }.[١٥٦]

أى لا يعلم التقىَّ إلا مولاه، ولا يطِّلع على ما في الصدور إلا حضرة الله، والمؤمن ينبغي عليه ألا يُفرق بين المسلمين وإنما نحن جميعاً كما قال الله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١٠الحجرات)، نحن جميعاً إخوان مسلمون لأننا إخوان في الإيمان ومسلمون للرحمن، وجميعاً سلفيون لأننا نتبع سلفنا الصالح ونمشى على هداهم ومنهجهم ونعمل بقوله ﷻ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (١٦التغابن).، وكل واحد يحاول أن يقتدى بهَدْى السلف الصالح على حسب استطاعته، وكلنا صوفيون لأننا ننشد صفاء في القلوب والخشوع لحضرة علام الغيوب .... إذاً لماذا الخلاف؟!! علينا جماعة المؤمنين أن نخرج من ذلك كله ونتمسك بقول الله ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (١٤٣البقرة)

نتمسك بالوسطيَّة التى اختارها لنا الله والتى سار عليها حبيب الله ومصطفاه والتى كانت هديه في كل أحواله، فكان يتوسُّط في صلاته، ويتوسُّط في طعامه، ويتوسُّط في نومه، ويتوسُّط في ملبسه، ويتوسُّط في كلِّ أمر من أموره ... وهذه الوسطيَّة هي موضوع محورنا التالي من محاور الدورة التربوية الإصلاحية الإيمانية.

١٥٦ المسند الجامع عن الحسن رضي الله عنه

المحور الخامس

الوسطيَّةُ في الدين

عندما نترك العصبيَّة، وندع الخلاف جانباً ستكون الوسطيَّة الإسلاميَّة هى الدوحة اليانعة التى تشملنا بظلالها الوارفة وثمارها الناضجة!!

إن الله ربَّ العالمين اختار لنا الإسلام ديناً، والقرآن كتاباً، وسيدنا محمَّداً نبيَّاً ورسولاً، وجعلنا على الشريعة السمحاء والملّة الحنيفية البيضاء، وجعلها على الوسطية القرآنية، وعلى نسق الحضرة المحمدية ليكون الناس جميعاً عند الله ﷻ بالعدل والسويّة.

ولكن أيها الأخوة جماعة المؤمنين ــ في هذه الأيام والآنات ــ ظهر بيننا في المجتمع ــ في الدين تيارات يحتار الإنسان إذا نظر إليهم بعقله، وإذا تدَّبر فيهم بفكره أيُّهم على الحق؟ وأيُّهم على الطريق القويم والمنهج المستقيم الذى اختاره لنا المولى ﷻ في كتابه الكريم .. وكان عليه في حاله وسلوكه الرءوف الرحيم نبينا محمد ﷺ؟

نرى أناساً أخذوا الجانب المتشدِّد في الدين، وألزموا أنفسهم بالجوانب المتشدِّدة في سلوكياهم وفي عباداهم وفي تعاملاهم وفي كل أحوالهم، ويظنُّون أهم بذلك يزيدون قرباً إلى رهم ويُحسنون المتابعة لنبيهمﷺ؛ فيطيلون الصلاة، ويكثرون من تلاوة كتاب الله، ويتشدَّدون في الأمور الظاهرة في الزِّي والمظهر واللباس للرجال وللنساء، ويتشدَّدون مع المعتدلين ويخاطبوهم بغلظةٍ وقسوةٍ أحياناً! وبعنفٍ أحياناً أخرى، ويظنُّوهم مُفرِّطين؛ ويلوموهم على عدم الإلتزام بالتشدُّد في الدين! ويزعمون أن ذلك هو المنهج الوارد عن سيد الأولين والآخرين ﷺ.

وهناك طائفةٌ أخرى فرَّطوا في دينهم وتساهلوا في تنفيذ شرع رهم، قصَّروا في أداء الصلاة، وفرَّطوا في أداء الزكاة، ولا يحافظون في التعامل على مبادئ شرع الله،

ويدَّعون أن الله غفورٌ ورحيم وتوّابٌ وكريم، وأن الله سيتوب عليهم وسيغفر لهم!.

مَنْ مِنْ هؤلاء على المنهج القويم! وعلى الصراط المستقيم؟ .. لا هؤلاء! ولا هؤلاء! .. لا المتشدِّدين ولا المُفرِّطين! لا الغلاظ القُساة في التعامل مع المسلمين! ولا المتساهلين الذين يتساهلون في شرع رب العالمين أما المنهج المحمود الذي حمده الله وكان عليه حبيبه ومصطفاه فهو المنهج الذى قال لنا عنه الله في كتاب الله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (١٤٣البقرة) ، هو المنهج الوسطي الذى لا إفراط فيه ولا تفريط! لا تشدّد فيه ولا تساهل، وإنما على الوسطية التي يقول فيها صاحب الطلعة البهية ﷺ: { عَلَيْكُمْ بِالنَّمَطِ الأَوْسَطِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ العَالي وَيَرْتَفِعُ إِلَيْهِ التَّالِي }، { خيرُ هذه الأمَّةِ النَّمَطُ الأوسط }.[١٥٧]

عليكم بالنهج الأوسط، ولذلك ورد في الحديث أن بعض شباب الإسلام المتحمسين للعبادة ذهبوا إلى بيوت النبى وسألوا زوجاته عن عبادة النبي، ويقال أنهم فعلوا ذلك بعد موعظة عظيمة سمعوها من رسول الله ﷺ حتى هانت الدنيا على نفوسهم وتشوَّقوا للآخرة وما يقرِّب منها من العمل:

{ جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّى أُصَلِّى اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّى لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّى أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّى وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى }.[١٥٨]

١٥٧ أخرجه أبو عبيد عن علي ﷺ، والثاني مصنف ابن أبي شيبة عن علي رضي الله عنه

١٥٨ صحيح البخاري عن أنس بن مالك ﷺ

هذا كان فى السلوك خطأٌ قاتلٌ! فأى عمل تعمله، فما هي حدودك؟ هو فعل النبي ﷺ ، فإياك أن تظنَّ في يوم من الأيام أنك ستزيد عن فعل النبي؛ فأنت تكون بذلك بعدت عن طريق الله ﷻ: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ (٥٤النور)! امشِ خلفه وافعل مثلما يفعل .. تقول أن النبي كان كذا وكذا وتتحدث بجدال فهذا من النفس وهذا يوقعك في الخبال!، لكن من اهتدى بالنهج القويم، كان إمامه في كل أعماله الرءوف الرحيم ﷺ .

ولذلك دعاهم ﷺ إلى الوسطيَّة، وهى أن يُعطي الإنسان كل ذى حقٍّ حقَّه، وقد سار على هذا النهج أصحابه البررة الكرام.

وكان النبى يؤاخي بين كل اثنين، فآخى بين رجلين من كُمّل أصحابه الكرام وهما سلمان الفارسى، وأبي الدرداء رضى الله عنهما وخرج سلمان إلى سفرٍ، وعندما رجع من السفر دخل بيت أخيه أبي الدرداء ليزوره.. فوجد أمرا استرعى إنتباهه:

{ فَإِذَا أُمُّ الدَّرْدَاءِ مَتَبَذِّلَةً، فقالَ: ما شَأنُكِ يا أُمَّ الدَّرْدَاءِ، قالتْ: إنّ أخَاكَ أَبَا الدَّرْدَاءِ ليسَ له حاجةٌ في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فَرَحَّبَ بِهِ وَقَرَّبَ إليهِ طعاماً، فقالَ له سُلمانُ: اطْعَمْ، قالَ: إنِّي صائمٌ، قالَ: أَقْسَمْتُ عليكَ لَتُفْطِرَنَّهُ، قالَ: ما أنا بآكِلٍ حَتّى تَأْكُلَ، فَأَكَلَ معهُ ثم باتَ عِنْدَهُ، فَلمّا كَانَ من الليلِ أرادَ أبو الدَّرْدَاءِ أَنْ يقومَ فَمَنَعَهُ سلمانُ وقالَ لَهُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ إنّ لِجَسَدِكَ عليكَ حقًا وِلِرَبِّكَ عليكَ حقًا ولأَهْلِكَ عليكَ حقاً، صُمْ وَأَفْطِرْ وصَلِّ وَأْتِ أَهْلَكَ وَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلمّا كانَ في الصُّبْحِ قالَ: قُمِ الآنَ إنْ شِئْتَ قالَ: فقاما فَتَوضّآ ثم رَكَعا ثم خَرَجَا إلى الصلاةِ، فَدَنَا أبو الدَّرْدَاءِ، لِيُخْبِرَ رسولَ الله ﷺ: فقال ﷺ: يَا أَبَا الدَّرْداءِ إن لِجَسَدِكَ عليكَ حقًا مِثْلَ ما قالَ لَكَ سلمانُ}[١٥٩]

ففهم الوسطية هنا جاء فى نصيحة أخ لأخيه وصدَّق عليها رسول الله،

١٥٩ رواه البخاري في الصحيح عن بُنْدَارٍ عن جعفر بن عون، سنن الكبرى للبيهقي

واسمعوا لحديث آخر مشابه ولكن من نسوة لنسوة لما رأينَّ خروجاً عن الوسطية! فقد كُنَّ على علم كامل بوسطية الإسلام وتربين عليها وفهمن ما لهن .. ولا يخجلن من قول الحق وكانت الأمور الخاصة تتناول ولكن بحياء وحشمة! واسمعوا للحديث:

{ دَخلتِ امْرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ فَرَأَيْنَهَا سَيِّئَةَ الْهَيْئَةِ، فَقُلْنَ: مَا لَكِ، مَا فِي قُرَيْشٍ رَجُلٌ أَغْنَى مِنْ بَعْلِكِ؟! قَالَتْ: مَا لَنَا مِنْهُ شَيْءٌ، أَمَّا نَهَارُهُ فَصَائِمٌ وَأَمَّا لَيْلُهُ فَقَائِمٌ، قَالَ: فَدَخَلَ النَّبِيُّ فَذَكَرْنَ ذَلِكَ لَهُ، فَلَقِيَهُ النبيُّ فَقَالَ: يَا عُثْمَانُ، أَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ؟ قَالَ: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، قال: أَمَّا أَنْتَ فَتَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ، وَإِنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وإنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، صَلِّ وَنَمْ ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ. قَالَ: فَأَتَتْهُمُ الْمَرْأَةُ بَعْدَ ذَلِكَ عَطِرَةً كَأَنَّهَا عَرُوسٌ، فَقُلْنَ لَهَا: مَهْ (ما هذا) ، قَالَتْ: أَصَابَنَا مَا أَصَابَ النَّاسَ } [١٦٠]

واسمعوا للموقف الآخر العجيب .. وكلام الحبيب البسيط المعجز في النظر إلى حقائق الأمور وليس بظواهرها كما يفعل الكثيرون مما أودى بالمجتمع فى ظلمات الخلافات! ... صلى الله وسلم عليك ياسيدي يارسول الله:

{ سمع أَنَّ فلاناً قال: والله إِنِّي لأُبْغِضُ هذا الرَّجلُ في الله، فقال الرجل للنبي: فادْعُهُ يا رسولَ الله فسَلْهُ على ما يُبْغِضُنِي؟ فدَعاهُ رسولُ الله ﷺ فسألَهُ عمَّا أَخبرَهُ الرَّجلُ فاعترفَ بذلِكَ وقال: قَدْ قلتُ لَهُ ذلكَ يا رسولَ الله، فقالَ رسولُ الله ﷺ: فلِمَ تُبْغِضُهُ؟ فقال: أَنَا جارُهُ وأَنا بِهِ خَابرٌ، والله ما رَأَيْتُهُ يُصَلِّي صلاةً قَطُّ إِلاّ هذِهِ الصَّلاةَ المكتوبَةَ التي يُصَلِّيها البَرُّ والفاجِرُ، قال: سَلْهُ يا رسولَ الله هل رَآنِي قَطُّ أَخَّرْتُها عَنْ وَقْتِها أَوْ أَسَاتُ الوضُوءَ لها أَوْ أَسَاتُ الرُّكوعَ والسُّجودَ فيها؟ فسأله رسولُ الله ﷺ فقال: لا والله، ثُمَّ قالَ: وَاللَّهِ ما رأَيْتُهُ يَصُومُ قَطُّ إِلاّ هَذَا الشَّهْرِ الذي

١٦٠ عن أبي بردة عن أبي موسى صحيح ابن حبان

يَصُومُهُ البَرُّ والفاجِرُ، قال: سَلْهُ يا رسولَ الله هَلْ رَآني قَطُّ فرَّطْتُ فيهِ أَو انْتَقَصْتُ مِنْ حَقِّه شيئاً؟ فسأَلَهُ رسولُ الله ﷺ قال: لا، ثُمَّ قالَ: والله ما رَأَيْتُهُ يُعْطِي سائِلاً قطُّ، ولا رَأَيْتُهُ يُنْفِقُ مِنْ مالِهِ شَيْئاً في شيءٍ في سبيلِ الله إِلاَّ هذهِ الصَّدَقَةَ التي يُؤَدِّيها البرُّ والفَاجِرُ، قال: فسَلْهُ يا رسولَ الله هل كتَمْتُ مِنَ الزَّكاةِ شَيئاً قطّ أَو مَاكَسْتُ فيها طالِبَها؟ قال: فسأَلَهُ رسولُ الله ﷺ فقالَ: لا، فقالَ لهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم: قُمْ إِنْ أَدْرِي لعلَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ }[١٦١]

مع أنه لايؤدي إلا الفرائض التي فرضها الله! لكن ربما يكون قلبه أتقى وأنقى وأرقى عند الله ﷻ، ليس فيه غلٌ ولا غشٌّ ولا حقدٌ ولا حسدٌ لأحدٍ من عباد الله، ومثل هذا يكفيه فرائض الله التي فرضها عليه مولاه، وبها ينال الدرجات العُلى عند الله ﷻ.

أما المُفرّطين الذين يتساهلون ويطمعون في كرم الكريم، وفي غفران الغفور وفي رحمة الرحيم، فإن هؤلاء خدعتهم أنفسهم وضحكت عليهم أنفسهم وسوّلت لهم شياطينهم أنهم على الحق، وفيهم يقول رسول الملك الحقّ ﷺ :

{ ليس الإيمانُ بالتمنّي ولكنْ ما وقر في القلب وصدّقه العملُ، إن قوماً ألهتْهم أمانيُّ المغفرةِ حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنةَ لهم وقالوا: نُحسِنُ الظنَّ بالله وكذَبوا لو أحسنوا الظنَّ به لأحسنوا العملَ }[١٦٢].

فما أحسن الوسطية الإسلامية التى جاء بها خير البريّة وهو أن يتوسَّط الإنسان في كل أحواله .. فيتوسَّط في طاعة الله، ويؤدّى الطاعة التى تجعله لا يمّلّ من أداءها، ولا يسأم من تكرارها، ويتوسَّط في الإنفاق في الزّي والطعام، وفي الإنفاق على من يعول على مدى الأيام، ويتوسَّط في معاملته مع الخلق ويتوسط في كل أحواله .

١٦١ رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد ثقات أثبات
١٦٢ تفسير البحر المحيط والألوسي عن الحسن

فهذا هو المنهج السديد الذى يقول فيه الله جلّ في عُلاه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾(الفرقان)

ولما سئل ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله قال: { أَدْوَمُهَا وإِنْ قَلَّ }[١٦٣]

فهذا هو الدرس الذي نحتاج إليه ويحتاج إليه المسلمون أجمعون الآن .. وهذا هو المنهج الإلهي الذي ارتضاه الله ﷻ في كتابه للتمسك بهذا الدين ولنيل الشرف الأعلى لنشر هذا الدين، الوسطيَّة في كل شيء:

- الوسطيَّة في العمل بالدين.
- الوسطيَّة في التعامل مع الآخرين.
- الوسطيَّة في السعى لكسب المعاش.
- الوسطيَّة في الإنفاق.
- الوسطيَّة في كل شيء هى منهج الله ﷻ.

وآيات القرآن مليئة بذلك، لايريد الله ﷻ منا أن نكون رهباناً فنتفرّغ بالكلية للعمل بالدين، ونمد أيدينا للغير سائلين، لأن الله ﷻ نهى عن الرهبانية وقال فيها الحبيب ﷺ: { إِنَّ الله قَدْ أَبْدَلَنا بِالرَّهْبَانِيَّةِ الحَنِيفِيَّةَ السَّمْحَةَ}[١٦٤] ، وفى الأثر الشهير: {لا رَهْبَانِيَّةَ فِي الإسلامِ }[١٦٥] ، والله ﷻ لايريد منا أن نستغرق في الدنيا بحجة السعى لطلب المعاش، وننسى الرحمن الذي ينعمنا بعنايته ورعايته وخيره وبركته في كل وقت وآن ... يريدنا أن نمشى على المنهج الوسطي.

والحقيقة أننا لو تبحرّنا في أى مشكلة بين إثنين، بين رجلٍ وزوجته، أو بين جار وجاره، أو بين جماعة في العمل، تجد أن السبب الأساسي في المشكلة هى أن هناكً

١٦٣ عَنْ عَائِشَةَ رواه البخاري ومسلم

١٦٤ رواه الطبراني

١٦٥ لا رهبانية في الإسلام ، قال ابن حجر لم أره بهذا لكن في حديث سعد بن أبي وقاص عند البيهقي إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة ، الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث للعامري.

واحد متشدد زيادة عن اللزوم، وواحد متساهل ومتهاون زيادة عن اللزوم، ولو رجعنا إلى الوسطية لانتهت كل مشاكلنا بالكلية، إلى جانب أن هذا يجعل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، لأن الآخرين لا ينظرون إلى كلمات المسلمين ولا يعيرونها أذُنٌ، ولا يقرأون في كتب الذين يعرضون الإسلام وإنما ينظرون إلى سلوكيات المسلمين ويقيمون بها الإسلام .

هؤلاء الجماعة ماذا يعملون؟ ديننا يأمر بالصدق ويأمر بالأمانة ويأمر بالوفاء وبالعهد ويأمر بمكارم الأخلاق، ولخّصه النبى ﷺ في جملة واحدة وكلكم تحفظونها: { إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ }.[١٦٦]

وهم يعلمون هذا الكلام، فكيف بالجماعة المنتمين لهذا الدين، فما هي أخلاقهم؟ هل يعملون بما يقولون؟ هل هم يقولون بما يفعلون؟ كما ذكر الشيخ محمد عبده رحمة الله عليه عندما ذهب إلى باريس وقال: { وجدت مسلمين بغير إسلام }، وعن بلاد المسلمين التى يتمسكون فيها بظاهر الإسلام فقط قال: { تجد الإسلام ولا تجد المسلمين }، ولما زار أندونسيا قال : { وجدت إسلاماً و وجدت مسلمين }.

كيف هذا؟ لأنك تجد الإسلام فى التصرَّفات والمعاملات! تجده فى المسلمين في هديهم وفي سمتهم وفي أخلاقهم .. فهم عندئذ يتمسكون بالهدى الإسلامي القويم، وأين نحن من النهج النبوى؟

النبي ﷺ عرَّف المسلم بكلمة واحدة، من هو المسلم يا رسول الله؟ لم يقل اسمه محمد أو اسمه علىّ أو إبراهيم .. ليس للإسم علاقة به ....، لكنه قال:

{ المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ }.[١٦٧]

وهذا هو التعريف الجامع للمسلم وهو الذى يسلم المسلمون من لسانه ويده،

١٦٦ رواه البيهقي عن أبي هريرة ﷺ.
١٦٧ صحيح البخاري عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما

ومن هو المؤمن؟ قال: { مَا هُوَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ لَمْ يَأْمَنْ جَارُهُ بَوَائِقَهُ }[١٦٨]

لا يوجد ضررٌ منه أبداً .. بالنسبة للجيران فالجيران يحبوه، ويقبلوا عليه.

ولذلك عندما طلب عمر من رجلٍ أن يأتيه بشاهدٍ يشهد له فسمح له بذلك، وأتى بالشاهد فشهد الرجل له بأنه كذا وكذا فقال عمر: هل أنت جاره الذي تعرف بوائقه؟ قال: لا، قال فهل سافرت معه؟ فالسفر يسفر عن مكارم الأخلاق، قال: لا، قال: فهل عاملته؟ والمعاملة تكشف حقيقة مراقبة الكريم الخلاق، قال: لا، قال: { أظنك لاتعرفه، إنك رأيته يركع ركيعات ويسجد سجدات فقلت أنه رجلٌ صالح! }.

فالذي يبين الصلاح هو التقى ومكارم الأخلاق، والتي دعا إليها وكان عليها الذي قال فيه مادحاً الكريم الخلاق:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤القلم)، أنتم تعلمون أنه كان يقوم الليل حتى تتورّم قدماه، وكان يذكر الله ﷻ على كل أحيانه صلوات ربي وتسليماته عليه، وكان يصوم صيام الوصال حتى كان يقال أنه لايفطر.

ومع ذلك لايثني عليه بهذه العبادات، وإنما أثنى عليه بالغاية التي هي من وراء فرضية هذه العبادات وهي مكارم الأخلاق: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، وهو ﷺ القائل: {كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ}[١٦٩]

كان يوفر لكل زوجة من زوجاته طعام يكفيها لمدة عام عندما رزقه الله ﷻ بسهم خيبر، فكان يوزع السهم على زوجاته الكرام ويؤتي لكل واحدة منهن مايكفيها لمدة عام.

صحيح أنه كان ينفد لأنهن كنّ كريمات مع الضيفان، فكان يعطيها ما يكفيها لمدة عام، وكان لا يمر يوم إلا ويذهب إلى جميع زوجاته يتفقدهنّ قبل أن يذهب إلى صاحبة النوبة، فلا بد أن يمر على البيوت كلها وكانت تسع بيوت.

١٦٨ مصنف ابن أبي شيبة عن أنس بن مالك ﷺ

١٦٩ صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما

وأحيانا يكونوا عشرة، فكان لا بد وأن يمر عليهن ويذهب لكل واحدة يجلس معها ويؤنسها ويواصلها ويتفقد أحوالها قبل أن يذهب للأخرى، لماذا؟ لأنه يدعو إلى الوسطية بفعله وقوله ﷺ، فكان يأكل ما وجد ويشكر الله ﷻ عليه، لكنه لم يحرم طيبات الدنيا، ويأكل ما وجد على حسب التيسير، لكنه ماحرّم شيئاً أحله الله لأنه سمع الله يقول في كتاب الله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (٣٢الأعراف).

وسار أصحابه أجمعين على هذه الكيفية.

- كان ﷺ يلبس ما حضر، وعندما جاءت الوفود من الجزيرة العربية مبايعةً له بالإسلام، كلف أصحابه أن يشتروا له ثوباً للجمعة، ولمقابلة الوفود، وورد في صحيح الترمذي أن هذا الثوب اشتراه بخمسة وعشرين جملاً، لماذا ؟ ليليق بزعيم أمة ورئيس دولة سيقابل هذه الوفود، وكان منهم الملوك وقد أعطاه الله ﷻ العزّة حتى على الملوك، لا بد وأن يكون عزيزاً.

- وكان ﷺ إذا جاء وفدٌ واستأذنوا في الدخول عليه ينظر في المرآة ويصلح عمامته وشعره، فسألته السيدة عائشة، فأخبرها أنه يحبُّ أن يتزين لأصحابه كما يتزينون للقائه، وتبعه أصحابه لك فكان ابن عباس يقول فيما يهمله الكثير إنِّى أحبُّ أن أتزين لزوجتى كما تتزين لى

- وهو الذى أمر بطهارة الفم بالسواك، وعطر رائحة الجسم بين البشر، وأمر بنظافة الأجسام والبيوت والأفنية والأوعية والملابس.

- وكان ﷺ سائراً مع جيشه، فمروا على جبل بجواره عين ماء عليها شجرة، فذهب رجل ممن معه إلى رسول الله يستأذنه في أن يجلس عند العين ويتوضأ ويتعبّد ويصلى لله ﷻ، فقال ﷺ : { رِباطُ يومٍ في سبيل

الله خيرٌ منَ الدُّنيا وما عليها}[١٧٠].

- هل توجد رهبانية في الإسلام يا أخي؟ .. لا! ....

فالإسلام دين الوسطية الإسلامية، لكن المهم فيه الأخلاق الكريمة، والتي هي الدليل على صحة العبادات لرب العباد ﷻ، فما الدليل أن صلاة المؤمن تكون مقبولة عند الله؟ إذا رأيت أخلاقه فى التعامل مع الآخرين صورة طيبة تمشي على نهج أخلاق رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ (٤٥العنكبوت).

لكن لو ذهبنا الآن إلى أى سوق من أسواق المسلمين، والسوق به مسجد، والمصلين بعد الصلاة يرجعوا لعملهم، تجد الغش في الكيل، والغش في الوزن، والغش في البضاعة، والغش في الثمن، والغش في كل شيء، وكأن هذا أمر وهذا أمر، والذى أضاع الدين هو الثنائية التي أوجدها المسلمون! جعلوا الدين عبارة عن عبادة وفقط!

أين مادة المعاملات ؟ أين مادة الأخلاق ؟!! لا أحد يبحث عنها .. فالدين اختزلوه واختصروه في الصلاة وقيام الليل وصيام النهار وصيام الأيام الفاضلة وتلاوة القرآن .. لكن العمل مع بني الإنسان، فكل واحد يمشى على هواه وليس على ماقرره الله وبينه رسول الله ﷺ .

الوسطية في الإسلام التى ارتضاها لنا خير البرية، ولذلك تجد حتى في العبادات حضرة النبي حرص عليها: مثلاً أنا أريد أن أصلي، قال: أتصلي بمفردك أم تصلي جماعة؟ وهل هناك فرقٌ بين الإثنين؟ طبعاً قال: { إِذَا أَمَّ أَحَدُكُمُ النَّاسَ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ، وَالضَّعِيفَ، وَالْمَرِيضَ، فَإِذَا صَلَّى وَحْدَهُ فَلْيُصَلِّ كَيْفَ شَاءَ }.[١٧١]

فيكون هناك منهجان، فلا يصح أن آتي بالمنهج الخاص وأطبقه في المنهج العام

١٧٠ صحيح البخاري، عن أبي حازم عن سهلِ بنِ سعدٍ الساعديّ رضيَ الله عنه وتمام الحديث { . ومَوضعُ سَوطِ أحدِكم من الجنةِ خيرٌ منَ الدُّنيا وما عليها، والرَّوحةٌ يَروحُها العبدُ في سبيلِ الله أوِ الغَدْوَةُ خيرٌ منَ الدُّنيا وما عليها }

١٧١ صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

فأكون قد خالفت سنة خير الأنام ﷺ.

فقد أتى جماعة إلى رسول الله واشتكوا له سيدنا معاذ بن جبل، ماذا فعل ؟ وسأروى لكم الحديث كاملاً لتعرفوا قصته وكيف كانوا يفهمون الدين عن سيد المرسلين، الذى أتم لنا الدين! ولكن هل من مدكر، واسمعوا لقول سيدنا جابر ﷺ:

{ كَانَ مُعَاذُ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ، ثُمّ يَأْتِي فَيَؤُمُّ قَوْمَهُ، فَصَلَّى لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ الْعِشَاءَ، ثُمّ أَتَى قَوْمَهُ فَأَمَّهُمْ، فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَانْحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ، ثُمّ صَلَّى وَحْدَهُ وَانْصَرَفَ. فَقَالُوا لَهُ: أَنَافَقْتَ يَا فُلاَنُ؟ قَالَ: لاَ وَالله! وَلآتِيَنّ رَسُولَ اللّهِ فَلأُخْبِرَنّهُ فَأَتَى رَسُولَ اللّهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ! إِنّا أَصْحَابُ نَوَاضِحَ. نَعْمَلُ بِالنّهَارِ، وَإِنّ مُعَاذاً صَلَّى مَعَكَ الْعِشَاءَ، ثُمّ أَتَى فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللّهِ عَلَى مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا مُعَاذُ أَفَتّانٌ أَنْتَ؟ – وفى رواية أنه ﷺ كررها!– اقْرَأْ { وَالشّمْس وَضُحَاهَا }. { وَالضُّحَى }. { وَاللّيْلِ إِذَا يَغْشَى }، و { سَبّحِ اسْمَ رَبّكَ الأَعْلَى}. }.[١٧٢]

هل ستفتن الناس عن دينهم؟

ماذا أفعل إذاً؟ ... هناك منهج عام ومنهج خاص:

- والذي عليه خير الأنام ﷺ، ستصلي في بيتك في جُنح الظلام، أو ستصلي في بيتك صلاة الضُحى بعد طلوع الشمس بثلث ساعة، أو ستصلي في أى زمان ومكان، طوِّل واقرأ كما فعل النبي ﷺ ، فقد كان يصلي في بيته في الليل فيقرأ البقرة وآل عمران في الركعة الواحدة .. لأنه يصلي وحده.
- لكن مع الكلِّ أتبع المنهج الوسطي الإلهي الذى ارتضاه الله وسار عليه رسول الله ﷺ في كل أموره.

١٧٢ رواه الامام مسلم عن جابر ﷺ بنحوه.

المحور السادس

واجب إظهار جمال الإسلام للعالمين

وهنا محور الواجب علينا لدعوة الإسلام نحو جميع الأنام:

عندما يسمع رجلٌ الآن عن الإسلام ومميزاته وخصائصه، وينظر إلى ما عليه المسلمون مِنْ غشٍّ في تعاملهم، ومِنْ خديعة في أحوالهم لبعضهم، وبينهم وبين أقاربهم وإخوانهم، ومن تدليس في بيعهم وشرائهم، يظن أن ذلك هو الإسلام! لا يعتقد أن العيب في المسلمين، بل ينسب العيب للدين الذي اختاره المسلمون! فيعيب الإسلام لما رأى عليه من أحوال المسلمين.

عندما نقول له إن الإسلام قال على لسان نبيه ﷺ للمجاهدين الأولين: { لا تقتلوا إمرأة ولا طفلاً ولا شيخاً كبيراً، ولا تحرقوا زرعاً ولا تقتلوا ماشية }.[١٧٣] ، عندما يسمع الإنسان غير المسلم بذلك، ثم يرى على شاشات وسائل الإعلام تقتيل شباب المسلمين بعضهم بعضاً بدون شئ يستوجب ذلك، ماذا يقولون عن أحوال هؤلاء الذين يدَّعون أنهم زعماء الإسلام؟! أولهم وصاية على أحكامه؟! أو كلَّفهم الله بتطبيق شريعته؟!!

نَعِيبُ زَمَانَنا وَالعَيْبُ فِينَا وَما لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

كانت تلك الأخلاق الإيمانية هي التي تجذب هؤلاء القوم إلى ديننا الإسلام، فإذا طبقنا فيما بيننا حقَّ المسلم على المسلم، وحقَّ الجار على جاره، وحقَّ الأب على إبنه، وحقَّ الصديق على صديقه، وحقَّ الزميل على زميله، وحق الأخ على أخيه، وحقَّ الزوجة على زوجها، وحقَّ الزوج على زوجته، إذا طبقنا هذه الحقوق ... فلن يكون في مجتمعنا أمرٌ يضرُّ مسلماً، أو يُنَرْفِزُ

١٧٣ رواه صاحب جامع الأحاديث والمراسيل عن عمر بن الخطاب ﷺ

جسمه، أو يوتِّر أعصابه، لأنه لا يجد فيمن حوله إلاَّ ما يُحِبُّه. يجد مَنْ حوله أحرص عليه مِنْ نفسه، ويحبُّون له الخير كما يحبونه لأنفسهم.

نحن جميعاً الآن – حُماة الإسلام – في مفترق طرق، والعالم كلُّه ينظر إلينا الآن، ينظر إلينا على أننا مسلمين، ولا يعرف من حقيقة هذا الدِّين، إلا ما يراه من أوصاف المسلمين، وسلوكيات المسلمين، وتعاملات المسلمين، وأحوال المسلمين مع بعضهم في مجتمعاتهم. فأنتم العارضون لجمال ومكارم هذا الدِّين.

ما الذي ينبغي علينا جميعاً الآن نحو دِيننا؟ ونحو إلهنا؟ ونحو قرآننا؟ ونحو نبيِّنا؟ ونحو إخواننا؟ ونحو أنفسنا؟ ونحو الخلق أجمعين؟

العالمُ لم يرَ في هذه الآونة الماضية إلا مظهراً شكلياً لهذا الدِّين، تحلىّ به بعض المنتسبين للإسلام في المظهر، وفى الجلباب، وفي السواك، وفي النقاب، في الشكليات وهى مظهرٌ جميلٌ لظاهر هذا الدِّين، لكن ليست هى كلُّ الدين. جوهر الدين هو الذى يجذب غير المسلمين إلى جمال وكمال هذا الدين.

يريدون أن يروا أخلاق القرآن ظاهرة وماثلة، وموجودة ومشهودة، في الشوارع وفي المنازل، وفي الطرقات وفي المجتمعات، وقد تجمَّل بها المسلمون! .. يريدون أن يروا صدق الكلمة، والوفاء بالعهد والمودة، والتراحم والتعاطف والشفقة، والحنان والحب، وهذه الصفات ذكرها القرآن، وجاء بها النبى العدنان، وكان على هَدْيها ومُتخلقاً بها في كلِ وقت وآن، ولذلك يقول له ربُّه ﷻ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١٥٩آل عمران)، بماذا أرسله؟ بالرحمة لجميع خلق الله، وفسّر هذا فقال ﷺ : { إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ }.[١٧٤]

جمال هذا الدِّين سطع على سيِّد الأولين والآخرين، ومنه انتقل إلى أصحابه

١٧٤ (ابن سعد والْحكيم) عن أَبي صالح مُرْسَلاً (ك) عنه عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ– جامع المسانيد والمراسيل.

والتابعين، والسلف الصالح أجمعين، فدخل الناس في دين الله أفواجاً بدون خطب ولا شرائط ولا فضائيات ولا كلمات، ولا كتب ولا مراجع، وإنما نَظَرَ الخَلْقُ إلى هديهم، وإلى سَمْتِهم، وإلى أخلاقهم وإلى سلوكياتهم، فأعجبوا بهذا الدِّين الذي أسس هؤلاء الأفراد، فدخل أهل أندونيسيا، وأهل جُزر الملايو، وأهل أفريقيا وغيرهم، في دين الله أفواجاً لما رأوه من العارضين لهذا الدِّين.

فهذا هو المظهر الإلهي الذي أمر الله أن يكون عليه أتباع هذا الدِّين، لكن إذا نظر أهل الغرب الآن إلى المسلمين فيما بينهم وبين بعضهم، من غشٍّ، وتطفيف في المكيال والميزان، وكذب لا ينفكّ واحدٌ عنه في كل وقتٍ وآن، وخيانة للعهد، وشقاق ونفاق، وكُره وبُغض وأحقاد وأحساد، واستيلاء القوى على الضعيف، وقطع للطرقات، وقضاء على الإقتصاد الذى أوشك على الممات، ولا يرحمون أنفسهم ولا ينظرون إلى المهمَّة التى كلَّفهم بها ربُّهم، وأمرهم أن يكونوا عليها نبيُّهم.

ماذا يقولون عن الإسلام الآن عندما يرون جماعة المسلمين وقد تركنا كل ما كان عليه النبي وصحابته الكرام، وتدثّرنا ولبسنا أخلاق الشياطين اللئام؟ قلّ ونَدُرَ أن تنظر إلى طائفة من المسلمين إلا وتجدهم يعيبون على بعضهم!! ويُشككون في نوايا وسلوكيات إخوانهم!! ويتعدُون بالألفاظ البذيئة على أئمتهم وكُبرائهم!! هل هذا من أخلاق هذا الدِّين؟ إننا بذلك نُسيء إلى أنفسنا، ونُسيء إلى دِيننا، ونُسيء إلى نبيِّنا، ونُسيء إلى كتابنا، لأننا أخذنا من الدين القشور وتركنا الجوهر المُمتلئ بالنور، الذي هو كالشمس التي تجذب الخلق إلى هذا الدِّين، وهو الدِّينُ الحقّ.

المسلم في هذا الزمان مهمته ثقيلة، لأن البعض يقول: مثلي مثل بقية المسلمين – (أنا زى الناس الناس) – والنَّبي ﷺ حذّر من هذا وقال: **{لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاؤُوا أَنْ لاَ تَظْلِمُوا}**[١٧٥] .. لا تقُل: أنا مع الناس، ولكن قُل: أنا

١٧٥ رواه الترمذي، عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ، الترغيب والترهيب

مع ربِّ الناس، وأنا مع خير كتاب أنزله ربُّ الناس، قُل: أنا على عهد خير نبي اختاره الله ﷺ للناس، قُل: أنا على هَدْى الصحابة الذين أحسنوا متابعته فأثنى الله عليهم وذكرهم في كتاب الله، وقال في شأنَهم مُجلّياً ومبيِّناً أوصافهم:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ ..أشدَّاء غلاظٌ قُساة، على من؟ ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾، وفيما بينهم وبين إخوانهم: الرحمة والمودّة والألفة، والتوادد والتحابب، والتآخى والتزاور في الله، والبذل في الله، والعمل على مرضاة الله جلَّ في عُلاه، والسعي في قضاء حوائج إخوانهم طلباً لمرضاة الله ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢٩الفتح).

أبدلنا آيات الله وأصبحت الشدّة من بعضنا على بعض، لا يرحم التاجر المُشتري فيزيد أجره ومكسبه أضعافاً مُضاعفة، ولا يرحم الصانع من طلبه فيجعل الأجر أضعافاً مضاعفة، ولَيْتَهُ يُتقن صنعته ويعمل بقول الحبيب: { إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يتْقِنَهُ }[١٧٦] .... وخذوا نماذجاً وما لديكم أكثر ..:

- لا يرحم الطبيب المريض، فلو قيل له: إن رجلاً بالعيادة على وشك الموت لا يأذن له بالدخول حتى يدفع ثمن الكشف للطبيب، مع أنه أخٌ في الإيمان وأخٌ في الإسلام!!.
- لا يرحم المدّرس تلميذه ويرفض أن ينطق بلسانه في عمله الذى يأخذ أجره عليه، ويقول: من أراد أن ينجح في مادتى فليذهب إلى عيادتي! يريد أن يُحوّلهم إلى المنازل ليتكسّب منهم الآثام والذنوب العظام!!.
- لا يرحم المحامي من لجأ إليه ليدافع عن قضيته، فإنه يحاول ابتزازه بقدر طاقته، وكلما أوشك الأمر على الحُكم النهائي تدّخل ليطيل الأمر ويُطيل الإبتزاز، بل وربما يأخذ من الشاكي ويأخذ من المشكو!! وهذا أمرٌ فيه غُلوّ يتنافى مع هذا الدِّين.

١٧٦ (هب) عن عائشة رضيَ اللّهُ عنهَا، جامع المسانيد والمراسيل

نستطيع أن نقيس على هذه الأمور التي سرت في مجتمعنا، حتى أصبحنا جميعاً نتململ من حياتنا، ونشكو مجتمعنا مع أننا لا نسكن في تل أبيب ولا في واشنطن، ولكن نسكن في مصر وفي القاهرة، بلد الأزهر الشريف، وبلد المساجد التي لا تُحدّ ولا تُعدّ، بلد القرآن، بلد العلماء الذين نشروا هَدْىَ الدِّين في كل مكان.

أين الدين مِنَّا جماعة المؤمنين؟ ....

أفي الصلاة؟!! أو في الركعات؟!! أو في الصيام وتلاوة القرآن والذكر فقط؟!! هل هذا هو الدين؟!!

الدين أخلاق يا جماعة المؤمنين، الدين سلوكيات طيِّبة دعا إليها سيِّد المرسلين، اسمعه وهو يقول عن المسلم؟!! فماذا يقول؟ لم يقل: المسلم من صلَّى وصام وزكّى وحج، وإنما قال قولٌ واحد: { **الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ** }[١٧٧]

أين هو المسلم الحق الآن؟ قلَّ وَنَدَر، كثيرٌ منا يحافظون على فرائض الله، لكنهم – وهذه مشكلة زماننا – فرقّوا بين طاعة الله؛ واعتقدوا أنها هي الدين! وبين الأخلاق والمعاملات والسلوكيات، وكل واحدٍ منهم مشى على هواه ومايريد تحقيقه من مناه، وظنّ أنه يُرضي ربَّه على العبادات التى كلَّفه بها الله، مع أن النبىَّ ﷺ حكم في هذا الأمر حُكماً صريحاً عندما قيل له: {**إن فلانة تصلّي الليل وتصوم النهار وفي لسانها شيءٌ يؤذي جيرانها** (سليطة اللسان) **قال: لا خَيْرَ فيها، هِيَ في النّارِ**}[١٧٨]

الدِّينُ ليس قاصراً على العبادات، ولكن الدِّين جعل حقًّا لله وحقوقاً للخلق، وكلها في دين الله، حق الله: هو الصلاة، والصيام، والحج، وحقوق عباد الله: هى الزكاة، والأخلاق الكريمة، والمعاملات الحسنة التى على منهج كتاب الله، والتى كان عليها سيِّدنا رسول الله ﷺ .

١٧٧ عن أبي هريرة، سنن الترمذي
١٧٨ عن أبي هريرة ، المستدرك على الصحيحين

إن العالم كله ينظر إلى تجربتنا التي نحن فيها الآن، وقد اخترنا - والحمد لله - الإسلام والمنهج الإسلامى، فهل سَنُقَوِّمُ به اقتصادنا؟ هل سنصلح به أخلاقنا في مجتمعنا؟ هل سيعُمّ الخير بلادنا؟ إن سيدنا عمر بن عبد العزيز طبّق المنهج الإلهي في عامين ونصف. ماذا كانت النتيجة؟ من الناحية الإقتصادية: فاض المال، حتى أن الرجل كان يأخذ زكاة ماله في حِجره فلا يجد من يأخذها منه، فيُعطيها لبيت المال ليُنفقها حيث يريد، ما الذي فعله لحلّ المشاكل بالزكاة؟

قضى على الفقر، ولم يبقَ هناك فقيرٌ واحدٌ في مملكته، وكانوا إلى جانب الفقر أعزّة بالله، يُبرؤون دين الله عن التسوّل، لا يقفون خارج أبواب المساجد وينتظرون العطاء، ولكن يسعون إلى العمل لأنهم شُرفاء، وينتظرون - على الأجر القليل - البركة من السماء، لأن الله وعد المؤمنين أن يبارك في القليل فيُغنى عن الكثير.

أما التسوّل فقد قال فيه حضرة النبيِّ: { مَنْ سَأَلَ، وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ، جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُدُوشًا، أَوْ خُمُوشًا، أَوْ كُدُوحًا، فِي وَجْهِهِ }.[١٧٩]

علامة يُفتضح بها أمام الخلق أنه كان يُسيئ بفعله إلى هذا الدِّين، ويتسوّل ويشحذ مع أنه لا يحتاج إلى ذلك، ولو استغنى بالله لكفاه أغنياء وأثرياء المسلمين وهو في موضعه ومكانه، لأنه واثق في ربِّ العالمين ﷻ.

فلما قضى على مشكلة الفقر قضى بعدها على مشكلة الأميّة، وأصدر أوامره بأن يكون في كل مسجد من مساجد المسلمين مُعلِّماً يُعلمّ نساءً ورجالاً القراءة والكتابة، وأحضروا لهم الألواح والأقلام من أموال الزكاة، حتى لم يَعُدْ بعد في أمّة المسلمين على إمتدادها من المغرب إلى حدود الصين - وكانت هذه هى دولته - لم يعد فيها امراةٌ ولا رجلٌ أمّيٌّ أو أمّيَّةٌ لا يقرأ ولا يكتب.

بعد ذلك مهَّد الطرق، ولم يكن هناك الوسائل العصرية التى تُمّهد الطرق!!

١٧٩ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ: المسند الجامع

مهّد الطرق في كل أرجاء هذه المملكة، وجعل على كل مرحلة داراً للضيافة فيها طاهٍ يطهو الطعام، ويُطعم مَنْ حَلَّ به من المسافرين لوجه الله، وفيها مكانٌ للنوم ينام ويستريح فيه إن أراد الراحة، حتى جعل فيها مكاناً لعلف الدَّواب؛ لأنها كانت مراكبهم فيُطعم دابته منه، والأجر عند الله ﷻ. وكل ذلك من أموال الزكاة.

لم يقطعوا الطرق - كما يفعل بعض المسلمين الآن!! على من؟ أعلى اليهود! أم الكفار والمشركين؟! لا، بل على إخوانهم الفقراء الذين لهم مصالح!! بإسم الحريّة! أهذا على شرع الله وسنة رسوله ﷺ؟! إذا كان ديننا يجعل الإيمان أعلاه لا إله إلا الله، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق، ونحن نقطع الطريق!! وندَّعى الإسلام والإيمان؟!!.

ولما انتهى من مشكلة الأميّة انتقل إلى مشكلة العزوبة - أى عدم الزواج - التى تفاقمت الآن إلى حدّ كبير، فأمر بتزويج الشباب من أموال الزكاة. يخطب الفتاة التى تروق له، وبيت المال يقوم بتجهيزه ويتزوّج من مال الزكاة.

حلّ كل مشاكل الأمَّة من بند واحدٍ، وهو بند الزكاة، فما بالكم بالبنود الأخرى من إقتصاد الأمّة، التى إذا قمنا بها على وجه الصواب جعل الله ﷻ هذه البقاع كلها في خير تام؟ ولا يحتاجون إلى ما يفيض به اللئام والكفار والغُرماء أجمعين.

لكن الذى نحن في أمسِّ الحاجة إليه الآن، هو أن نكون مُعتمدين على أنفسنا - كيلا نحتاج إليهم في إقتصادنا - ولا نقول في كل صباح ومساء: لم تأتِ المعونات بعد، ولماذا ننتظر المعونات ولا نعمل ونتكاسل ونتباطأ؟!!.

نحتاج أيضاً ألا نلجأ إلى الإستيراد إلا ما نحتاج إليه، يقوم شبابنا بالإستقامة مع الله، ويتوسعون في دراسة علوم الحياة، ويخترعون ما يُغنينا عن الإستيراد من هؤلاء، فنكون قد أرضينا الله، وأقمنا دين الله، والحقُّ ﷻ في ذلك الوقت يُساعدنا وينصرنا، لأنه قال سبحانه وتعالى قال فى محكم الكتاب الكريم: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (٩٦الأعراف).

وعلينا في هذه الأيام العصيبة أن نسعى جهدنا إلى جمع شمل المسلمين ولنجعل:

- الخطاب بين أى مسلم ومسلم بما أمر رب العالمين: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الحج).
- وأن يكون الخطاب بيننا وبين سائر الناس الذين لا يؤمنون برب الناس كما قال الله لنا في القرآن: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (٨٣البقرة).
- وأن يكون التعامل فيما بيننا بما علَّم الله به نبينا فقال له ولنا: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١٥٩آل عمران)

علينا أن نظهر للعالم كله جمال هذا الدين وهو ليس في الشكليات ولكن في الأخلاق والقيم الباقيات، علينا أن نظهر لهم عملياً قوله ﷺ: { تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَه سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى }[١٨٠].

نُظهر المودة بين المسلمين والتراحم بين الأغنياء والفقراء والمساكين، وصلة الأرحام والمودة بين جموع المؤمنين، احترام الصغير للكبير، وعطف الكبير على الصغير، وغيرها من الاخلاق الإلهية الإسلامية التى كان عليها سلفنا الصالح ﵃.

فإذا تجملنا بهذه الصفات فإن جمال الإسلام سيدعوا إليه كل من على هذه البسيطة ولن يبقى على ظهر الأرض رجل إلا ويدخل في دين الله الحق، لأنهم يريدون أن يروا أخلاق الإسلام وقيم الإسلام بين المسلمين، لكنهم عندما يرون جموع المسلمين -إن كانوا علماء أو أتباع العلماء- والعصبية التى بينهم والشراسة في طبعهم والحدة في كلامهم والغلظة في أفعالهم وتجاوز الحدَّ في تسفيه بعضهم وسبِّ بعضهم وشتم بعضهم!!! كيف ينظر العالم الآن إلى الإسلام والمسلمين؟!!

١٨٠ جامع المسانيد والمراسيل عن النعمان بن بشير ﵄

هدى رسول الله في دعوة غير المسلمين

ونحن نمثل الإسلام وينظرون للإسلام من خلال حركاتنا وأفعالنا وسكناتنا، إننا نُظهر لهم صورة قبيحة لهذا الدين جعلت كما ترون العالم كله يقول إن الإسلام دين الإرهاب، لأنهم لا يرون إلا الفزاعة وإلا الشدة وإلا استخدام القوة في إجبار الناس على آراء الإسلام مع أن الله قال في القرآن:﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ (٢٥٦البقرة)

لا إكراه لإنسان على الدخول في دين الله، دخل سلفنا الصالح إلى هذا البلد الآمن المطمئن، لو أكرهوا أهله على الدخول في الإسلام ما وُجد في بلدنا واحد يدين بغير الإسلام، لكنهم علموا علم اليقين أن الدين لله، وأن الله ﷻ هو الهادي لمن يحبه بهداه وأن الهُدى هُدى الله، فدعوا الخلق بأخلاقهم وأعمالهم وأحوالهم وتركوا لهم حرية الإختيار: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٢٩الكهف).

ما مهمة المسلم في الكون؟ أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً ..كيف أدخلهم ؟ هل أحرجهم ؟ أم هل أعلن عليهم الحرب لأدخلهم في الدين؟ وهل هناك أحدٌ يدخل بالحرب في الدين؟ فماذا أفعل إذاً؟ .... أظهر لهم جمال هذا الدين، وبعد أن يُعجبوا بهذا الدين يدخلون فيه، وهو المنهج الذى سار عليه رسول الله وأصحابه الكرام ومن تابعهم .. ولننظر كيف كانوا يتعاملون مع هؤلاء القوم؟

وصفحات التاريخ مملوءة، فنجد المعاملة في غاية الإعجاز والروعة في الأخلاق القرآنية والهدى الإلهي الذى كانوا سائرين عليه، لماذا؟ لأنهم ساروا وعملوا بما كان عليه رسول الله ﷺ .. مالذي يحبب الناس في الإسلام؟ العدل، فكان أساس الإسلام هو العدل، والعدل أساس المُلك .. العدل الذي لايفرّق بين هذا وذاك ... العدل الذي جعل أمير المؤمنين عمر ﷺ – والقضية كانت بين الإمام عليّ ورجل آخر – أرسل إلى الإثنين، ليأتياه، فقال تعالَ هاهنا يا أبا الحسن –ليجلس الإمام عليّ بجوارِه، والآخر بجوار القاضي،

فغضب الإمام على وظهر عليه ذلك، وبعد إنتهاء المحكمة عاتبه سيدنا عمر وقال له: لِـمَ رأيتك غضبت عندما ناديتك؟ قال : لسببين، لأنك كَنَّيتني ولم تُكنِّ خصمي ولم يثبت الحق بعد لي!، وأنك طلبت مني أن أجلس بجوارك! وخصمي واقف أمام القاضى.

ولو تدبرت صفحات التاريخ تجد أن من دخلوا في دين الله أفواجاً كان السبب الرئيسي لذلك هو سماحة المسلمين، وعدالة حكامهم، والأخلاق الكريمة التي يروها حتى من مقاتلي المسلمين، أخلاق فوق العظمة وهي التى جذبتهم إلى هذا الدين، لا التقتيل ولا الترويع ولا التفجيرات، هل هذا في الإسلام؟ هل فيه ترويع الآمنين؟ لا! إنما فيه أنَّه إذا كان في الحرب فالقائد المسلم لايبدأ الحرب إلا بعد أن يُعلن عدوَّه: ﴿ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾، فيقول لهم من البداية إنني سأحاربكم، لماذا؟ قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الأنفال)، ولذلك كانت الحروب الإسلامية بهذه الكيفية .

قائد الفرس رستم طلب من سعد بن أبي وقاص أن يرسل إليه رسولاً ليخبرهم لماذا جاؤا لحربهم؟ فأرسل إليه رجلاً فقيراً من المسلمين إسمه ربعي بن عامر ﷺ: { فدخل عليه وقد زيّنوا مجلسه بالنّمارق المذهّبة، والزّرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبَها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض الوسائد، وأقبل وعليه سلاحُه ودرعه و خوذته على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك فقال: إني لم آتِكم وإنّما جئتكم حين دعوتموني، فقال رستم: إئذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النّمارق فخرّق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتَها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإِسلام }.[١٨١]

هذا كان هدفهم .... تحرير الناس من ظلم الحكام الظالمين.

١٨١ حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى والبداية والنهاية وتاريخ الطبرى.

المحور السابع

تحديث الخطاب الديني العصرى

أو الحثُّ على التفكِّر واستخدام سلاح الإعجاز العلمي

وأتكلم الآن عن تحديث الخطاب الديني بالأسلوب العصري.

وسأتناول فيه موضوعين رئيسيين:

الحث على التفكر .. لأن إعمال الفكر والعقل هو سمة العصر اليوم، والثاني هو استخدام الإعجاز العلمي في الدعوة إلى الله فيما بيننا وفي بيوتنا ولغيرنا .. على النسق العلمي المتطور اليوم!

علمّ نبيكم الكريم صحابته العظام ومن تابعهم على هذا الخير وعلى هذا الهدى إلى يوم الزحام أن ينظروا إلى كل أمرٍ تجريه المقادير بعين القلب نظر عبرة، وبعين الفكر نظر فكرة، ولا ينظروا فقط بعين الرأس، لأن عين الرأس فقط تنظر بعين غرّة، فالمؤمن ينظر برأسه ويفكر بعقله ويعتبر بقلبه لأنه هو الذى عناه ربه فقال:

﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ ﴾ (الحشر)

فقد جعل الله ﷻ مايحدث في الأكوان أفلاماً تسجيلية نورانية .... تظهر إبداع بديع صنع حضرة الرحمن .... وتُظهر مدى عنايتة ورحمته وشفقته وعطفه وحدبه على بني الإنسان.

فنحن نرى عظيم قدرة القادر ﷻ ومدى رعايته بخلقه، وتدبيره لشئونهم ورحمته بهم؛ إذ خلقَ الخلق وخلقَ لهم كل ما يحتاجونه من ماء وهواء ونور وضياء

وطعام وشراب وكساء ومسكن ودواء، وكل ما يحتاجونه في هذه الحياة دبّره وكوّنه وسخّره وأمضاه بقدرته جلّ في عُلاه ، فلننظر إلى صنفٍ واحد منها فقط وهو حسبنا!

ألا وهو الماء .....:

جعل الله ﷻ للأحياء ثلاثة خزانات للماء، خزّن الماء في البحار والمحيطات، ولما كان الماء فيها سائلاً فإنه يتعرض للعفن ويتعرض للعطن ويتعرض للنتن ويتعرض للتغير فجعل الله ﷻ فيه مِلحا أُجاجا يحفظ هذا الماء في هذا الخزّان الإلهى من أي تغير أو عطن أو عفن.

وجعل هناك خزاناً تحت الأرض وهى المياة الجوفية، وخزانا جمده في المحيط الشمالى والجنوبي، ماءً مجمداً على هيئة ثلوج حفظه الحفيظ ﷻ، وكل ذلك من أجل رحمته بالإنسان وعطفه على كل الكائنات التي أوجدها لا لذاتها ولكنها كلها مسخرةٌ ومذلّلة لبني الإنسان.

فإذا احتاج الإنسان في أى مكان إلى الماء، أمر الله ﷻ الشمس أن تُسلط حرارتها على مياه الخزان البحري فتحول الماء إلى بخار ويرتفع إلى الفضاء ،ويأمر الله ﷻ الرياح التى نراها الآن أن تحمل هذا الماء وتجعله رُكاما، ثم تجعله سحاباً وتحركه وتسيره، فهى القاطرة التي تسيّر الماء حتى يصل إلى الأرض الجدباء التى قررت لها إدارة السماء أن يترل عليها الماء إغاثة من المغيث ﷻ.

فإذا أراد الله ﷻ إنزال الماء جعل للسحاب بعضها معه موجاتٌ سالبة، وبعضها معه موجات موجبة، فتصطدم ببعضها بإذن ربها فتخرج شرارة نراها بالأعين جميعا، لو تعرض لها إنسان لأحرقته، ولو ذهبت إلى زرع لأتلفته، ولو ذهبت إلى جمادٍ لأهلكته، فهى قوة البرق التى نراها عندما يصطدم السحاب بعضه ببعض، فيترل الماء من السماء مثل خراطيم الحريق الكبيرة التى لا نستطيع تحمل ماءُها، ولو نزل الماء

بهذه الهيئة لأتلف كل شيء يواجهه .. لو نزل على إنسان لمات في الحال، ولو نزل على بنيان مهما كانت قوته لتهدّم في الحال، ولو نزل على زرع لهلك في الحال.

فيأمر الله ﷻ الرياح أن تتحرك بعد نزول الماء فتفرقه إلى قطرات، وتنزل هذه القطرات على الوجه فلا تؤذيه، وعلى الزرع فلا تؤثر إلا بالخير فيه، وعلى الجماد فتزيده قوّة وصلابة ليوحّد بلسان القدرة خالقه وباريه، وينتفع الإنسان بالماء .. ثم ما فاض وزاد عنه يذهب إلى الخزان الإلهي الجوفي، أو إلى الخزان البحري المحيطي ليبقى حتى يحتاجه الإنسان، فإذا رأى الإنسان ذلك نطق بقول الله ﷻ في القرآن:

﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾ (٥٠الروم).

ومثل هذا في حياة الإنسان ما لا يُعد ولا يُحصى من نعم الله جلّ في علاه .. إذا جاء هذا ومعه البرد - ولا بد منه - ركّب الخالق للإنسان في فتحة أنفه مكيفات ربانية تُسخن الهواء الذى نراه قبل دخوله إلى الرئتين حتى لايؤذى الإنسان ولا يتضرر أي إنسان، هذه المكيفات لايستطيع أحدٌ إصلاحها إلا من خلقها فسواها، وأبدعها بقدرته ﷻ.

وهكذا يا أخي المؤمن ربك ﷻ دبّر لك كل شيء، وسخر لك كل شيء، واستفق معي وقل لي وقل معي في نفسك:

لو ربَّيت في بيتك قطاً أو كلباً وغذيته باللبن وأطعمته وسقيته بالماء، كيف يكون حبُّه لك؟ وماذا يصنع لك تقديرا لحدبك عليه ورعايتك له؟! إن الفرس الذى كان يربِّيه الفارس في القديم أو الحديث كان يدخل الحرب ويُعرّض نفسه للهلاك من أجل صاحبه الذي كان يعلفه ويربيه!! حتى أن الله ﷻ ذكر ذلك فقال: ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ۝٥ ﴾ (العاديات).

كل ذلك إشارة إلى فعل الفرس مع صاحبه في ميدان القتال.

وأنت وأنا ماذا صنعت للذي خلقك وصورك وسواك ودبّر لك كل أمر:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴾ (٧٨و٧٩الشعراء)

هل فعلت شيئا لأجله؟! هل منعت لسانك من قالة السوء لأنه طلب منك ذلك؟! هل منعت عينك من النظرات المحرمة لأنه أمرك بذلك؟! هل أنفقت مما أتاك مبلغا ولو قليلا على الفقراء والمساكين لأنه حببك في ذلك؟!.

قد يقول البعض: هل يحتاج الله ﷻ منا شيئاً؟

أنا أقول: نعم!

يحتاج إلى أن نحبه لأنه قدَّم لنا ويقدم لنا الخير كل الخير، وأن نحبب خلقه فيه، وأن نحاول أن نبصرهم بتعاليمه وبشرعة وكتابه، وأن نَحُضّهم على فعل الخير الذى أمر به، وأن ننهاهم عن الشر الذى نهى عنه، وأن نأخذ بأيديهم إلى الوسائل التى ينالون بها رضاه، وأن نكون معينين لهم عن الإنتهاء عن المعاصي التي تستوجب غضبه ﷻ، إذا فعلنا ذلك وقمنا بذلك فقد نكون قد أدينا ؛ لا أقول بعض ماعلينا لله، ولا بعشر معشار ماطالبنا به الله، لأنا لو كنا طوال عمرنا نقوم بذلك ما استطعنا أن نشكر الله على نعمة واحدة من نعم الله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ (٣٤إبراهيم)

ولكننا نقول قد قمنا بما استطعنا وعملنا ما في وسعنا وامتثلنا لقوله ﷺ:

{ أَحَبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ ، .... وَأَحِبُّونِي لِحُب اللَّهِ ..... وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبي }.[182]

١٨٢ (ت ك) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهُمَا (ز).

عبادة التفكر تجعل المؤمن عابداً لله ﷻ فى كل أحواله

كيف يكون المؤمن عابداً لله، وعبادته هو فيها ذاكر وشاكر وفاكر وحاضر مع الله على الدوام؟ لايكون ذلك إلا إذا أكرمه الله بعبادة التفكر، وهى عبادة الأنبياء والمرسلين وعبادة الصالحين والأفراد المقربين، لأنه في كل لمحة يرى البصر منظراً، وفى كل منظر تراه العين على الفور، يكون معه فكرة في العقل وعبرة في القلب، وإذا تدانَ يكون معه أيضاً مشهد روحاني نوراني في الروح، وهؤلاء جميعاً سائرين مع الله في خطٍ واحد.

ونحن لماذا صرنا غير قادرين أن نصل لهذا المقام؟ لأن هذا مقام العارفين، فالعارفون كل أنفاسهم عبادة لله لماذا ؟ كلما نظروا إلى منظر، على الفور! تتحرك الفكرة ويتفكر في أمر فيه خير وفيه منفعة لنفسه وللمسلمين وللناس أجمعين .. يتفكر القلب في ماذا ؟ في عبرة وعظة، ولذلك قالوا: [**من لم يكن له من قلبه واعظ لم تنفعه المواعظ**] ما المواعظ المؤثر في الإنسان؟! من داخله، فإذا أعطاه هذه المواعظ فهي التى تؤثر وتغير من حياته وسلوكياته.

إذا كان واعظ المنابر والفضائيات فهذا للآذان قد ينال الإستحسان وقد ينصرف عنه الإنسان، ولكن الوعظ الذى يؤثر في الإنسان فهذا في دائرة القلب، وهذا يكون من الإنسان نفسه عندما ينفعل بما يراه، وأنتم تعرفون أن عبادة رسول الله ﷺكان يختلي في غار حراء، فماذا كانت عبادته؟ كان يتفكر، أليس هذا هو ماورد:

{ حُبِّب إلى رسول الله الخلوة في أول أمره، وكان يخلو في غار حراء ويتحنَّث الليالي ذوات العدد }[١٨٣]

١٨٣ تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، التحنث: التعبد على ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

ولم يكن شيءٌ قد جاءه بعد من الوحى أو التكليف، قالوا: كان يعتزل الناس ويتفكر! في أى شيء يتفكّر؟ هل في الغذاء غداً أو في العشاء أو الملبس أو أي شيء من هذا الكلام؟! ليس له شأن بذلك لأنه تركها وراءه، وفيما كان يتفكر؟ يتفكّر في مخلوقات الله تعالى والتي يراها لكى تعطيه العبرة .. سيدنا إبراهيم ارتقى إلى مشاهدة الأنوار بماذا؟ حرّك دائرة الفكر، وبعدما حرّك دائرة الفكر تحرّكت معها دائرة العبرة في القلب، وعندما تحركت دائرة العبرة في القلب، انصرف إلى الذكر، فالذكر فتح عين الروح فرأى ماقال فيه السبوح: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ ﴾ (الأنعام).

إذاً فتفكّره في الملك رفعه إلى النظر إلى أنوار الملكوت، وليس التفكّر في هذه الأشياء ولكن للنظر، فما الذي يرفع الإنسان إلى النظر في الملكوت؟ هو التفكّر فيما يراه في عالم الملك من آثار المليك ﷻ.

أنت حالياً عندما تُدعى لمشاهدة معرض إن كان لصناعة، أو متحف لفن من الفنون تقف عند المصنوعات تتعجب من إبداعها ومن والتكنولوجيا الراقية التي فيها، وتقول إن هذه الشركة التى صنعت هذا المنتج العظيم شركة عظيمة، لأن هذا يدل على الشركة .... لو ذهبت إلى متحف لأحد الرسامين أو لواحد نحات أو غيره فماذا يدل ذلك؟ أيضاً يدّل على مهارة هذا النحات أو هذا المثّال.

فكيف تصل أنت إلى محبة الله ﷻ؟ الحق .. إذا نظرت إلى آثار قدرته في نفسك وفي الآفاق: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ (٥٣فصلت) ... متى الإنسان يصل إلى هذا المقام؟

إذا طهر القلب من الدنيا والشهوات والحظوظ والأهواء، لكن إذا كان القلب مشغول بالدنيا، أين يكون الفكر؟ في الدنيا، ولن تستطيع أن تصرفه لأن ذلك هو الذي في أفق القلب.

لو كان القلب يهوى الشهوات، سيكون الفكر في كيفية الحصول على هذه الشهوات، ما يشغل القلب هو الذى يدور فيه الفكر .... أما إذا كان القلب مشغولٌ بالله وبحبيب الله وبكل شيء جاء أو يلوح من حضرة الله فيجول الفكر في الآثار للدخول منها إلى بديع إبداع صُنع الله ومدى عظيم قدرة الله ﷻ فيما يشاءه المرء في هذه الحياة.

سيدنا أبو الدرداء وكان إسمه عُويمر، والدرداء كان إبنه، كان يقول فيه ﷺ:
{ عُوَيْمِرٌ حَكِيم أُمَّتِي }[١٨٤]

حكيم الأمة، بأى شيء أخذ الحكمة؟ ذهبوا ليسألوا زوجته أم الدرداء عن عبادة أبو الدرداء، كم ركعة يصليها في الليل؟ وكم مرة يختم القرآن كل شهر؟ وكم يوماً يصوم في الأسبوع؟ فقالت لهم: لا .. لم تكن هذه عبادته، لكنه كان يجلس يتفكّر ! هذه عبادة .. وأنت أين؟!!. .. وأنت جالس تفكّر، فلا تحتاج إلى قيام ولا تحتاج إلى نهوض .. وأنت راقد أيضاً تتفكر، وأنت ملقى على ظهرك، فهى لاتحتاج إلى حركة ولا تحتاج إلى قوة، ولا تحتاج مدد، ولا تحتاج إلى أموال، ولكنها تحتاج إلى أن الإنسان يميل بقلبه بالكلية إلى الواحد المتعال .... فهنا يبدأ في عالم التفكّر إذا صفا القلب ...

ولا يصفو القلب إلا بهذا الفكر، لتعلموا علم اليقين أن الإنسان عندما يعتبر ويرى كل هذه الأمور بيد الله مع الفكر فسيتيّقن أن كل مايحدث في الكون لا يحدث إلا بإذن الله، وأن الأمور عاليها ودانيها بيد الله، وأن كل مايحدث لحكم عالية فيها رحمة وفيها شفقة وفيها عطفٌ وفيها حنان على خلق الله، ولكننا ربما لاندريها الآن وسنراها عن قريب إذا فتح علينا الله.

فماذا يصنع الإنسان؟

يسلم أمره لله جلّ في علاه، وبعد التسليم يقول: هذا الإله يجب أن ينشغل

١٨٤ أخرجه الحارث بن أبي أسامة فى مسنده عن أبي المثني الأملوكي مرسلاً – البيان والتعريف

الإنسان بذكره عن كل شيء في هذه الحياة، وفي هذه الحالة يذكر الله، ولكن كيف يكون الذكر هنا؟ ذكر حضور وليس ذكر في حالة الغياب!

هذا سيدخل في الذين وردت فى ذكرهم الآثار العديدة:

{ وربَّ تسبيحة من إنسان أفضل من ملء الأرض من عمل غيره، وكان إدريس يرفع له في اليوم مثل عمل جميع أهل الأرض؛ وأن الرجلين ليكونان في الصف وأجر ما بين صلاتهما كما بين السماء والأرض } [١٨٥]

التسبيحة الواحدة أفضل من ملء الأرض من عمل سواه، لماذا؟ لأن التسبيحة الواحدة خرجت من تجاويف القلب، فيها حضور وفيها خشوع وفيها نورانية وشفافية وفيها روحانية تجعلها تكشف كل الحجب عن القلب حتى يتهنّى القلب بالأنس مع الرب ﷻ، وكذلك من خرجت صلاته من قلب فاكر ذاكر حاضر! فشتان بينه وبين من وقف أمام مولاه بقلب غافل لاه مشغول بحظه وهواه!

لأنه يمكن أن يكون هناك حوالي ستين في المائة أو أكثر من المسلمين يذكرون الله في الصلاة وهم غائبين أليس كذلك؟ فهم يذكرون الله ويقرأون كتاب الله ويصلي أحدهم ويدعوا ويقرأ التشهد وهو نائم وهو شارد .. وبعد الصلاة يقول: أنا صليت كم ركعة؟! ثلاثة أم أربعة؟! أنا لا أتذكر، أنا ماذا قرأت في الركعة الأولى؟! لا أذكر.

هذا يا إخواني الطريق وهو طريق أهل التحقيق وليس بكثرة المدارسة في الكتب ولا بكثرة الإستماع إلى العلوم ولا بكثرة الإنشغال بالطاعات والعبادات .. لا ولكن بالإقبال على الله بكُنه الهمة والتفكر في دائرة هذه الآثار الواسعة.

معرض في هذه السماوات وفى الأرض، في كل الآفاق ومعرض فيك، ولو أنت نظرت للمعرض الذي فيك كما قالوا:

١٨٥ مجموع فتاوى ابن تيمية

{ تبصرك فيما فيك يكفيك }

فمعرضك هنا يكفيك، ولذلك دائما أقول لإخواني وأكرر النداء، يا إخواني عليكم بأولادكم حبّبُوهم في الله، كيف؟

لا تتكلموا معهم فقط ولكن وفروا لهم واعرضوا عليهم الأفلام العلمية الحديثة والتي فيها ربط بآيات الله ﷻ وبأحاديث رسول الله ﷺ، فهذه هي التي تزيد اليقين، وهي المراحل التي يسمونها الإعجاز العلمي، وهي التي ستجعل الطفل يُحب الله، وخاصة عندما يرى أن الإعجاز العلمي الذي اكتشفه هم أعداء الله.

وأنهم كيف وقفوا أمام آيات كتاب الله منصدعة نفوسهم منكسرة قلوبهم بعد أن وجدوا أن ما وصلت إليه أحدث الأبحاث العصرية مطابقاً لما قيل في سالف العصر والأوان من الآيات القرآنية، فيعرفوا أن هذا كلام الله، لكنك تقول له: أحب الله .. لماذا؟ لن تعرف كيف تتكلم، فأنت وهو تحتاجان مع بعضكما لإعجاز العلم، وإعجاز العلم والحمد لله على جميع مواقع النت من غير حساب، فهناك موقع الدكتور زغلول النجار، ومواقع الشيخ الشعراوى وغيرها التى لاحد لها ولا عدّ.

مواقع كثيرة جداً تتحدث عما في السماوات وفي الأرض وفي الحيوان وفي النبات وفي المعادن وفي كل الجهات في الإعجاز العلمي، وهذا ما نحتاجه حالياً نحن وأولادنا لكى نحب الله حتى نكون قد طبقنا الحديث الذى يقول: **{ أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي }**[١٨٦].

ونحتاجها لشيءٍ آخر، قال الله تعالى لسيدنا داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام: **{ إنك إن استنقذت هالكا من هلكته سميتك جهبذا }**، وفى رواية: **{ يا داود من ردَّ إليّ هارباً كتبته جهبذاً ومن كتبته جهبذاً لم أعذبه أبداً }**[١٨٧].

١٨٦ عَنْ ابْنِ عَبَّاس، سنن الترمذي
١٨٧ الأولى: عن شُمَيط، الزهد أحمد بن حنبل ، والثانى فى إحياء علوم الدين

وجهبذ أى عالم كبير، وهو من يحبِّب الخلق في الله، وما الذي يحِب الخلــق في الله؟ هذه النعم، فنحن مازلنا كل أحاديثنا مع بعضنا نتكلم عــن اللحيــة والــسواك والجلباب والطاقية والكلام الذى لايفيد، وهذا الكلام جدال يجعل القلوب في أفول، إن لم يكن الإنسان سيغضب من صاحبه الذي يجادله فسيأخذ منه موقفاً على الأقــلّ، وبعد ذلك يريد أن يبتعد عنه ولا يريد أن يتكلم معه، مالنا وما لهذه المواضيع؟!!

أقول لإبنى: ماذا قرأت اليوم في الإعجاز العلمي؟ وماذا رأيــت أنــا اليــوم في الإعجاز العلمي؟ ونجلس معاً؟ من لم يستطع أن يجلس إلى النت يقــرأ، ومــن لم يــستطع القراءة يرى، والأفلام موجودة فيشغلها على الفيديو في التليفزيون ... فلا توجد مــشكلة ولا معضلة في هذا الأمر.

البرامج في فضائياتنا كلها عاجزة عن هذا الأمر، لكــن الــبرامج والأفــلام موجودة ، ستتكلم مع أي إنسان ستستطيع أن تأخذ بيده وخاصة الناس الحيــارى في هذا الزمان، والذين يحتاجون إلى أن نأخذهم ونزيد الإيمان عندهم لكى ندخلــهم في دائرة مراقبة الله والتواصل مع شرع الله والإقتداء بحبيب الله ومصطفاه.

فنكون قد هذبنا نفوسهم ونحن محتاجون إلى تهذيب من حولنــا مــن النــاس لينصلح حالنا في هذا المجتمع، ماهو السبيل يا إخواني؟ هذا هو السبيل! سبيل رســول الله ﷺ، سيدنا أبو ذر ﷺ يقول:

{ تَرَكَنَا رسول اللَّه وَمَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا عِنْدَنَا مِنْهُ عِلْمٌ }[١٨٨]

فماذا كان علم رسول الله؟ هو هذه الأشياء، فكان يذكر لهم على قدر عقولهم وعلى قدر زمانهم، ونحن قد استجدَّ العصر و تغيَّر الزمان، فنضيف ما استجد اليوم!

فلو بدأت بهذا الطريق فسيشعر الناس بأن هذا الدين دين حق ودين صــدق، وكيف سيشعر؟ بأن تأتيه بالآيات القرآنية وتربطها بالأحــداث الحياتيــة العــصرية،

١٨٨ صحيح ابن حبان عن أبي ذر ﷺ

وبالتكنولوجيا العلمية الراقية، فيزيد يقينه بأن هذا دين حق، لأن هذا الكلام ليس بكلام بشر، ولكنه كلام خالق البشر والقُدَر ﷻ، فتزيد عقيدته ويزيد إيمانه (١١المجادلة):

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾

وهذا هو الطريق الذي نريد أن نوصّل أنفسنا به من أجل الناس، ومن أجل أنفسنا ومن أجل أولادنا .. بعد ذلك هو سيحب الله وهو الذى سيبحث .. يريد أن يصلي يقول لك علمني الصلاة، ولا يحتاج أن تقول له تعالى لأعلمك الصلاة، فهو الذى سيطلب، ولكن لو ذهبت لإنسان وقلت له: تعالى لأعلمك الصلاة يقول لك: هل أنا طلبت منك أن تعلمنى؟!.

لكن في البداية ماذا تفعل؟ تُحببه في الله، وتُحببه في دين الله، وتُحببه في كتاب الله، وتُحببه في رسول الله، وهو بعد ذلك هو الذى سيطلب ويقول لك: أريد أن أتعلم كذا، كيف أتوضأ؟ وكيف أصلي؟ وكيف أخشع في الصلاة؟ وهو الذي سيطلب منك هذا الأمر.

هذا هو المطلوب في هذا الأمر، ومعك مفكرة أذكّر بها نفسي وأولادي وأقول له: تعالى يا ولدي ماذا فعلت اليوم؟ يقول لك: فعلت كذا، أقول له: فكيف فعلت هذا؟ ومن الذي حرّك لك يدك؟ ومن الذي نبّه فكرك؟ ومن الذي جعل عينيك تنظر؟ وأكون معه دائماً لأنبهه للقوة الإلهية الربانية التي تُسيّره وتُسير له الأمور، وأنا كذلك، فأنا أحتاج دائماً لأذكّر نفسي بهذا الأمر.

صلينا ووقفنا بين يدى الله، من الذى ذكّرنى ونبّهنى ويسر لنا الماء الذى نتوضأ به؟! وليّن لنا الأعضاء لكى نستخدمها كما نريد؟! وليّن لنا القدمين لنسير بهما إلى بيت رب العالمين؟! وحفظ لنا السمع لنسمع؟! وحفظ لنا اللسان لننطق؟! وذكّرنا بالأذكار لننطقها في الصلاة؟! ولو قطع التيارات الكهربائية الربانية عن أى عضو من

هذه الأعضاء فماذا سنصنع؟! وماذا نفعل؟! إنتهى الأمر.

إذاً الإنسان لا بد وأن يُذَكر نفسه دائماً بهذه الأمور وينظر، ولذلك ربنا قال لنا في القرآن: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (١٠١يونس)

انظروا إلى ما في السموات والأرض:

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الروم)

المطر .. كيف يترل الماء؟! وكيف يخرج الزرع؟! وكيف ينبت؟!

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ (عبس)، ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ (الطارق)

يدعونا دائماً إلى النظر، ولكن النظر جاء معه الفكر والإعتبار، ولا يكون معه الفكر والإعتبار إلا إذا طهّر القلب من الأغيار، وإذا نظر بفكرٍ واعتبار بعد طهارة القلب من الأغيار فتفتح عين بصيرته ويرى ما في الكون من أسرار ومن أنوار، فيرى الله نور السموات والأرض، فيقول كما قال الإمام أبو العزائم ﷺ:

وإن نظرت عيني إلى أى كائنٍ تغيب المباني والمعاني سواطع

ويقول لمن يعلمهم ويدربهم:

غض عين الحسّ واشهد بالضمير تشهدن يا صبّ أنوار القدير

لاتجعل نظرك بالعلم فقط فهذه العين لاترى إلا المحسوسات، ولكن عين القلب ترى الأنوار الإلهية ظاهرة في الكائنات .... إذاً فلا بد أن تغض هذه العين عن النظر

إلى الأكوان لكى تنفتح عين قلبك التي ترى حضرة نور الرحمن الساري في الأكوان.

هذا يا إخواني طريق المقربين وطريق الأنبياء والمرسلين، وطريق الهداية للمبتدئين، وطريق تقوية الإيمان في نفوس النشأ من الأولاد والبنات والزوجات أجمعين، وهذه هى الطريقة السليمة.

أنا حتى لو جلست مع أولادي ولا أريد أن ينظروا في التليفزيون أو في النت، أحضر كتاباً على قدرهم وأقول له: تعالَ يا بنى واقرأ لنا هذا الموضوع، ماذا فيه؟ وأجلس معه أدربه لكى يتفقه ولكى يعتبر ولكى ينشغل بهذا الفكر.

ما الذى عطَّل الأمة الإسلامية في هذه القرون السالفة كلها؟ ...إنَّه التقليد!!، يقولون: آبائنا فعلوا كذا ... :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ (٢٢الزخرف)

أبي فعل كذا!! وانأ مثلي مثل أبي !!، وهى تقول: أنا مثلي مثل أمى!!!

وقفت عجلة الحياة في الآفاق الإسلامية عندنا أجمعين، والآخرون شّغلوا الفكر في الدائرة الكونية فتقدموا وسبقونا بسنين طوال لا يستطيع أحدٌ أن يحسبها، يعني إذا كانوا يقولون حالياً أن بين أوروبا وأمريكا ثلاثمائة سنة، فنحن كم بيننا وبين أوروبا؟!! وكم بيننا وبين أمريكا؟!! لماذا؟ لأننا عطلّنا دائرة الفكر، فلم يعد فينا إلهام، ولم يعد فينا إختراعات، ولم يعد فينا إبداعات، ولا يوجد إكتشافات، حتى إن وجد مكتشف في زماننا يجد أدوات التعطيل جاهزة فتعطل هذا العمل النبيل.

أين أيام الإسلام الأولى؟ فلو نظرنا في الفكر الإسلامي في عصور الإزدهاء تجد العرب المسلمين هم سادة الأمم، ففى مجال السلاح، مَن الذي اخترع الدبابة؟ المسلمين، ومن الذي اخترع االأسلحة الحديثة مثل البارود والطلقات النارية؟ المسلمين العثمانيين فهم أول جيش في التاريخ استخدم الأسلحة النارية العصرية،

لكننا نحن الذين عطَّلنا الفكر.

وفى ميدان العلم نحن الذين اخترعنا الأقلام ! واخترعنا الحبر ! واخترعنا الورق !! حتى استخدام الصابون والماء فى نظافة الجسم! كلٌّ هذا أخذته أوروبا من عندنا.

حتى أصبحت الرسالات الجامعية رسالات نقلية، وأصبح عندنا مكاتب تعمل الرسالات، أنت تريد رسالة في كذا : فهذه ثمنها خمسة عشر ألف جنيها فقط، !!! خذها وذاكرها لتستطيع أن تردّ على المناقشين فقط!!! .. دخلنا في دائرة مغلقة مظلمة !!؟؟؟؟ أوقفت الحضارة وركدّت أمور الحياة في بلادنا الإسلامية !!!؟؟؟ .. لماذا؟ لأننا عطلنا دائرة الفكر.

لو وُجد شخص يفكّر حتى في أمور الفقه في دين الله، والدين صالح في كلٍ زمان ومكان، والقرآن نازل لكل زمان ومكان، فيحاول تفسيره الآن تفسيراً عصرياً فيسألك شخص من أين أتيت به؟ هل من إبن كثير أم من الطبري أم من القرطبي؟!! إن لم يكن في هؤلاء فلا ينفع!! وتفسير القرطبي والطبري من أين جاءوا به؟ هل أتوا به من اللوح المحفوظ؟ أليس بفكر؟! وكانوا على حسب عصرهم، وكل عصر له رجال، وقد قال الله في القرآن: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ١٩ ﴾ (القيامة)

نحن الذين نبين على حسب كل عصر فكيف نضع حجر عثرة؟!!... أين؟

في الفكر الإسلامي، ولا نريد أن نطوره على حسب العصر، ولا نريد أيضاً أن نطور الفقه الإسلامي على حسب مستجدات العصر، لأننا مشينا على الفقه الذي ورد عن الأئمة الأربعة، فهذه القضايا العصرية ماذا نصنع فيها؟ والذي استجد فيها في عصرنا حالياً، ماذا نصنع في أطفال الأنابيب؟ فلم يتكلم فيها الإمام مالك ولا الشافعي ولا أبو حنيفة ولا ابن حنبل؟ لا يعرفون هذا الموضوع أصلاً!!.

ماذا نصنع في فوائد البنوك؟ فالأمور العصرية كثيرة، والأمور العصرية الفقه فيها أكثر من جملة الفقه القديم، لأن المستجدات العصرية الحياتية كثيرة جداً، فماذا

نحتاج؟ نحتاج إلى إجتهاد، وماذا يعني الإجتهاد؟ يعني فكر! لكنه مبنيٌ على القواعد الشرعية الموجودة في كتاب الله والمؤسسة على سنة رسول الله .. لكن لا بد من إعمال الفكر.

فلا بد من إعمال الفكر، حتى في دروب الحياة نحتاج إلى الفكر، وفي الوصول إلى الله نحتاج إلى الفكر، وفي التمّعُن في أسرار كتاب الله نحتاج إلى دائرة الفكر .. فلابد أن نفتح آفاق الفكر حتى نكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾ (آل عمران).

ولذا ذكر الحديث الشريف : {تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِينَ سَنَةٍ}.[١٨٩]

فبمجرّد فكره خير من عبادة عادية لمدة ستين سنة، وللأسف نحن الذين أنزل الله علينا: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ (٢٠العنكبوت).

فهل فعلنا نحن ذلك؟!

وتقدم العلم لا يأتي إلا من الفكر!

نتقدم علمياً فنفكر كيف نتقدّم؟ .... وما الوسائل التي نتقدّم بها؟ ... ونحن في أيدينا كل العلم وكل الأسلحة التى نزلت علينا في كتاب الله ﷻ.

فالعيب فينا كما قال الإمام الشافعى :

نَعِيبُ زمانَنا والعيبُ فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا
وقد نهجُو الزمان بغير جُرْمٍ ولو نطق الزمان بنا هجانا
فدُنْيانا التصنُعُ والترائيَ ونحن به نُخادع من يرانا
وليس الذئبُ يأكل لحمَ ذئبٍ ويأكل بعضُنا بعضا عِيانا

١٨٩ ورد عن ابن عباس وأبي الدرداء فى الجامع الصغير

أحاديث رسول الله في الفكر لا تُعد يكفيك قوله ﷺ: { لا عبادة كالتفكر }[١٩٠]

لاتوجد عبادة مثلها إن كانت صلاة أو صيام أو تلاوة قرآن أو ذكر .. أي عبادة نفلية لا تساوى الفكر، كم وقتها يا رسول الله؟ قال: { ساعة فكرٍ خيرٌ من عبادة سنة ليلها قيام ونهارها صيام }.[١٩١]، ولذا ورد قوله ﷺ: { بينَمَا رجلٌ مُسْتَلقٍ على فِرَاشهِ فَنَظَر إلى السماءِ والنُجومِ، فَقَال: أَشْهدُ أن لَكِ خَالِقاً، اللُهمّ اغفرْ لي، فَنَظَر اللّهُ إِليه فَغَفر لَهْ }[١٩٢]، والساعة في أحاديث رسول الله يعني اللحظة، فهذه العبادة تزيد يقينك في الله ﷻ: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ (٧٦مريم).

نحن نحتاج إلى عبادة الفكر، وهى عبادة إندثرت ونحن نريد أن نُحييها لكي ندخل في قول رسول الله ﷺ مبشراً من يحيون سنته على مرِّ الزمان والسنين:
{ مَنْ أَحْيَا سُنّتِي فَقَدْ أَحَبّنِي، وَمَنْ أَحَبّنِي كانَ مَعِي في الجَنّةِ }.[١٩٣]

ونُوجّه أولادنا عندما مثلاً يريدون أن يتنزّهوا ! فاليوم نقول لهم: هيا بنا نزور حديقة الحيوان، وهم هناك أقول لهم: انظر إلى هذا وانظر إلى هذا وانظر إلى هذا .. وأريهم عجائب قدرة الله في مخلوقات الله.

ولا مانع؛بل والواجب أيضاً عليَّ أن أتجهَّز أنا نفسى لهذه الزيارة بقراءة بعض المعلومات والطرائف عن الحيوانات! ليكون عندى زادٌ للحديث الشيِّق الممتع والمفيد، فهنا يكون قد استفاد إبنى في الحالتين، رَوَّح عن نفس ابنه، وأضاء فكره، وزاد وربى الإيمان في قلبه، وقوَّى رابطته بأبيه أيضاً.

أيضاً يتنزّه في الزرع وينظر إلى مظهر من مظاهر الطبيعة، يجد فيها مظاهر إبداع الله وقدرة الله وصنع الله الذي أتقن كل شيءٍ.

١٩٠ تهذيب الكمال عن عليّ رضي الله عنه
١٩١ أخرجه ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبي هريرة، ورواه الديلمي فى مسند الفردوس من حديث أنس
١٩٢ وأخرج أبو الشيخ والديلمي عن أبي هريرة مرفوعا
١٩٣ (السجزي) عن أنس، الفتح الكبير

هذا دائما في دائرة الفكر، نُنمّيها ونُشغّلها وخاصة كما قلت بالإعجاز العلمي في القرآن وفي سنة النبي العدنان، وهذا ما نجعله الزاد الذي نُوّصّله لأولادنا ولبناتنا ولزوجاتنا، ونُوصله للمسلمين أجمعين، ويكون هذا هو الحديث الذي على ألستنا.

أمَّا أحاديث الوضوء وإختلافهم فيها، وأحاديث الصلاة وتنوّع الأراء والإختلافات الفقهية والمشاهد فيها، فهذا لا نحتاج منه إلا إلى القليل الذى تصح به العبادات ويتعلمون به الطهارة الواجبة والمعلومات الشرعية اللازومة لهم فى هذه السن! وكلٌّ بوقته ولكل مرحلة عمرية الزيادة الشرعية اللازمة لأبنائنا لهذه المرحلة.

لكن أنظر لسيدنا رسول الله جعل حلقة الفكر أو كما نقول: البرنامج الذى وضعه لهم في الفكر في الفترة المكّية هو الأساس الذى بنيت عليه العقيدة وتخرج به الرجال .. أما العبادات.فالأمر يسير! ... مثلاً الوضوء: في أى مُدّة علمهم الوضوء؟ في دقائق معدودة، لم يعد كما نرى في المطولات التي نراها الآن والتى لا يحتاجها غير المتخصصون من أهل العلم والتدقيق! أما المسلمون فاسمعوا.. كيف علمهم ﷺ الوضوء وهو لا تصح الصلاة إلا به وهى عماد الدين! روى إبن عمر:

{ تَوَضَّأَ النَّبِيُّ ﷺ مَرَّةً مَرَّةً، وَقَالَ: هَذَا وُضُوءٌ لا يَقْبَلُ اللَّهُ الصَّلاةَ إلا بِهِ، وَتَوَضَّأَ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ، وَقَالَ: مَنْ تَوَضَّأَ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ آتَاهُ اللَّهُ أَجْرَهُ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ ثَلاثًا ثَلاثًا، وَقَالَ: هَذَا وُضُوئِي وَوُضُوءُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، وَوُضُوءُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ }.[١٩٤]

ثم أمرهم بالإنصراف ولم يقل لهم تفعل كذا أو كذا ولكن هو علَّمهم عملياً والبيان العملي ماذا استغرق؟ خمس دقائق فقط علّمهم فيها الوضوء ... لكن الوقت كله استغرقه في أى شيء؟ في الفكر !!! وقد سبقت إشارتنا لذلك!

١٩٤ أحكام القرآن ابن عربين وأخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر.

أكثر من عشر سنوات متصلة في مكة ... ماذا كانوا يفعلون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم؟ يتدبَّرون ... كيف يتفكروا وكيف يتذكروا؟ ....

ولذلك سألوا سيدنا أنس بن مالك لما كان في البصرة؛ فقالوا له: لماذا اختلف الناس عندنا الآن عن أصحاب رسول الله؟ قال لهم: تريدون أن تعرفوا السرّ؟ قالوا: نعم سأقول لكم، ومثله قال عبد الله ابن عمر، وقال سيدنا جُنْدُب ﷺ وهذا قوله: { كُنَّا غِلْمَاناً حَزَاوِرةً معَ رسولِ الله ﷺ فَيُعَلِّمُنَا الإيمانَ قبلَ القرآنِ، ثم يُعَلِّمُنا القرآنَ فازْدَدْنَا بهِ إيماناً، وإنّكُمُ اليومَ تَعَلَّمُوْنَ القرآنَ قبلَ الإيمانِ }[195].

وهذه هى القضية، يتعلمون الإيمان أولاً، فعندما يقرأون القرآن يزداد الذين آمنوا هدى، ويزدادوا هداية، ويزدادوا رعاية، ويزدادوا مراقبة لله ﷻ ... لكن تريد أن تُحفّظه القرآن فهو يحفظ من أي كتاب، فعندما يتمّعن في معاني القرآن تكون أنت قد شغلت ذهنه بكذا وكذا وتقول له: تعالَ .. النحو فى الآية كذا والبلاغة كذا والصرف كذا .. شتَّته عن القرآن وعن مُنزّل القرآن ﷻ !!

والقرآن مقصده ربط العبد بربه، وهو مقصد الدين في كل تشريعاته، هي أن يرتبط قلب العبد بربه، وأن يعمل أى عمل فيكون هذا العمل لله ويعمله كما أمر الله!

كيف ؟ بالكيفية التي كان عليها رسول الله، أليس هذا هو مقصد الدين؟ فيكون المقصد الأول هو أن يرتبط قلبه بالله ﷻ، أقول له: لماذا تحفظ القرآن؟ لأنه كلام الله، لكى أعمل بما يُحبه الله ويرضاه فيكون كله في دائرة ربط القلب بالله ﷻ: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (١٤الكهف)، وانتبهوا لهذه الآية، الربط هنا بينهم وبين من؟ بينهم وبين الله، قال فيهم الله: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ (الكهف)، لأن قلوبهم ارتبطت بالله ﷻ، وهذا هو بيت القصيد الذى كان يحرص عليها سيدنا رسول الله والصالحون من عباد

[195] سنن الكبرى للبيهقي عن جندب

الله، وهي كيف تربط قلب الولد والبنت بحضرة الله، .. وبعد ذلك لا تخشَ عليه.

لكن أنا حالياً خائف أن الولد يذهب للمكان الفلاني وماذا سيحدث له؟ لأنك لم تربط قلبه بالله، ولكن ربطته بك أنت، وإرتباطه بك بما يحتاجه فقط بالمال ولا يريد منك شيئاً غير ذلك !!!! و لذا أنت عليه خائف من نفسه ومن الناس!!

لكن نريد أن يرتبط قلبه بالله فيعلم بقلبه أن كل ما يحدث له في نفسه أو خارجه إنما هو بإرادة الله، وبحول الله وبتوفيق الله وبمعونة الله وبقدرة الله جل في علاه، فإذا ربطته بهذا الرباط فيكون هذا هو المراد.

وهذه أيضاً في المريد، فمتى يكون مريداً على طريق سديد؟

إذا ارتبط قلبه بمولاه، لكنه يأتي ويسمع ويعود فينسى، ويأتي فيسمع مرة أخرى ويعود فينسى .. قلبه مرتبط بالوظيفة، قلبه مرتبط بالكلية، بالعيال، وتشغل منه البال، ربنا يقول له:﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ (١٥التغابن)، فلا تجد منه فائدة، فهذا الكلام ليس له .. فماذا تكون الفائدة؟ وماذا سيُقدّم في طريق الله؟ الذي يرتبط قلبه بالله ويرى كل مافيه :﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾(٥٣النحل).

وطبعاً حتى أستطيع أن أربط قلوب أبنائى بالله ؛ فأنا نفسى أحتاج إلى إعداد وتجهيز كما قلت سابقاً عند زيارة حدائق الحيوان، وهنا أزيد الأمر وضوحاً فأقول :

لابد أن يكون الوالد أو الوالدة أو القائم على التربية يكون الإنسان هو نفسه مرتبط القلب بالله، حتى يستوعب ما يقوله لسواه لا يكرره لهم بلا روح!

والبداية بغرس اليقين والإيمان ... كما قلنا .. لا بد أولاً أن أجعل أولادي عندما يدركون يعترفون ويُقرّون بأن هناك مُبدع لهذا الكون وله إله واحد لا سواه .. كيف؟

آتي له بلعبة المكعبات؛ مثلاً .. التي يلعب بها وأقول له: ضع المكعبات بطريقة عشوائية بشرط أن تأتى في النهاية لتشكّل أوتكوّن قصراً عظيماً!!

هل يستطيع أن يصل إلى ذلك؟ لا .. لكي يصنع قصراً بالمكعبات فلا بد وأن يُدخل فكره وإرادته ويُصمم ويصنع القصر .. والعشوائية لن تنتج له القصر أبداً...

أقول له: أدخل على الكمبيوتر وأكتب كلمات عشوائية وأريد أن تكون هذه الكلمات في النهاية قصيدة شعرية منسَّقة وموزونة وسويَّة، هل يتم ذلك؟ مستحيل.

ارسم على الكمبيوتر بطريقة عفوية بلا تخطيط ولا تصميم ولا تركيز على أن يخرج في النهاية هذا الرسم بشيء مبهر للمشاهدين وللناظرين .. هل يستطيع؟ لا .. فكيف يكون هذا الكون مع إبداع صنعته ومع كمال حكمته ومع إنتظام كل شيء بقدرٍ محدود، وأضرب له الأمثلة:

الشمس تطلع في زمن محدود وتغرب في زمن مؤقت، وليس عندها أجازات عارضة ولا عندها أجازة سنوية، فلو أن الشمس حصلت على إجازة سنوية فماذا يكون حال الأرض؟ سنموت من شدّة البرد، فلا بد وأن تسير بحدٍ محدود وبينها وبين الأرض ٩٣ مليون ميلاً أو ١٥٠ مليون كيلومتراً .

فلو اقتربت الشمس من الأرض كيلومترات قليلة خارج مدارها لدمرت الحياة على الأرض من شدة حرارتها، ولو بعدت عن الأرض كيلومترات قليلة فوق خط سيرها لتجمَّد ما على الأرض من شدة البرودة، من الذي أمرها بذلك؟ أين عساكر المرور التي تنظم سير المركبات الفضائية والأوتوبيسات الكوكبية؟!!

هناك أوتوبيسات تسير في الفضاء، ومراكب تسير في الفضاء ويقول الله فيها: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (٣٨يس).

نحن كلنا عندنا هنا مع المرور ومع كل قوانين المرور .. حوادث لاتُعد ولا تُحصى، لكن لو حدثت حادثة واحدة مرورية في الآفاق العلوية لانتهت الدنيا بمن فيها!! .. حادثة واحدة فقط .. فلو اصطدم نجم بنجم، أو نجمٌ بكوكب ماذا يحدث؟ فكيف يسيرون؟ .. ﴿ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (يس: ٤٠).

مَن الذي ينظم هذا المرور بحيث لا تحدث حتى حادثة واحدة؟!! حتى خطأ واحد في المليار فقط !! لا يوجد خطأ .. هل هذا صدفة أو عشوائية أم لا بد من مهندس خبير وضع هذا التصوير الكبير الذى يعجز عنه العقل والفكر والإدراك والتصوير؟!!.

أتحاور مع الولد بهذه الكيفية: عندما يأكل أقول له: خذ يا حبيبي هذه البرتقالة! وأخبرني كيف عن رحلتها من البداية حتى أتت إليك؟ وضعنا البذرة في الأرض، والماء أنزله خالق السماوات والأرض، والذي تولاها بالغذاء ويُنبت النبات من الأرض هو الله ﷻ، ونحن نضع البذرة فقط، فلو مُنع منها الماء فمن أين نأتي لها بالماء؟ ولو مُنع عنها الهواء فمن أين نأتي لها بالهواء؟ مهما كانت قدراتنا التكنولوجية.

ثم بعد ذلك نفصِّص البرتقالة وكل فصّ أقول له : هذا ما يحتاجه الأحياء في فصل الشتاء من فيتامين سي، وجعل الله ﷻ لها غلافاً، فهل هناك أىّ شركة في الكون يابانية كانت أو أمريكية تستطيع أن تصنع غلافاً كهذا الغلاف؟ والشجرة تنتج أكثر من ثمرة، والماء واحد والهواء واحد وكل ثمرة لها شكلها ولها لونها ولها طعمها!.

فهل في الوجود من يستطع أن يصنع خط إنتاج فيه كل سيارة بموديل؟ أو كل تليفزيون بموديل؟ خط الإنتاج ينتج موديلاً واحداً لمدة سنة حتى يغيروه، ولكن هنا كل ثمرة لها موديل ولها طعمها ولها رائحتها .. وأفهمه على هذا المنوال.

وأسترسل معه في الظواهر الطبيعية: إذا نزل المطر أسأله كيف يأتي المطر؟ وغير ذلك .... وينبغي على كل أبّ في هذا الزمان أن يكون مع أولاده في علوم الحياة، فمثلاً في مادة العلوم سواء في الإبتدائي أو في الإعدادي وخاصة قسم الأحياء، لأننا المفترض كبلاد إسلامية أن يُضاف مع المادة العلمية الإعجاز لنلفت نظر أولادنا.

لكننا ندرس هذه العلوم بدون هذا الإعجاز .. أقول له: ماذا درست اليوم يا بني؟ يقول لي: الجهاز الهضمى مثلاً، أقول له: أنت معك جهاز هضمي، وأنا معي

جهاز هضمي يعطيني إنذار عندما أكون جائعاً .. كيف؟! وعندما تأكل .. متى يبدأ الهضم؟ بعد الأكل؟ وهل أستطيع التحكم في ذلك؟ وأين الكمبيوتر الذي يتحكم في ذلك؟ فيعطى لكل مادة من الطعام ما يناسبها من مواد الهضم! فيبدأ الهضم ولا يستطيع أن يوقفه الإنسان .. وكيف لا تشعر بهذا المصنع الجبَّار الذى يدور داخلك ولا تسمع له صوتاً ولا تحس منه تعباً! .. من يكون المشرف عليه؟ الرحمن ﷻ.

ثم بعد هضم الطعام ... مما يتناوله الإنسان أرزاً وعدساً ولحماً .. كيف يذهب هذا الطعام ليُغذّي أعضاء الإنسان؟ .. ويتحول ويذهب للعين ما يعينها على قوة النظر، وللأذن ما يعينها على قوة حاسة السمع، وللعقل على مايعينه على صفاء ودقة الفهم، ويذهب لكل عضو من أعضاء الإنسان طعامٌ يلائمه وبالقدر الذى يحتاجه!!!

أين ذلك فيما نأكله الآن؟ ولكنها قدرة الله .. وأدخل له من هذا الباب.

والجهاز التنفسي والجهاز الدوري..... وهذه كلها موجود فيها عجائب صنع الله ﷻ، ماذا درست يا بني اليوم ؟ العين .. تعال لنرى تكنولوجيا العين، كيف ترى وكيف تنظر،؟ وأنت ماذا رأيت العام الماضى في حديقة الحيوان؟ رأيت كذا وكذا .. وهذه الصور كيف أتيت بها؟ وأين مكانها؟ أين توجد وكيف تم إستدعاؤها؟ وجاءت في وقتها ولم تستعص عليك؟ ولم تشغّل ماوس ولا شيئاً آخر؟! كيف ؟!!.

وحتى الظواهر الطبيعية التي تشد الصغار والكبار ويكون لها أثر واسع في وكالات الأنباء كالخسوف والكسوف ويشاهدها العلماء ويحتفون بها ويرصدونها، نستطيع أن نجعل منها مادة خصبة لإظهار الإعجاز النبوي والإسلامي وتحبيب الأبناء في دين الله، وعميق ثقتهم بكتابهم وبنبيهم، وسأضرب لكم مثلا على ذلك، وكيف جعل النبى ﷺ من حادثة من هذه الحوادث ورشة عملية للإعجاز لم تتضح ملامحها الكاملة إلا بتطور العلم الكبير في عصرنا هذا؟.

فمثلاً وتستطيع أن تأخذ لهم تاريخاً قريباً على ظاهرة الخسوف أو الكسوف

التى تتكرر، ففي يوم الثلاثاء الماضى[١٩٦] كان حدثاً عظيماً يثبت إعجاز الإعجاز لسيد الأولين والآخرين، فقد كان الناس في بلاد الصين والهند وغيرها إذا كسفت الشمس يعتقدون بأن تنّيناً عظيماً جاء وأمسك بعين الشمس فيصرخون ويلجأون إلى الطبل ويلقون بالقذائف في السماء حتى ترجع الشمس ويظنون أهم خلصّوها بفعلتهم هذه.

وبعضهم كان يظن أن كسوف الشمس لموت رجلٍ عظيم أو لحادث عظيم يحدث في الكون واحتار في ذلك المنجمون الذين ورد فيهم الأثر: { كذب المنجِّمون ولو صدقوا }، وأول من أيقظ الناس والعلماء على حقيقة هذه المعجزة كان رسول الله ﷺ، فقد رزقه الله ﷻ بغلام بعد أن كان ولده كلهم بنات، فسمّاه إبراهيم وعاش إبراهيم فترة ثم مات، وفي اليوم الذي مات فيه دخل عليه النبى ﷺ وهو يعالج سكرات الموت، وطفرت من عينه الدموع، فقال سيدنا عبد الرحمن بن عوف ﷺ: { وأنتَ يا رسولَ اللّهِ؟ فقال يا ابنَ عَوفٍ إنها رحمةٌ. ثمّ أتبعها بأُخرى فقال ﷺ: إن العينَ تَدمعُ، والقلبَ يحزَنُ، ولا نقولُ إلاّ ما يَرضى رَبُّنا، وإنّا بفِراقِكَ يا إبراهيمُ لَمحزُونون }[١٩٧]، وخرج فوجد الناس يقولون : لقد كُسفت الشمس لموت إبراهيم، فماذا قال لهم ؟ قال كما ورد فى الحديث الشريف عنه ﷺ:

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللّهِ. وَإِنَّهُمَا لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئاً مِنْ ذلِكَ فَصَلُّوا حَتَّى تَنْجَلِيَ }[١٩٨]

هذا الحديث مع قلة كلماته فيه معجزات لا تُحد ولا تُعد نشير إلى بعضها لتعلموا قدر نبيكم الكريم وتُعظموه بالصلاة عليه وحُسن إتباعه في كل وقت وحين .. وأول هذه المعجزات :

أنه لو كان يطلب دنيا أو شهرة أو صيتاً بين الناس لفرح بذلك وأقرّ ذلك لأهم

١٩٦ حدث فى هذا اليوم كسوفا كلياً للشمس.
١٩٧ رواه موسى عن سليمانَ بنِ المغيرةِ عن ثابتٍ عن أنسٍ رضيَ اللّهُ عنهُ
١٩٨ صحيح مسلم عن جابر ﷺ

يقولون أن الشمس كُسفت لموت إبنه، لكنه لا يريد إلا وجه الله ولا يسعى إلا لرضاه، لا يعمل إلا لنشر دين الله، ولذلك ألغى كل الخرافات بشأن هذه الآية وأثبت حقيقتها فقال أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد من الناس.

المعجزة الثانية :

كان الناس إلى زمانه يعلمون ويعتقدون أن كسوف الشمس من الشمس فقط والقمر لا دخل له فيها، ولم يثبت هذه الحقيقة في علم الفلك أحدٌ إلا بعد رسول الله، فقد قال: (إنما الشمس والقمر) ليعلمنا أن الكسوف لا بد فيه من الشمس مع القمر، فإذا كان القمر بين الأرض والشمس حدث الكسوف بأنواعه وأضرابه وأشكاله، وكان هذا إعجاز في علم الفلك سُجّل لمحمد رسول الله ﷺ.

اكتشف العلماء في زماننا أن النظر إلى الشمس ساعة الكسوف يخرج منها أشعة تحت الحمراء تضُرّ شبكية العين، قد تُسبب العمى في الوقت، وقد تُسبب أضراراً للشبكية تضر بالنظر إلى الشمس، فدعاهم إذا رأوا هذه الآية أن ينصرفوا إلى الصلاة وإلى الدعاء، فأمرهم بأن يصلوا صلاة الكسوف، ويدعون الله ﷻ وينشغلون بالدعاء حتى تنجلى الآية فيحفظهم الله ﷻ من النظر إلى الشمس، ومن الآثار التي تحدث لمن ينظر إليها ببركة إعجاز النبي الذي قال فيه الله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (النجم).

ويجب علينا جماعة المسلمين أجمعين أن نتعلمّ صلاة الكسوف وصلاة الخسوف ونؤديها في حينها، ولا تشغلنا أعباء الحياة عن تأديتها، وصلاة الكسوف تؤدى وقت كسوف الشمس إما في جماعة أو فُرادى، وتكون نهاراً سراً، ويؤديها الإنسان إن كان بمفرده أو في جماعة كصلاة النهار، أما صلاة الخسوف للقمر فتكون ليلاً بمفرده أو يصليهما في جماعة، والسنة أن يكرر الصلاة يعني يزيد عن الركعتين حتى ينجلي هذا الأمر ويذهب الخسوف، وهذه سنة الإسلام التي سنّها النبى عليه ﷺ، وليس ها هنا

المجال لتفصيل شرحها وهى يسيرة.

وفي النهاية ولتعليم أبنائي وربطهم بالدين الحنيف بالأساليب الحديثة لا أنسى شيئاً هاماً أنهم ينظرون إليَّ شئت أم أبيت!

وهذه أحدى المشاكل أو الأخطاء الكبيرة التى نقع فيها ولا ندرى!

لابد أن أدخل معه في هذا المجال، على أن يكون أمري أنا الوالد أو الأم أو المعلم له أولاً نموذجاً للأخلاق القرآنية والصفات المحمدية، حتى يرى فيه الإبن والإبنة المثل الأعلى ويفاخر به ويباهي به .. يفاخر بأن أباه رجلٌ صادقٌ في الكلام لايكذب أبداً حتى في اللهو واللعب، يباهي بأن أباه رجلٌ أمين حتى في الكلام الذي يسمعه من الآخرين، ولا ينقل الحديث من أبيه أو من أخيه إلى غيره.

يباهى بأن أباه رجلٌ رقيق في الحديث، لايخرج منه إلا الكلام الذى لا يؤذي، فلايسب ولا يشتم ولا يلعن بل يتكلم برفق وأدبٍ.

فالطفل يتعلم الحوار في الكلام من؟ من أبيه! ومن أمه! .. لا يستنكف الأب أن يقول لابنه حتى يعلمه : من فضلك أعطنى كذا، لو سمحت إئت لي بكذا .. حتى يتعلم السلوك العملي لأنه ينقل، الإمام الغزالي ﷺ يقول:

{ نظر الطفل معلق بفعل أبويه قبل أذنيه، ينظر إلى مايفعلون قبل أن يستمع إلى ما يقولون }

هل فهمنا؟ نظره معلقٌ ... أى ينقل ويسجِّل ما يأخذه من أبيه وأمه!

فيريد أن يرى أباه صورة مثالية .. في الأخلاق الإيمانية وفي الإستقامة على متابعة خير البرية .... إذا سمع الآذان يترك كل مافى يده ليلبّى نداء الرحمن، فيتعود على ذلك الإبن، وتجد الإبن إذا كان صغيراً واستجاب أبوه لنداء الصلاة وقف بجانب أبيه في الصلاة، وإن لم يدرك فحواها ولا يعلم مايصنع لأنه تربى على المحاكاة، وهى

نظرية نفسية، الطفل ماذا يتعلم؟ يحاكي يعني يقلد الآخرين، فأوّل من يحاكيه الطفل الأبوين، إذاً لا بد وأن يكون أمامه صورة مثالية ولا تكون صورة مُنمقة من الظاهر وخادعة من الباطن.

لأن الطفل مع أنه طفل فإن الله عَجَّلَ أعطاه فطانة يكشف بها هذا الخداع .. ومايقع فيه كثير من الآباء والأمهات أنهم يقولون: إنه طفل صغير لا يدرك!!!!، لكن الطفل يعطيه الله مايدرك به الصدق من الخداع، ... لذلك إذا قالت له أمه مرة إذا فعلت كذا سأعطيك كذا، يقول لها: لا! .. أنت تكذبين عليَّ، يعرف ذلك بإحساس باطني داخلي يهبه له الله عَجَّلَ.

فلا بد أن يكون الأب والأم نموذجاً مثالياً ظاهراً وباطناً، لذلك النبى ﷺ أوصى الزوجين إذا حدث خلافاً بينهما أن يتفاهما في حجرتهما الخاصة بعد نوم أطفالهما، ولكن لا يجب ولا ينبغي أن يختلفا أمام الأولاد، وأن يرفعا صوتيهما بما لايجب أمام الأولاد، ولا ينطقا بألفاظ لاتليق أمام الأولاد، كيف نجد بعض الآباء ينادى على إبنه : تعالى ــ يا ابن كذا واذهب يا ابن كذا!! لماذا؟!! إنه ابنه، مثل هذا ما الذي سيتعلمه من أبيه ليخرج به إلى المجتمع؟!!.

ومن هذا الذى تسُبه؟ لماذا تسُب نفسك؟! وهل أباح الله لك ذلك؟! إياك أن تقول: أنا حرٌ في نفسي، أنت لست حُراً، أنت مطالب بأن تعمل بشرع الله عَجَّلَ، وحريتك في نطاق ما فرض الله، وقد قال الله لك: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (٨٣البقرة)، للناس أجمعين حتى للكافرين.

فلا بد أن يكون الأب والأم قدوة طيبة، ثم يأخذا الأولاد في المظاهر الطبيعية ويقفون معهم، طبعاً هذا الأمر يحتاج من الأب أن يُثقف نفسه وأن يزيد علمه في هذه الظواهر الكونية ويربطها بالإعجاز العلمى، وهذا هو الدين:

{ إِنّ اللَّهَ تَعَالَىٰ سَائِلٌ كُلّ رَاعٍ عَمّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ ذلِكَ أَمْ ضَيّعَهُ ؟ حَتّى

يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ }.[١٩٩]

وحتى لا يقول أحد أنا لم يطلب منى الله أن أرعى أحداً .. قال له الحبيب ﷺ:

{ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ }[٢٠٠]

المدرس يجب يُحضّر درسه حتى ينجح أمام طلابه، والأستاذ الجامعي يجب أن يُحضِّر محاضراته حتى ينال ثقة طلابه، والمدرس المنزلى يجب أن يحضر دروسه حتى ينجح أمام أولاده، إننا إعتقدنا أن الذي يجب أن نُحضّره هو الأموال فقط؛.. لا!... وإنما قال لنا الواحد المتعال: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (طه).

إذا كبر الإبن وأصبح يستطيع أن يدخل على النت بنفسه أكلفه: أريد بحثاً عن كذا، أريد بحثاً في كذا، حتى يجوب هذه الآفاق العلمية ويستزيد منها، وأناقشه وأجعل هذا الحوار هو أساس الحوارات بيننا حتى نتأسس على هذه الكيفية.

لكن من العجب أن نرى عندنا الآن من يُدّرس جسم الإنسان ويشرّحه ولا يعتبر، كثيرٌ من الأطباء درسوا التشريح وهى أكبر مادة للعبرة ولا يعتبروا، قال ﷺ: **{ إِنّ مُعَالَجَةَ جَسَدٍ خَاوٍ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ }**[٢٠١] ، فهذه أكبر موعظة لك لترى أعضاء الإنسان والهندسة الربانية في هذه الأجزاء! درست خصائص الأعضاء وفسيولوجيا التشريح قف لها من الناحية الإيمانية وأربطها بالآيات القرآنية تجد العجب العجاب، وهذا المجال موجود وليس أنت أول من يسلكه، لكننا نريد أن نضيف لأولادنا الإهتمام بهذا الباب حتى ننجح في تربية الأولاد بالأسلوب الذي يتماشى مع العصر والتطور العلمي والفكري هذه الأيام!

١٩٩ (ن حب) عن أَنَسٍ رضيَ اللّهُ عنهُ، جامع المسانيد والمراسيل

٢٠٠ صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما

٢٠١ عنْ أَبي ذَرّ ﷺوتمامه: { زُرِ الْقُبُورَ تَذْكُرْ بهَا الآخِرَةَ، وَاغسلِ المَوْتَى فَإِنّ مُعَالَجَةَ جَسَدٍ خَاوٍ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ ، وَصَلّ عَلَى الْجَنَائِزِ لَعَلّ ذَلِكَ أَنْ يُحْزِنَكَ، فَإِنّ الْحَزِينَ فِي ظِلِّ اللّهِ يَتَعَرّضُ كُلّ خَيْرٍ». رواه الحاكم وقال: رواته ثقات.

المحور الثامن

معاملة أهل الذمة على النسق الإسلامي

وهذا المحور هو أحد أسس الإصلاح التي يجب أن تنتبه إليها الأمة كلها !

ألا وهو هديه ﷺ في معاملة أهل الذمة، وأهل الذمة هم اليهود والنصارى الذين يعيشون في جوار وكنف المسلمين، قال فيهم ﷺ: { **أهل ذمتنا لهم مالنا وعليهم ما علينا** }[٢٠٢]، وتعالوا ننظر إلى هديه ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة ...

فقد كان فيها جماعة أو جالية كبيرة من اليهود، فذهب إليهم وعقد معاهدة بينه وبينهم، أن لهم شئونهم الخاصة بهم، وله شأنه الخاص مع المسلمين في دينه، وأن يجتمعوا سوياً في محاربة العدو الذي يهاجم المدينة، لأنهم جميعاً يشتركون في سُكناها، وعاملهم كما أمره الله لأنه كما قال في شأنه مولاه: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾** ﴾ (القلم)

فعلَّم أهله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين السلاح الذي يفتحون بـه القلـوب، ويجعلونها تستنير بنور علام الغيوب، وتدخل في دين الله أفواجاً، وهو سلاح الخلق القـويم الذي كان عليه النبي الكريم ﷺ.

فما كان من اليهود بعد ذلك ــ وهم الذين تعلمون عنهم ما تعلمون ــ إلا أنهـم جعلوه حكماً بينهم يحكم بينهم في كل أمورهم حتى في أمورهم الخاصة، فقد حكى عنهم أن يهودياً متزوجاً زنا بيهودية متزوجة ــ وهذا شأنٌ خاصٌ بهم ــ ولكنهم ذهبوا لرسـول الله ليحكم بينهم، فقال ﷺ ليهود : { **مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى؟ قَالُوا: نُسَوِّدُ وُجُوهَهُمَا وَنُحَمِّلُهُمَا، وَنُخَالِفُ بَيْنَ وُجُوهِهِمَا، وَيُطَافُ بِهِمَا. قَالَ: فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؛ فَجَاؤُوا بِهَا فَقَرَأُوهَا، حَتَّى إِذَا مَرُّوا بِآيَةِ الرَّجْمِ، وَضَعَ الْفَتَى، الَّذِي**

٢٠٢ اورده الإمام الترمذى، وفى شرح البارى لصحيح البخارى.

يَقْرَأُ، يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، وَقَرَأَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا وَرَاءَهَا. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، وَهُوَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ: مُرْهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ. فَرَفَعَهَا، فَإِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ . فَرُجِمَا.}[٢٠٣]؛ فترل قــول الله ﷻ: ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ (النساء) فكانوا يُحكّمونه في كل شئوهم!

بل إن شباهم أعجب بحضرته حتى أن شاباً يهودياً وهب نفسه لخدمتــه، وأخــذ يخدم رسول الله وهو على دينه، ومرض لشاب، فذهب النبى ﷺ لزيارته فوجــده يعــالج سكرات الموت، فقال لهﷺ:

{ أَسْلِمْ! فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فقالَ لَهُ أَبُوهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ فَأَسْلَمَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ }.[٢٠٤]

أما النصارى فقد دعاهم النبى ﷺ إلى الإسلام، وجاء وفــدٌ مــن أكــبر قاعــدةٍ للنصارى في الجزيرة العربية ــ وكان من بلدة تُسمى نجران الآن ــ وكان وفــداً كــبيراً وليس للنبى ﷺ قصوراً للضيافة ولا فنادق للترلاء، فأين يُترلهم؟

أنزلهم في مسجده المبارك! ... فقالوا: يا رسول الله أين نقيم شعائرنا؟ فأذن لهــم أن يقيموا شعائرهم وهم على نصرانيتهم في مسجده صلوات ربي وتسليماته عليه.

وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إذَا بَعَثَ جُيُوشَهُ قَالَ: { اخْرُجُوا بِسْمِ اللَّهِ تَعَالَى تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، لاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تُمَثِّلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلاَ أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ }[٢٠٥]، ... ماهذا؟

إن هذه هي الحنيفية السمحاء التي جاء بها الله لحبيبه ومصطفاه، وفيها يقول الله لنا ولمن بعدنا: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (٢٥٦البقرة).

٢٠٣ صحيح مسلم عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ
٢٠٤ صحيح البخاري عن أَنَسٍ ﷺ
٢٠٥ مسند الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما

لاتكره أحداً على دين الله لأن الدين يحتاج إلى إقتناع وإلى برهان حتى يكون ديناً حقاً لله ﷻ لا رياءاً ولا نفاقاً ولا كذباً ولا إتقاءاً ...

سار على هذا النهج أصحابه المباركين رضوان الله عليهم أجمعين:

فكانوا ﷺ يراعون لأهل الذمة حقهم ودخل أهل الذمة من اليهود والنصارى في دين الإسلام لما وجدوه من حُسن التعامل من المسلمين، والأخلاق الكريمة التي أمر بها القرآن، والتي كان عليها النبي المصطفى، والتي سار عليها من بعده من جموع المؤمنين، وتلك سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدّل.

فهذا عمر بن الخطاب ﷺ يتفقّد المدينة يوماً فيجد رجلاً كبيراً من أهل الذمة يتسوّل ويسأل الناس، فأتاه من الخلف وأمسك بكتفه وقال له: لِمَ تفعل ذلك؟ قال: الجزية والسّن ــ والجزية هى الغرامة التي كانوا يدفعونها حتى لايدخلون القوات المسلحة ولا يحاربون ويحارب عنهم المسلمون، فهذه مقابل هذه .

فأخذه عمر ﷺ إلى بيته وأعطاه من ماله، ثم دعا وزير ماليته وهو أمين بيت المال وقال: انظروا هذا وضرباؤه ــ يعنى أمثاله ــ فما أنصفناه، أكلنا شبيبته ثم تركناه في الكبر!! انظر هذا وضرباؤه فأعطهم ما يحتاجون من بيت المال وأسقط عنهم الجزية.

فبهذا أمرنا رسول الله ﷺ، فأسقط الجزية عن الصغار وعن النساء وعن الشيوخ وجعلها على البالغين القادرين على الكسب والعمل على ألا يحاربوا في جيوش المسلمين، وأن يدافع عنهم المسلمون في حروب الدين ضد أعداءهم وأعداء الدين.

وفى عهد رسول الله ﷺ لنصارى نجران ما يعلى شأن الإسلام على الدوام فى معاملته لأهل تلك الملل وحفظه ورعايته لحقوقهم، وفيها أنه وضع الجزية عن القساوسة والرهبان وأهل العبادة فى الصوامع والبيع، ومن لا يستطيعون حمل السلاح! والموضوع فى المعاهدة كبير وجليل ومن يرغب عليه بالرجوع للمطولات للإستزادة.

ولذلك روي أن أبا عبيدة بن الجراح ﷺ وكان قائد عمر بن الخطــاب في بــلاد الشام، دخل حمص فاتحاً وكتب معاهدة بينه وبين أهلها، وأعطوه الجزية ثم وصلته أخبــار بأن الروم قد جهّزوا جموعاً كبيرة لا يستطيع مقاومتها، فجمع قادة جنده والــولاة علــى بلاده وقال لهم : إنا أخذنا الجزية من أهل الذمة لحمايتهم، وجاء الروم بجنــد لا نــستطيع مقاومتها وحمايتهم، فرُدّوا إليهم الجزية، وقولوا لهم: لا نستطيع حمايتكم فخذوا جــزيتكم واحموا أنفسكم!

فلما أعطى أهل حمص الجزية قالوا: والله لو كان الروم ما ردوا شيئاً مما أخــذوه، إذهبوا نصركم الله وردّكم سالمين، فوالله لنقاتلن في جواركم حتى لايدخل إلينا الروم، مع أن الروم كانوا مثلهم نصارى!!، لأن الإنسان يحب العدل في كل زمان ومكان، والله ﷻ جاءنا بدين العدل.

وهذا عمرو بن العاص ﷺ عندما دخل مصر وجد أهلها من النصارى مضطهدين من قبل الرومان، فوجد الرومان يذبحون المسيحيين في مصر لأهم على خــلاف ملتــهم، وطاردوا الأنبا الذى يرأسهم فهرب إلى الصحراء، فلما مكنَّ الله عمرو بن العاص وفــتح مصر وفتح الإسكندرية، دعا الأنبا بنيامين من الصحراء وأصدر قــراراً أن يكــون رأســاً للنصارى في مصر، وجدد له الكنيسة التي هدمها الرومان، لأن الإسلام أمرنا أن يكــون لهم مالنا وعليهم ما علينا.

حتى أن الرسول ﷺ عندما كان يرسل من يُجبي الجزية يقول لــه صــلوات ربى وتسليماته عليه:{ أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِداً أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئاً بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ }[٢٠٦] أى أنا الذي سأخاصمه يوم القيامة، بمثــل هذا العدل دخل الناس في دين الله أفواجا ... وفي قصة ابن عمــرو بــن العــاص مــع الأنصارى وسيدنا عمر ﷺ الكثير من العظات وهاكم إياها:

٢٠٦ عن صَفْوَانَ بنَ سُلَيْم عن عِدَّةٍ مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ عن آبَائِهِمْ دِنْيَةً عَنْ رَسُولِ الله ﷺسنن أبي داوود

{ عن أَنسٍ ﷺ أَنّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ مِصْرَ أَتَىٰ عُمَرَ ابنَ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عَائِذٌ بِكَ مِنَ الظُّلْمِ، قَالَ: عُذْتَ مَعَاذاً، قَالَ: سَابَقْتُ ابنَ عَمْرٍو بنَ الْعَاصِ فَسَبَقْتُهُ، فَجَعَلَ يَضْرِبُنِي بِالسّوْطِ وَيَقُولُ: أَنَا ابنُ الأَكْرَمِينَ، فَكَتَبَ عُمَرُ إِلى عَمْرٍو يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ وَيَقْدُمُ بَابْنِهِ مَعَهُ، فَقَدِمَ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: أَيْنَ المِصْرِيُّ؟ خُذْ السّوْطَ فَاضْرِب، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِالسّوْطِ وَيَقُولُ عُمَرُ ﷺ: اضْرِبْ ابنَ الأَكْرَمِينَ ،- فضربه كثيراً- ثُمّ قَالَ عُمَرُ لِلْمِصْرِيّ: ضَعِ السّوْطَ عَلى صَلْعَةِ عَمْرٍو، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنينَ إِنّما ابْنُهُ الّذِي ضَرَبَنِي وَقَدِ اسْتَقَدْتُ مِنْهُ، فَقَالَ عُمَرُ لِعَمْرٍو ﷺ : مُذْ كَمْ تَعَبّدْتُمُ النّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أُمّهَاتُهُمْ أَحْرَاراً؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ لَمْ أَعْلَمْ وَلَمْ يَأْتِنِي }.[٢٠٧]

وأنتم بعثكم الله ﷻ يا معشر المؤمنين لتقيموا العدل الذي قامت على أساسه السماوات والأرض بين الناس أجمعين، وجعل الله ﷻ في العدل عمارة الدنيا وصلاح الدين، وجعل في الظلم خراب الدنيا وفي الظلم فساد الدين، قال ﷺ:

{ الإمَامُ الْعَادِلُ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُ }، بل أقام ﷺ الأمام العادل مقام الأنبياء فقال : { السُّنّةُ سُنّتَانِ: مِنْ نَبِيّ، وَمِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ }.[٢٠٨]

وسيدنا عليّ ﷺ وهو خليفة كان خارجاً من صلاة الفجر فوقعت منه درعه — وهذا الدرع الذي كان يلبسه في صدره ويتقىّ به ضربات السيوف والرماح والسهام وهو مصنوع من الحديد من الظهر ويُغطى بالقماش ليلبسه فوجد الدرع في الصباح مع رجل يهودي، فأخذه وذهب به إلى القاضي!!

من الذي ذهب إلى القاضي؟ رئيس الدولة!

٢٠٧ (ابن عبد الْحَكم)، جامع المسانيد والمراسيل

٢٠٨ الأول: (ش) عن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ، جامع المسانيد والمراسيل ، والثاني: » (فر) عن ابن عبّاسٍ رضيَ اللّهُ عنهُمَا

وقال: هذه درعي، فقال القاضي: هل معك شاهد يا أمير المؤمنين؟ قال: إبني الحسن، قال: الإبن لا يجوز أن يشهد لأبيه، قال: خادمي فلان، قال القاضي: الخادم لا يجوز أن يشهد لمخدومه، هل معك: شاهد؟ قال: لا .. قال: الدرع درعك يا يهوديّ، فاليهودي تعجّب وقال: هذا هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض.

وأضاف: قاضي أمير المؤمنين يحكم على أمير المؤمنين!! إنه العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض، الدرع درعك يا أمير المؤمنين، فقد سقطت منك وأنت خارج من المسجد، وتشهّد بالشهادتين . لماذا نطق بالشهادتين؟..... بسبب العدالة، ... فقال الإمام على ﷺ وأرضاه : مادمت قد أسلمت فالدرع هدية لك.

وكان هدف قادة المسلمين عندما رأوا الحكام في كل مكان ظالمين، والناس كانوا مساكين، فأرادوا أن يحرروهم من ظلم الحكام المستبدين، ولم يكن هدفهم أن يأخذوا الأرض ليأخذوا ريعها أو يأخذوا خراجها .. لا لم يكن هذا هدفهم ولا هذه بغيتهم، وإنما بغيتهم كما قلت هو تحرير المستضعفين والمساكين من جور هؤلاء الحكام.

ولم يرغموا أى واحد في أي بلدٍ يدخلوها على الدخول في الإسلام، ولكنهم يتركوهم على ما هم عليه، والناس بعد ذلك دخلوا في دين الله بمحض إرادتهم.

ولذلك لم تتغير أى بلدة من بلاد المسلمين التي دخلوها، فنحن في مصر لنا دَينٌ على المسيحيين الموجودين عندنا من الأرثوذكس، ويدينون لنا بأننا لنا أفضال عليهم، لأن الرومان كانوا يحكمون مصر، وكانوا كاثوليك، وكانوا يذبحون فيهم وطردوهم في الصحارى، من الذي أنقذهم وأعادهم من الصحارى وأبقاهم في مصر؟

المسلمون .. سألهم عمرو بن العاص : من هو الأنبا أى كبيرهم فى الدين؟ قالوا: بنيامين وهو هارب في الصحراء، قال لهم ادعوه، وأصدر له قراراً، ومن وقتها يصدر للبابا قراراً بتعيينه من رئيس الجمهورية، والذي فعل ذلك عمرو بن العاص، وهم يختارون

مايشاءون ولكن لا بد وأن يصدر له قراراً من رئيس الدولة.

قالوا : الكنائس هُدمت، فجددها لهم مرة ثانية، ألم يكن يستطيع أن يلغي هذه الكنائس؟! ولكنه لايريد أن يدخل الإسلام مسلمٌ بظاهره وكافرٌ بباطنه، فهذا لاينفع المسلمين ولا حاجة للمسلمين إليه: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩ ﴾ (يونس) ... الذي يدخل، يدخل عن إقتناع .. وإلا كن كما أنت، حتى ولو كنت تعبد أصناماً فكن مع أصنامك كما أنت، ونحن لنا معاملة ولنا ديننا ولنا أحوالنا.

- ألم يكن عمرو بن العاص يستطيع أن يهدم كل هذه الكنائس؟
- ألم يكن يستطيع عمرو بن العاص أن يقضي على ماتركه قدماء المصريين إن كانت آثاراً أو أهراماً أو غيره؟!

فتركها مع أن بقاءها علامة على الظلم .. حتى يعلم الناس العدالة التي أتى بها المسلمون، وحرّروهم من ظلم الحكام الذين كانوا قبل ذلك، فكيف يدخل الناس في دين الله؟ بالمعاملة الطيبة الكريمة ... الحبيب ﷺ وهو يعلم بعلم الله :﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ (١١٣النساء)، يعلم أن أهل مصر من غير المسلمين الآن أقرب الناس إلى دخول الإسلام، يعني عندهم الأهلية والإستعداد، فقال:

{ اسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْراً، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً }[٢٠٩]

لماذا ؟ لأنهم قريبون منكم، قال الله ﷻ فيهم:

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ (٨٢المائدة).

٢٠٩ رواه ابن سعد عن أُبيّ بن كعب فى جامع المسانيد

فهم أقرب الناس إليكم، هؤلاء لو أن أهل مصر مشوا على منهج الإيمان فيما بينهم فقط مابقى في مصر كلها واحداً على ملته إلا ودخل في الإسلام.

لكنهم يرونا نأكل في بعضنا، فلماذا يدخلون في الإسلام؟ فهم مع بعضهم أكثر تعاوناً وأكثر ترابطاً منا، فلماذا يدخلون في ديننا؟!! لكن لو أن المسلمين على المنهج القرآني فمن منهم سَيتخلّف عن الإسلام؟! لا يوجد، وإننا لاحظناهم وقد غلبت عليهم ــ بالرغم من تشدد بعض أبناء المسلمين ــ عادات المسلمين، فتجد بعضهم يقول لك: السلام عليكم ــ ولا تقول أنه يقول : السام عليكم كما يقول البعض ــ فهو لا يقصد ذلك لأنه قد تعوّد على ذلك.

أنا ذهبت إلى بلدة في محافظة المنيا وموجودة لوقتنا هذا واسمها " داقوف " فوجدت رجلاً مُمَرضاً مسلماً يجري ختان البنات المسلمات والمسيحيات معاً ــــ وهذا الكلام كان منذ خمس عشرة سنة !

ذلك لأنهم يعيشون مع المسلمين ووجدوهم يفعلوا ذلك ففعلوا مثلهم، وجدوا أن المسلون يصنعون الموالد فصنعوا مثلهم .. .. جعل المسلمون أضرحة فجعلوا أضرحه مثلهم، فهي نفس الحكاية، يحاولوا تقليدنا دائماً.

فلو أننا منضبطون لدخلوا في دين الله ﷻ، نصنع الكعك، فصنعوا الكعك مثلنا، ومن الذي بدأ صناعة الكعك؟ هم الفاطميون .. فصنعوا في عيدهم الكعك أسوةً بالمسلمين، حتى أن بعضهم عمل عظات في موتاهم كما يفعل المسلمون، وبعضهم ــ كما سمعت هنا في القاهرة ــ لم يجد من يعظ منهم فوضعوا شريط قرآن فى المسجل –.. فهم يقلدون المسلمين ولكن المشكلة في أنهم وجدوا المسلمين بعيدين عن الدين.

وانتماؤهم لدينهم إفادة لنا، لأنهم يتعاونون معا ويساعدون بعضهم ويقفون بجانب بعض، هل رأيت في أىّ جانب من جوانب الطرقات مسيحي يمدّ يده للتسوّل؟ لا! لماذا؟ لأنهم متولين أمور فقرائهم! البطالة الموجودة في مصر، هل موجودة في المسيحيين أم في

المسلمين؟ في صفوف المسلمين فقط لأهم ليس عندهم بطالة فيعينوهم في شركاهم .. فما الذي يجعلهم يسوّفون دخولهم في الإسلام؟ عدم وجود المنفعة، لأنه بماذا ينتفع؟!

فعندما يجد المسلمين متعاونين معاً ومتآلفين معاً ومتكاتفين معاً وسائرين على المنهاج القويم فسيدخلون في دين الله ﷻ، لكن هم ــ الذين هم بيننا ــ مؤهلين، لكن إذا بارزناهم بالحرب؟ لا .. نجدهم أحياناً يقلدون جنوب السودان، فيريدون أن يكونوا دولة منفصلة، فمن منهم سيدخل في الدين بعدها؟ من الذي صدّهم عن دين الله؟ نحن! إبقِ للصُلح بقية واجعل بينك وبينه معاملة لتقربه إلى دين الله.

وهذا هو الأساس الذي وضعه سلفنا الصالح ﷺ مطبقين منهج حبيب الله ﷺ، سيدنا رسول الله عندما ضاقت الجزيرة العربية على أصحابه فبماذا أشار عليهم؟ وأين يذهبون؟ إلى الحبشة، وماذا كانت تتبع الحبشة؟ ألم يكن دينهم المسيحية؟ فقال لهم:

(اخرجوا إلى جهة أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد؛ وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه }.[٢١٠]

فذهبوا إلى هناك، ورأى النجاشي حال المسلمين، وأرسل أهل مكة عمرو بن العاص ومعه وفدٌ ليُسلمّهم النجاشي المسلمين، ومعهم هدايا للنجاشي، فقدموا له الهدايا وقالوا له: هؤلاء صفاهم كذا وكذا، فقال النجاشي: أسمع منهم.

فأرسل النجاشي لجعفر بن أبي طالب ﷺ وقال له: ماذا معكم؟ قال:

{ أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ... إلى أن قال فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا .. } ..والخطبة طويلة ومعروفة.

فسأله النجاشي: هل معكم شيئاً من كتاب الله؟ قال: نعم ــ وانظروا إلى دعاة

٢١٠ السيرة الحلبية، والتحرير والتنوير، والبداية والنهاية.

رسول الله يختارون من الآيات التي تعجب الملك، فتلى الآيات التي تتكلم عن سيدنا عيسى والسيدة مريم، لأنه كان حكيماً، ولم يقرأ أى آيات أخرى وانتهى الأمر، لا إنما كان حكيماً .. فلم يقرأ الآيات التى فيها تنفير وتكفير مثل: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (١٧المائدة)، ولا: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ (٧٣المائدة).

ولكنهم طالما هم أهل كتاب فقد قرأ ما يناسبهم، وكان يقرأ والمترجم يترجم له، فقال لهم النجاشي: إن هذا والله هو والذي جاء به عيسى ليخُرج من مشكاة واحدة، أخرجوا وأنتم سيوم، أى في أمان في بلدي، وردّ على عمرو والوفد الذي معه هداياهم وقال لهم: عودوا إلى بلادكم، وهؤلاء في أماني.

بعد فترة هدى الله الملك للإسلام على يد سيدنا جعفر، وأرسل إبنه ومعه وفدٌ لرسول الله ليعلمه الدين، ولذلك عندما مات، قال رسول الله ﷺ:

{ إِنَّ أَخاً لَكُمْ قَدْ مَاتَ فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَيْهِ }.[211]

وصلى عليه صلاة الجنازة وهو في المدينة والنجاشي في الحبشة.

كيف دخل النجاشي في الإسلام؟ هل دخل بالحرب؟!! فلو فعلوا كما يفعلٍ البعض الآن يدخلون البلاد ويعملون عصابة، وهذا يفجر قنبلة هنا وهذا يصنع تفجيراً هناك .. فهل كان النجاشي سيدخل في دين الله؟!! لا .. لكنهم استخدموا الوسيلة الإسلامية التي علمها لنا سيدنا رسول الله ﷺ.

وكان يقول لهم لاتدخلوا بلداً إلا بعد إعلان أهلها: واسمعوا لتلك القضية الفريدة في تاريخ الحروب أن قاضياً مسلماً حكم على أعظم قائد في عهد عمر بن عبد العزيز على الرغم من أنه قريبٌ له، القائد كان إسمه قتيبة بن مسلم الباهلي من قُوّاد الفتوح، أرسل لأهل سمرقند وهى في روسيا الآن ــ وقال لهم: إما الإسلام وإما الجزية، ولم ينتظر

٢١١ صحيح مسلم عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ

الردّ ودخل البلدة، وكان أهل البلدة قد سمعوا عن الإسلام فأرسلوا للخليفة عمر بن عبد العزيز وقالوا: إن قائدك قد دخل علينا بدون شروط المسلمين، فأحال الموضوع إلى قاضي المسلمين، والقاضى قضى بأن يخرج الجند من البلدة وأن يتركوها لأهلها لأنهم دخلوا بغير الشروط الإسلامية!!.

وبعد أن خرج الجند دخل الناس جميعاً في دين الله أفواجاً!!

من الذي أدخلهم؟ العدالة الإسلامية، لكن لو أن المسلمين مثل الروس أو مثل الروم أو مثل هؤلاء الهمج فلن ينفع ذلك، لكن ما الذي يُدخل الناس في الدين؟

هي العدالة والمساواة ومراعاة الحقوق التي يراها غير المسلمين، وها أنت ترى أن أى مسيحي يحدث له حادث يذهب للمدينة، وهل يذهب للمدينة إلا إذا عرف أنه هناك سيحصل على حقه ؟!

كان عمرو بن العاص يريد أن يوسع مسجداً، وأراد أن يضم قطعة أرض ليهودية، فقالت: لا .. ففعل كما تفعل الدولة الآن، أخذ الأرض وأعطى اليهودية تعويضاً، فأرسلت لعمر بن الخطاب في المدينة ولم تذهب بنفسها، فقال له عمر: اهدم الجزء الذى بنيته في أرضها، وأعد لها أرضها فإن مسجد المسلمين لا يجوز أن يُبنى في أرض مغتصبة، كيف تأخذ الأرض بالإغتصاب؟!! لا يجوز هذا في الإسلام، وليست الأرض فقط بل لو أن في المسجد جزءاً مغتصباً ولو صغيراً فلا يجوز.

فعندما كانت المدينة المنورة والجزيرة العربية تابعة لمصر وجدَّد السلطان قايتباي سلطان مصر آنذاك المسجد النبوي، فبعد أن جدَّده؛ نزلت صاعقة من السماء فحطَّمت السقف بأكمله، فأيقن السلطان ومعه الناس أن هناك شيئاً غير صحيح!

وكان السلطان قد أمر من قاموا بعمارة المسجد أن يسجِّلوا كل شيء ولو كان قليلاً، فأرسل لجنة من مصر لمراجعة الأوراق فوجدوا أن هناك لوحاً من الخشب أُخذ غصباً ووُضع في سقف المسجد!، فعلموا أن الله ﷻ لم يرضَ بهذا العمل لأن فيه لوحاً

واحداً مخالفاً .. ماهذا؟!! إنه الإسلام! .. وهكذا يكون الإسلام.

ولو رأى الناس ذلك لدخلوا في دين الله ﷻ أفواجاً.. وهذه هي المعاملات التي أسسها رسول الله، ومشى عليها الخلفاء الراشدون، ومشى عليها السلف الصالح إلى يوم الدين، بالمعاملات الإسلامية التي تُدخل الناس في دين الله أفواجاً.

ولا تنسوا أن النصارى في بلدنا يتوارثون فيما بينهم على شرعة ديننا، لأن الديانة المسيحية ليس فيها تشريع بل فيها عبادات فقط فكيف يتوارثون؟ يمشون على الشريعة الإسلامية، ولذلك يأتون لسؤالنا في الميراث، فالتشريعات في الدول الأوروبية كل دولة على حسب أحوالها الشخصية، لكن هم هنا وافقوا وارتضوا ومستريحين للشريعة الإسلامية، فلماذا ننفرهم؟! فهذه خطوة هامة.

أحد محاميهم وهو مكرم عبيد وكان ضمن المشاركين فى ثورة ١٩١٩ كان يحفظ القرآن، وكان يترافع به في المحاكم، وكان المسلمون والمسيحيون على قلب رجلٍ واحدٍ في الثورة، وكانت أيديهم معاً، لماذا نسمح للطابور الخامس أن يدخل بيننا ونعاديهم فيصيروا أعدائنا؟ لماذا نفعل ذلك؟! نحن نريد أن نؤَمن جبهتنا الداخلية، بضمِّهم لنا، فنعطيهم جمال الإسلام وجمال المعاملة الإسلامية فيدخلون في دين الله ﷻ أفواجاً.

لك جارٌ مسيحى في العمل وأنت تغلق الطريق فيما بينك وبينه ولا تكلِّمه ولا يكلِّمك، فلماذا يعرف الإسلام؟

والصحيح هو أن تبدأ تتكلم معه، وتتواصل معه في الحديث وتهنِّئه بأعياده، وتبدأ في مساعدته في حياته الإجتماعية وتعطيه المشورة، وبعد ذلك المحبَّة وهي التي تدخل الناس في دين الله أفواجاً .. فهل سيدخل الناس في الدين إلا بذلك؟

فهل دخلنا في الدين الإسلامي بالخنجر أو بالسيف؟ لا .. لأنه لم يدخل أحدٌ بالسيف ولكنه دخل بفتح القلوب لا بفتح البلاد و المدن أو غيرها.

الباب الرابع

الإصلاح المالي للمجتمع في الإسلام

الفصل الأول

الإقتصاد أو المال في الإسلام

- **اهتمام الإسلام بالمال**
- **التجربة الإقتصادية الإسلامية**
- **النظرية المالية الإسلامية**
- **طريق الكسب في الإسلام**
- **مجالات العمل المباح في الإسلام**
- **الاستثمار الزراعي في الإسلام**
- **طريق الإستثمار في الزراعة**
- **الإستثمار الصناعي في الإسلام**
- **ضمانات الصناعة الإسلامية**
- **استثمار المال في التجارة في الإسلام**
- **منع الغشّ**

- الإعلان الإسلامي عن السلع
- النهى عن الإحتكار
- ما لا يباح الإتجار فيه
- استثمار المال مع الغير

الفصل الثاني

التَّكَامُلُ بَيْنَ الزَّكَاةِ والضَّرَائِبِ

- ميزانية الدولة الإسلامية الأولى
- أسباب فرض الضرائب
- الضوابط الشرعية لفرض الضرائب
- دور الزكاة في حلِّ مشاكل المجتمع
- توصيات وإقتراحات

الفصل الأول

الإقتصاد أو المال في الإسلام

مِلْكِيَّةُ المَالِ فِي الإِسْلامِ

الإسلام يجعل المال عصب الحياة، وربما أشاع البعض أن الدين الإسلامي يدعو إلى السلبية والإنعزالية، والتواكل والتراخي، وأشاع أعداء الإسلام هذا المفهوم بيننا وفي دول الغرب، حتى أصبح سمة في وسائل إعلامهم، فَمُسْلِمٌ يعني: متكاسل وغير منتج ومتراخي. وأحياناً كلمةُ مُسْلِمٍ – عندهم – تعني: متسوِّل!! ويُصَوِّرُون المتسوِّلين عندنا وينشرونهم في صحفهم .. ويقولون: هذا هو الإسلام!!.

بينما الإسلام دينٌ يهتم بالحياة في دقائقها وكل صغائرها، فما من شأن في حياة الإنسان فى كلِّ حياته إلاَّ وقَنَّنَهُ الله ﷻ ووضع له الضوابط القرآنية.

اهْتِمَامُ الإِسْلامِ بِالمَالِ

والدليل على اهتمام الإسلام بالمال واستثماره، أن الرسول ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة، وكان اليهود يسكنون بها، واليهود كما تعلمون قومٌ يقول فيهم الله ﷻ: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ (٩٦البقرة)

فَهُمْ أَمْهَرُ من يستثمر الأموال ويقتنصها بأساليب يعرفونها جيدًا، فوجد ﷺ أن المال في المدينة مركَّزٌ في أيدي اليهود، والتجارة الرئيسية في المدينة تجارة الذهب وتجارة السلاح، ولا يوجد فيها تاجر واحد غير يهودي،

بل وجد السوق الذي تجلب له البضائع من خارج المدينة – من اليمن، وفارس، والشام – والبيع فيه لأهل المدينة قائم على اليهود:

- فهم الذين يجلبون البضائع – يعني يستوردونها بلغة العصر– أي يحضرونها إلى المدينة .
- وهم الذين يقومون ببيعها، وكوسيلتهم – التي يسيطرون بها على الشعوب – مَنْ ليس معه الثمن نقداً، يعطونه بالأجل، حتى يتحكمون في مصيره، ويكون تحت سيطرتهم وهيمنتهم.

فأول قرار اتخذه الرسول ﷺ في المدينة[٢١٢] – بعد بناء المسجد – وكان أول قرار صدر من الحضرة المحمدية بناء المسجد .. أما القرار الثاني: فبناء سوق للمسلمين، فأمر أن يكون هناك سوقٌ مخصوصٌ، واستغل في ذلك مهارة المهاجرين –وهم أهل مكة – في التجارة، في البيع والشراء، واستغل هذه الخبرة في صفوف المسلمين، وأمرهم بأن يتاجروا، فكان هذا السوق أول عَمَلٍ عمله ﷺ ليخلِّص المدينة من سيطرة اليهود، ثم يخلصها نهائيًا من اليهود.

بدأ معهم بالتدرج، فاستولوا على التجارة، وأصبح المؤمنون يتاجرون ويذهبون إلى بلاد الشام، وإلى بلاد اليمن، وإلى بلاد فارس، ويحضرون البضائع ويبيعونها بالأسس والتشريعات والقوانين الإسلامية، مما أدَّى إلى كساد الحياة التجارية عند اليهود، لأن القوانين والتشريعات الإسلامية في البيع والشراء تسهل للإنسان، ولا تضع غِلَّ الرِّبَا في عنقه، وتجعل المرء دائماً وأبداً يرتاح لهذا التعامل الطيب.

من هذا جعل نبيُّنا ﷺ المال عَصَبَ الحياة، وجعل له في الإسلام نظريةً اقتصاديةً إسلامية، كاملة الملامح، كلها من كتاب الله ومن سنة رسول الله

٢١٢ لمزيد التفصيل فى التنظيم المالى والإدارى بمجتمع المدينة الأول؛ إقرأ كتابنا {كونوا قرآنا يمشى بين الناس }: الباب الخامس والسادس: كونوا قرآنا يمشى بين الناس لعمارة الدنيا، كونوا قرآنا يمشى بين الناس فى إقتصادكم، ١٦٥–٢٤٣.

ﷺ، فالقوانين الأصلية في القرآن، والشروح والحواشي والمذكرة التفسيرية في سنَّةِ النبي العدنان ﷺ، والتفصيل على حسب كل زمان من العلماء المجتهدين الفقهاء في الإسلام.

التَّجْرُبَةُ الاقْتِصَادِيَّةُ الإِسْلامِيَّةُ

قد يقول البعض: لَمْ نَرَ، ولَمْ نَسْمَعْ عن التجربة الاقتصادية الإسلامية –فى غير مجتمع المدينة الأول– وعن مدى نجاحها، حتى نطبقها في حياتنا! أقول: لن أعطي أمثلة متعددة حتى يطول المقال، ولكن أعطي مثالاً واحداً:

أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز تولى الحكم لمدة سنتين وستة أشهر – يعني لم يكمل خطة خمسية كما نقول اليوم – ونفَّذ القوانين والتعاليم والتشريعات الإسلامية، ماذا كانت النتيجة:

فاض المال!! ...

حتى أن وزير المالية – وكان يسمى في عصره خازن بيت المال – شكى له من ضيق بيت المال من كثرة ما فيه من سيولة، ومن كثرة الأموال، فأحضر المخططين والمشرِّعين وسألهم: ماذا نصنع بهذا المال؟ ففكروا في المشاكل التي يعاني منها المجتمع، ليحلوها مشكلةً تلو المشكلة.

أول مشكلة واجهتهم مشكلة الأمِّيَّة .. إن أغلب طبقات الشعب لا تستطيع القراءة والكتابة، وهي القضية التي نريد أن ننتهي منها الآن في القرن العشرين – ولم ننجح بعد – وقد انتهى منها في سنة واحدة!! حيث عيَّن كُتاباً في كل دور العبادة، وأعطاهم الألواح – وكانت الكتابة على الألواح – والمواد التي يكتبون بها، وجعل أجرهم وطلباتهم كلها من بيت المال،

ولذلك أحصى رجال التاريخ، أن العصر الوحيد الذي قُضِيَ فيه على أمِّيَّة النساء والرجال، هو عصر الخليفة عمر بن عبد العزيز.

وبعد أن انتهى من مشكلة الأميَّة، وجد فائضاً وسيولة في بيت المال، ماذا يصنع بها؟

أَصْلَحَ الطرق ومهَّدها، وجعل على كل مرحلة من الطريق بيتاً – سماه بيتُ الضِّيافة – لأن السفر كان برًّا، وعلى ظهور الجمال أو الخيل أو ما شابه ذلك، فكان يستغرق وقتاً طويلاً بين البلدان المتنوعة، فجعل على كل مرحلة من الطريق – قدَّرها العلماء بما يوازي خمسين كيلو متراً في عصرنا، لأنهم كانوا يستخدمون الميل، والميل تقريبا اثنين كيلو إلا ربع – بيتاً للضيافة، جهَّزه وجعل فيه أماكن للنوم، ومطبخاً يُطهى فيه الطعام، وطاهياً يطهي الطعام، والنفقة كلها على بيت مال المسلمين!!.

فإذا تعب المسافر يدخل إلى بيت الضيافة، فيجد الطعام مجاناً، ويجد مكان الراحة جاهزاً، ومن العجب أنه جعل هناك علفاً للدواب!! فيجد العلف جاهزاً أيضاً على نفقة بيت مال المسلمين.

وبعد ذلك وجد فائضاً وسيولة في بيت المال، ماذا يصنع؟

أمر ولاته وحكام الأقاليم أن يزوِّجُوا شباب المسلمين على نفقة بيت المال، فالشَّابُ ما عليه إلاَّ أن يختار الفتاة التي تروقه، ثم يبدي رغبته للوالي أنه يريد الزواج من فلانة، ويقوم بيت المال بتجهيز بيت الزوجية – بحسب ما يحتاج إليه في عصره – ولا يدفع الشَّابُ – آجلاً أو عاجلاً – شيئاً في ذلك!! فاستطاع في هذا الزمن القصير أن يَحِلَّ كل مشاكل الدولة، لأنه اتبع النظرية الإسلامية السليمة في كل عصر.

النَّظَرِيَّةُ المَالِيَّةُ الإِسْلامِيَّةُ

هذه النظرية الإسلامية تقوم على عِدَّةِ أُسُسٍ قرآنية، تنقسم إلى شقين: اكتساب المال وإنفاقه، فالإسلام أباح اكتساب المال، ولكنه رشَّده، وأباح استثمار المال في أي مجال على أن يطابق شرع الله ﷻ، والنصوص التي تتكلم عن هذا الأمر كثيرة وكثيرة أولها قول الله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ (٢٦٧البقرة).

إذاً لا بد أن يكون الكسب من طريق طيِّب، والطرق الطيِّبة للكسب التي بينها الإسلام – وأسوقها على عجالة سريعة.

طُرُقُ الكَسْبِ فِي الإِسْلام

١- العَمَلُ

فالإسلام دين العمل، ووضع الإسلام ضابطاً لا يصلح العمل في أي زمان أو مكان بغيره، وهو قوله عزَّ شأنه: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١٠٥التوبة).

إذا وجدت هذه الرقابة – الذاتيَّة الداخلية – صلحت جميع الأعمال، وإذا فقدت هذه الرقابة – الذاتية الإيمانية – لا نستطيع أن ننجح في أي عمل مهما شرَّعنا من تشريعات، ومهما برعنا في التوصيات والتوجيهات، ومهما شدَّدنا في أجهزة الرقابة على مختلف الجهات.

إن لم يكن الرقيب على المرء إيمانُه وربُّه ﷻ، فإنه يستطيع أن يتحايل على كلِّ أمر، وأنتم ترون جميعا أن الدولة تشرع ولكن عندنا خبراء

متخصصين في تفصيل القوانين على حسب ما يريدون، إذاً لا يضبط العمل إلا الرقابة الداخلية لله ﷿، بأن يكون العمل لله.

هذا الكسب راعى فيه الإسلام عدَّة أمور:

أولا: جعل المالَ والخيرات كلَّها مِلْكاً لله: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (٧الحديد)، فهذا أمر طبيعي أن الإنسان يموت ويترك المال، ومعنى أن المال لله: أي أن هذا المال وسيلة وليست غاية، وهذا أساس من أسس النظرية الإسلامية، فالمال وسيلة لحصول المرء على ما يريده في الدنيا، ولاكتساب السعادة التي يرجوها في الدار الآخرة، فإذا كان المال وسيلة – وليس غاية كما يفعل الآخرون – فإن هذا يجعل المؤمن يراقب في جمعه وفي إنفاقه شرع الله وسنة رسوله ﷺ.

والإسلام كذلك جعل المجتمع وحدةً واحدة، وكل فرد في الجماعة يسعى لراحتها ومنفعتها وإصلاحها، فبدَّد مبدأ الأنانية، ومبدأ الأثرة، ومبدأ الشح والبخل، لأنه جعل المجتمع كله وحدةً واحدة.

ومن هنا كان الذي يجمع المال، أو يقوم بالكسب، لا بد أن يراعي المجتمع، فلا يكسب شيئاً يتنافى عمله مع تقاليد المجتمع، ولا يستثمر ماله في شئ يتحقق أن فيه ضرٌّ للمجتمع، وأن يسعى لخير هذا المجتمع، فيراعي أن يكون استثماره مطابقاً لعادات وأعراف وتقاليد وشرع المجتمع الذي يعيش فيه، حتى يكون إنساناً نافعاً لنفسه ووطنه ومجتمعه وبني جنسه.

أوجب الإسلام بعد ذلك على المؤمن الذي يكسب المال أموراً إسلامية في تحصيله، وأموراً إسلامية في استثماره، لكي يحصّل المال بيَّن له السُّبُلَ، فالعمل أولها، ثم بعد ذلك عليه استثمار المال في الجهات التي سنحددها فيما بعد.

٢ – المِيرَاثُ

الطريقة الثانية لكسب المال من طريق حلال الميراث:

فالمال الذي يأتي عن طريق الميراث مالٌ أحلَّه الله، على أن يكون الميراث مطابقاً لكتاب الله وشرع الله.

وفى الحقيقة إنَّ نظام الميراث الإسلامي خيرُ ضامن يحفظ التوازن المالي الاجتماعي، فالقانون الإنجليزي مثلاً يجعل التركة كلَّها للإبن الأكبر – حتى لا تتفتت الثروة – فيظلُّ الغنيُّ غنيًّا والفقير فقيراً، لكن النظام الإسلامي يجعل الكُلَّ يشترك في هذا الميراث، فيجعل المال دائماً في حالة توازن بين طبقات المجتمع، صحيح أنه يحصله بغير حدٍّ أقصى، لكنه لا يستطيع أن يوزعِّه – حتى صاحبه – إلا في حدود.

وكلُّ ما يثار عن أن نظام المواريث فى الإسلام هضم المرأة حقها كلامٌ لايثبت له حجة، والحقيقة أن كثيراً من المجتمعات المالية الغير إسلامية فى العالم درسوا نظام الإسلام للتوريث وحاولوا الإقتراب منه كثيرا فى تطبيقه، ولم يمنعهم من الإقتداء به إلا قوة الساسة وموقف رجال الدين من عداء الإسلام.

٣ – الوَصِيَّةُ

والوصية هي الطريقة الثالثة لكسب المال في الإسلام: إنَّ الإسلام قد أعطى صاحب المال الحقَّ في أن يُوصي بجزءٍ من ماله، ولكن بشروط حفظاً للحقوق: الشرط الأول ألا يزيد فى وصيته عن الثلث، والشرط الثاني: أن تكون الوصية بنيَّةٍ فيها خير؛ فإذا كانت الوصية يقصد بها الضرر بالورثة، وعدم حصولهم على حقوقهم، يجعلها الإسلام وصيةً جائرة، لا تنفَّذ.

فالوصية هي الأمر الثالث الذي كسبه حلال في الإسلام.

٤ - الهِبَةُ

الأمر الرابع: الهبة: والهبة هي ما نسميه التبرُّع، أن يتبرع المرء بشئ مما يملكه لإنسان، رغبة في نفعه، أو رغبة في رضاء ربِّه، أو لأي نيَّة صالحة.

فهذه باختصار هي الطرق التي جعلها الإسلام لكسب المال:

العمل، الميراث، الوصية، والهبة.

مَجَالاتُ العَمَلِ المُبَاحِ فِي الإِسْلامِ

وبعد أن أجملنا تلك الطرق؛ نعود إلى الطريقة الأولى لكسب المال وهى العمل– وهو الذي يحتاج إلى تفصيل – والعمل والذى هو فى الحقيقة منوط بكلٍّ واحد منا أن يقوم به على الوجه الأكمل، والذى إليه تطوير المجتمعات ونهضتها وإثرائها.

فالعمل الذي أباحه الإسلام هو العمل في المجالات المتعارف عليها، وأن يكون هذا العمل كإستثمار بطرق:

- إما أن يقوم به الفرد بنفسه.
- وإما أن يوكِّل فيه غيره.
- وإما أن يشترك فيه بنفسه مع غيره.

فالعمل الذي يقوم به الإنسان في نفسه أو بغيره أو يشترك معهم كالزراعة، الصناعة، التجارة وهذه الأمور حدَّدها الإسلام بضوابط إسلامية.

الاسْتِثْمَارُ الزِّرَاعِيُّ فِي الإِسْلامِ

ففي الزراعة أباح للمؤمن أن يأخذ الأرض الميتة على أن يقوم بزراعتها، فقد قال ﷺ:

{ مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ، ولَيْسَ لمُحْتَجَرٍ حقًّا بَعْدَ ثَلاثٍ }[٢١٣]

فنحن نَمُرُّ أحياناً على بعض الطرق الصحراوية – كطريق الإسماعيلية الذي يصل بين القاهرة وبورسعيد – ونجد كلما نمشي لافتة مكتوباً عليها مزرعة فلان، وهي أرض عليها سور وغير مزروعة، الإسلام جعل هذه الأرض من حقِّ المسلم أن يقتطعها، ومن حق الحاكم أن يقطعها له، على أن ينظره ثلاث سنوات لإصلاحها واستثمارها وزراعتها، فإذا تركها فعلى الحاكم أن يصادرها منه ويعطيها لغيره، لأن الإسلام يرغِّب في الاستثمار.

والاستثمار في الإسلام حرٌّ، ولكن الإسلام أمر ولاة الأمر أن يتدخلوا لتوجيهه إذا لزم الأمر، كما رأينا في ذلك، فالحرية في الإسلام مكفولة لكل فرد أن يستثمر ماله كيف يشاء، على ألا يضرَّ أحداً، وعلى أن يكون وفق شرع الواحد الأحد ﷻ.

الناحية الثانية في مجال الزراعة: ألا يزرع شيئاً يضرُّ الأبدان، أو نهى عنه الإسلام، كمن يزرع المخدرات والمسكرات، وكمن يزرع الأرض بالمحظورات التي كبَّدت شعبنا في هذا العصر الأمراض الفظيعة والمنتشرة، كمن يغذي الفواكه والخضراوات بالهرمونات، أو يكثِّف لها المبيدات، فيأكلها الإنسان فيجدها تنخر في داخل الأبدان، وهذا مخالف لشرع الديان ﷻ، لأن المسلم ينتج لمجتمعه ولا ينتج لنفع نفسه فقط، فلا بد أن يكون هذا

٢١٣ رواه أحمد والنسائي وابن حبان والترمذي والضياء عن جابر.

الإنتاج يلائم هذا المجتمع صحيًّا وعقليًّا ونفسيًّا، وعقائديًّا ودينيًّا، وعرفاً واجتماعيًّا، هذه هي الضوابط الإسلامية.

طُرُقُ الاسْتِثْمَارِ فِي الزِّرَاعَةِ

فاستصلاح الأرض وزراعة الأرض من أفضل الإستثمارات التي حرص عليها شرعنا وديننا الحنيف وجعل طرق الاستثمار في الزراعة متنوعة.

إما أن يزرعها الإنسان بنفسه وإما أن يعطيها لمن يزرعها على أن يكون له نصيب مما يخرج منها، كالنصف أو الثلث على حسب الاتفاق وتسمى (المزارعة).

وإما أن يعطي الشجر لمن يقوم بسقيه نظير نصيب معلوم من ثمرة وتسمى (المساقاة).

وإما أن يؤجرها كلها لإنسان ويأخذ منه الإيجار ويتولى هذا الشخص الزراعة ويحصل على المحصول ... تلك بعض الوسائل للزراعة في الإسلام.

الاسْتَثْمَارُ الصِّنَاعِيُّ فِي الإِسْلامِ

الوسيلة الثانية للاستثمار هي الصناعة، والصناعة – من عجيب الأمور – أن الإمام الشافعي ﷺ وأرضاه جعل أفضل مصرف للزكاة أن نشتري بها وسائل العمل للمحتاجين – بعد أن نعلمهم الحرف – ونفتح لهم حانوتاً يعملون فيه، يعني: أعلم المحتاجين حرفاً صناعية، ثم نجعل لهم دكاناً أو حانوتاً، ونعطيهم العِدَدَ والأدوات من الزكاة، ونتركهم يستثمرون هذا الأمر.

وأخذ ذلك من الرسول ﷺ عندما جاءه رَجُل أنصارى يَسْأَلُهُ، فَقَالَ:

{ أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟ قال بَلَى حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ المَاءِ، قال: ائْتِنِي بِهِمَا، قالَ: فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ وقال: مَنْ يَشْتَرِي هذَيْنِ؟ قال رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ، قال: مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ؟مَرَّتَيْنِ أو ثَلاَثاً قال رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ فأَعطَاهُمَا الأَنْصَارِيَّ، وقال: اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَاماً فأَنْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بالآخَرِ قَدُوماً فَآتِنِي بِهِ، فأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُوداً بِيَدِهِ ثُم قَالَ لَهُ: اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْباً وَبِبَعْضِها طَعَاماً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ المَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ المَسْأَلَةَ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْلِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ – عليه دَين كبير – أَوْلِذِي دَمٍ مُوجِعٍ، أى عليه دية كبيرة }.[٢١٤]

ضَمَانَاتُ الصِّنَاعَةِ الإِسْلامِيَّة

إذاً استثمار المال في الصناعة في الإسلام أن تكون هذه الصناعة لا تساعد على نشر الجرائم الإجتماعية ولا نشر الإباحية، وألا تخالف التشريعات الإسلامية.

فلا يجب على مسلم أن يعمل مصنعا لصنع الخمر، ولا يجب على مسلم أن يقيم مصنعا لصنع السلاح ويبيعه لأي أحد، ولا يجب على مسلم أن يقيم مصنعا لأي أمر يضر بالمجتمع أو بأفراد المجتمع، سواء في أجسامهم أو في أخلاقهم أو في قيمهم أو في دينهم، لأن كل مؤمن جنديا في هذا المجتمع.

٢١٤ سنن أبي داوودعن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ، الحلس: كساء البعير، القعب: الكوب.

اسْتِثْمَارُ المَالِ فِي التِّجَارَةِ فِي الإِسْلامِ

أما التجارة فقد قال فيها ﷺ:{ تسعة أعشار الرزق في التجارة }[٢١٥]

وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ يدخل السوق ويمتحن التجار في فقه البيوع – البيع والشراء – ويقول في شأن ذلك حاثاً على تحصيل العمل اللازم الشرعي للعمل به فى التجـــارة: { من لم يتفقه في الدين فلا يتجر في أسواقنا }.[٢١٦] ، وفى الأثر : { من لم يتفقه فى الدين أكل الربا وهو لا يشعر}.

مَنْعُ الغِشِّ

أَحَلَّ الإسلام التجارة وجعلها حلالاً إذا كانت بالضوابط الإسلامية، وأول ضابط فيها مَنْعُ الغِشِّ. فقد كان ﷺ يمرُّ في الأسواق ويختبر البضاعة بنفسه، فمرِّ يوماً بطعامٍ بسوقِ المدينةِ فأعجبَهُ حسنُهُ! واسمعوا للروايات لأن الغش صار المصيبة الكبرى فى مجتمعات المسلمين اليوم ! للأسف!!!:

{ فأدخلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يدَهُ في جوفِهِ فأخرجَ شيئاً ليسَ بالظاهرِ فأفّفَ لصاحبِ الطعامِ ثُمّ قالَ لا غشَّ بينَ المسلمينَ، مَنْ غشنَا فليسَ مِنّا }، وروى: { فـإذا فيـهِ بَلَـلٌ، فقـالَ: مـا هـذا يـا صـاحِبَ الطَّعـامِ؟ قـالَ: أَصَـابَتْهُ سَـمَاءٌ يا رسولَ اللَّهِ (المطر)، قالَ: فَهَلا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حتّى يَرَاهُ النّاسُ، مَنْ غَشّنَا فَلَيْسَ مِنّا } ، وروى : { مَنْ غَشّنا، فَلَيسَ مِنّا، والمَكْرُ والخِدَاعُ في النّارِ }.[٢١٧]

فنهى عن الغشِّ سواء في الكيل أو في الميزان أو في الصنف بأن يعلن عن صنف جيد ويبيع صنف ردئ، وعن الغش في الثمن كأن يعرف أن الذي

٢١٥ رواه سعيد بن منصور عن عبد الرحمن الأزدي
٢١٦ تفسير البحر المحيط، والقرطبى والسمرقندى
٢١٧ عن ابنِ عمرَ ، سنن الدارمي، و الثانى: صحيح ابن حبان عن أبى هريرة، الثالث: صحيح ابن حبان عن عبدالله .

أمامه (المشتري) يجهل الثمن فيستغل جهله ويبيع له البضاعة بأكثر من ثمنها أضعاف مضاعفة، وهذا يسمى الغَرَر أى خداع المشتري واستغلال جهالته – أو أن يكون ضرباً من المعاملة التجارية لا ضمانة له بأن يتمَّ على نحو قاطعٍ يحفظ الحقوق فذاك من الغرر عن ابنِ عَبّاسٍ قالَ: { قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ وهم يُسْلِفُونَ في الثمارِ السنتينِ والثلاثَ، فقالَ رسولُ الله ﷺ أَسْلِفُوا في الثمارِ في كيلٍ معلومٍ ووزنٍ معلومٍ، إلى أَجَلٍ معلومٍ }[٢١٨]

فمنع الإسلام الغش والمكر والخداع بكل أصنافه وأشكاله.

الإِعْلانُ الإِسْلامِيُّ عَنْ السِّلَعِ

ولذلك فمن الأمور التي ينبغي أن يراعيها المسلم فى الإعلان أن تكون الإعلانات مطابقة جيداً للمواصفات، فمعظمنا يغرَّر به بالإعلانات، لأنه يجد أن الإعلان يعطي ميزات لا حدَّ لها، ثم يذهب ليشتري السلعة فيجد كل هذه الإعلانات وكل هذه المواصفات غير موجودة!!

فيجب أن يكون هناك تقنين واضح للإعلانات من الوزارات المختصة، فلا تسمح وزارة الصحة أو الصناعة بعرض إعلانٍ طبيٍّ مثلاً أو يانات السلعة إلا إذا كان حقيقياً؛ومطابقاً للمواصفات، بحسب مكتب المستشارين والخبراء أو المختبرات في الوزارة الذي يتأكد من هذه المواصفات من أجل المستهلك وبلا محاباة ولا تعنت.

كما أمر المعلن ألا يؤذى الناس بإعلانه فقد حدث { أن عمر ﷺ مرَّ يوما بسوق المدينة فرأى بائعاً يعترض طريق المسلمين ويرفع صوته صاخبا عليهم ببضاعته وهو يسدُّ عليهم مسالكهم فعلاه بدرَّته فاستجاب الرجل}[٢١٩] .

٢١٨ رواه البخاري في الصحيح عن أبي نُعَيْمٍ ، واللفظ للفريابيّ
٢١٩ الفقه على المذاهب الأربعة.

النَّهْيُ عَنْ الإحْتِكَارِ

والمبدأ الثاني في التجارة نهى الإسلام عن الإحتكار.

والإحتكار أن يشتري المرء السلعة ثم يخزنها إلى وقت الغلاء وينزلها السوق، أو كما يفعل التجار الآن، يجتمعون معاً ويتفقون على إخفاء البضاعة حتى يُغَلُّوا الثمن، ثم ينزلونها في السوق ليربحوا أضعافاً مضاعفة.

والإسلام في الحقيقة ليس فيه تسعير، وقد قال ﷺ عندما سألوه أن يسعِّر: { لا تُسَعِّرُوا فإِنَّ الله هُوَ المُسَعِّرُ القَابِضُ البَاسِطُ }[٢٢٠]، لكنه أباح لولاة الأمور أن يتدخلوا للتسعير في حالات الإحتكار، أباح لولاة الأمور أن يذهبوا إلى مخازن التجار ويسيطروا على البضاعة ويوزعونها بأنفسهم، ضماناً لإصلاح حال المجتمع الإسلامي.

والإحتكار – بصفة خاصة – يتأكد في المواد الغذائية والمواد الطبية التي لا غنى لأحد في المجتمع عنها، وإن كان يَعُمُّ كل الأحوال الحياتية التي يحتاج إليها المسلم في حياته، وبين الرسول ﷺ خطورة هذا الأمر فقال[٢٢١]: { من احتكر طعاماً على المسلمين أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه }، وقال في الحديث الآخر:{ المحتكر خاطيء أخطأ طريق الجنة }[٢٢٢]، يعني لا يدخل الجنة أبدًا.

فنهى الإسلام عن الإحتكار، ونهى الإسلام عن – ما يسمى في فقه الإسلام– النجش، والنجش أن يذهب إنسان مع إنسان آخر ويعرض أن

٢٢٠ رواه أحمد والترمذي وأبو داود عن أنس رضي الله عنه

٢٢١ رواه الإمام أحمد في مسنده.

٢٢٢ رواه الديلمي عن ابن مسعود رضي الله عنه

يشتري البضاعة بثمن مبالغ فيه – مع أنه لن يشتري – كي يأخذها المشتري الآخر بالثمن المرتفع، وهو نوعٌ من الغشِّ ونهى عنه الإسلام، يعني يذهب ليتفق مع التاجر تشتري هذه بكم؟ فيقول: اشتريها مثلا بخمسين جنيهاً – وهى لا تساوي أكثر من عشرين جنيهاً – فينخدع المشتري ويشتريها بهذا الثمن المبالغ فيه، نهى عن ذلك الإسلام لأن ديننا يطلب الحدَّ الأوسط والمعتدل في الربح.

صحيح أن الربح في الإسلام حرٌّ، يضع التاجر أيَّ هامش للربح، لكن شرطه: ألا يستغل حاجة المجتمع في هذا الأمر، وثانياً: أن يكون من يبيع له على علم بالثمن الحقيقي فلا يستغل جهالته.

ولذلك نهى الإسلام كذلك عن تلَّقي التجار من الخارج الذين يرخصون الأسعار، بمعنى عندنا في المدينة سوق يوجد به بعض التجار يسمون: (تجار الجملة) يمنعون أهل القرى الذين معهم البضاعة من دخول السوق ويأخذون منهم البضاعة لكي يتحكموا في سعر السوق.

وقد نهى الإسلام عن ذلك وقال ﷺ:{ لا تتلقوا الركبان }.[٢٢٣]

وهم أهل البادية الذين يأتون بالبضاعة إلى أسواق المدن فيقابلهم التجار ويأخذون منهم البضاعة بأي سعر، وإما أن يبيعوهم وإما أن يمنعوهم بأي طريقة وبأي كيفية حتى يتحكموا في السعر.

نهى الإسلام عن ذلك وجعل الأمر في الإسلام عرضاً وطلباً، فإذا زاد المعروض قلَّ السعر، وإذا كان العرض في يد فئة قليلة تحكموا في السعر، والإسلام يرفض ذلك.

٢٢٣ رواه أحمد والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه

مَا لا يُبَاحُ الإتِّجَارُ فِيهِ

كذلك جعل الإسلام للتجارة أموراً محددة، فنهى عن الإتجار في كلِّ شئٍ حرَّمه الله، فنَهَى عن التجارة في الخنزير، ونَهَى عن التجارة في المخدرات، ونَهَى عن التجارة فيما نراه اليوم كتربية الكلاب وبيع الكلاب، فقد نهى ﷺ عن ثمن الكلب، لأنه لا يُبِيحُ الكلبَ إلاَّ لمن بيته في خلاء ويخشى السرقة أو يخشى الوحوش، لكن لا يبيحُ الكلبَ في داخل البيت الآمن، ولذلك قال ﷺ: { لا تَدْخُلُ الملائكةُ بَيْتاً فيه كَلْبٌ أَوْ صُورَةٌ }.[٢٢٤]

فالبيت الذي فيه كلب بغير عذر – والعذر أن يكون في خلاء ويخشى الضرر، سواء كان من الوحوش، أو من السرقة – نهى الإسلام عن ذلك، ويدخل في ذلك ما استجدَّ في عصرنا – كمن يتاجر اليوم مثلاً في أفلام إباحية – فتلك تجارة محرَّمة وغير شرعية، ومن يتاجر في عصرنا الآن في اسطوانات مدمجة عليها مواد تسيء إلى شبابنا وفتياتنا فهذه تجارة ممنوعة.

ومن يتاجر أيضاً في عصرنا في أصباغ ومواد تغير هيئة الإنسان وتجعله يخدع الآخرين، فتلك تجارة محرمة، وغير هذا الكثير ... وأحرم هذه التجارات المعاصرة على الإطلاق، التجارة – فيما يقال – في وسائل الغيار الآدمية، أي: الذين يأتون بالآدميين ويقطعونهم ويتاجرون في أعضائهم، فتلك ألعن تجارة في هذا العصر لقوله ﷺ: { لزوال السموات السبع والأرضين السبع أهون عند الله ﷻ من قتل نفس مسلمة بغير حق }.[٢٢٥]

وهناك أمور كثيرة تدخل هذا المجال، كل هذه الميادين لمن يستثمر ماله بنفسه، وبالطبع فقد يطلب وكيلاً أو شريكاً ولكننا نتحدث عن الفعل نفسه!

٢٢٤ رواه أبو داود والنسائي والحاكم عن علي ورواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي طلحة ﷺ
٢٢٥ رواه النسائي عن أبي بكرة.

اسْتِثْمَارُ المَالِ مَعَ الغَيْرِ

وبعد أن رأينا أهم الضوابط فى الإسـلام للإسـتثمار فى الـصناعة والزراعة .. نعلم أن الإستثمار كثيرا ما يتعدى قدرة الفرد الواحد فيحتـاج للمشاركة مع الآخرين، والمشاركة لها ضوابطها الكاملة في شرع الله.

والقاعدة الأساسية للمشاركة؛ قد قال فيها ﷺ - فيما يرويه عن ربِّه: **{ أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما الآخر فإن خانا خرجت من بينهما }**.[٢٢٦]

وأباح الإسلام المشاركة بصور منها: أن يكون أحدهما بماله والآخـر بجهده، ويتفقون على هامش الربح مناصفة أو أقل أو أدنى.

ومنها أن يشتركان في رأس المال بالمشاركة.

ومنها من يأخذ المال ويقوم باستثمار هذا المال وهي ما تسمى بالوكالة - كما تقوم به البنوك والشركات والمصارف - ولكنه وضع لها ضوابط:

- إمَّا أن تكون عن طريق المضاربة وهى أن يأخذ الإنسان المال من الآخر ويستثمره ويقتسمان على ما يتفقان عليه مـن الـربح، وأيضا يشتركان في الخسارة لأن الخسارة متوقعة.
- وإمَّا أن تكون عن طريق المرابحة، وهى أن يأخذ الإنسان مـالاً فيتفق مع صاحب المال على أن يعطيه نسبة من الأرباح إذا وفق في كسبه، ويكون أيضاً شريكه إذا حدث خسارة بينهما.
- وإما أن تكون عن طريق من هذه الطرق الشرعية الإسـلامية، التى تنوعت اليوم وليس المجال هنا لتفصيلها.

٢٢٦ رواه أبو داود في سننه عن أبي هريرة.

الفصل الثاني

التَّكَامُلُ بَيْنَ الزَّكَاةِ والضَّرَائِبِ

هذا الموضوع أيها الإخوان الكرام فيه أسئلة كثيرة تدور في أذهان العديد من الناس في عصرنا، وسأحاول أن أجيب عليها باختصار، لأن موضوع الزكاة يحتاج إلى وقت طويل.

والمقارنة بين الزكاة والضرائب أو التكامل بينهما يحتاج إلى رسائل في الماجستير والدكتوراه لكل جانب من جوانبها – وليست رسالة واحدة تستطيع أن تغطي هذا الموضوع – لكن نريد أن نعالج ما يدور بذهن البعض.

يقول البعض: هل الضرائب تعتبر شرعية؟ وما مدى شرعيتها مع وجود الزكاة؟ هذا سؤال، وسؤال آخر: هل تغني الزكاة عن الضرائب؟ أو هل الضرائب تغني عن الزكاة؟

أو كما يحلو للبعض أن يأتي بما خُصِمَ من وعائه الضريبي ويخصِمُهُ مما عليه من زكاة لله، ويقول: حتى لا أدفع المال مرتين! ما الإجابة على ما قلنا:

مِيزَانِيَّةُ الدَّوْلَةِ الإِسْلامِيَّةِ الأُولَى

كانت الميزانية أيام رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين تعتمد على:

- أولا: الزكاة وكانت المصدر الأول الذي كان عليه تمويل الميزانية الإسلامية في العصر الأول.
- ثانياً: الخراج؛ وهو ما يفرض على الأراضي الزراعية.

- ثالثاً: العشور؛ وهو ما يسمى الجمارك الآن - التي تفرض على البضاعة المنقولة من وإلى الدولة الإسلامية.

- ومعه كان سهم الغنائم التي يغتنموها من المعارك الحربية.

كانت هذه هي أهم البنود التي تقام عليها ميزانية الدولة الإسلامية في هذا الوقت، وكانت تعتمد في تغطية ما تحتاج إليه بعد ذلك على جوانب البرِّ عند أهل البرِّ، مثل جانب الصدقات، وجانب الأوقاف الخيرية، وجانب التبرعات، وكلها من باب قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (٢المائدة)

فلم يكن هناك في ذلك الوقت والزمن الفاضل حاجة إلى فرض الضريبة، خاصة أن حوائج الأمة كانت قليلة، حتى أن الزكاة بمفردها كانت تغطي كل حاجات الأمة، فمثلا عصر عمر بن عبد العزيز - وقد تولى الحكم لمدة عامين ونصف، يعني خطة نصف خمسية!! في هذين العامين والنصف - استطاع أن يغطي كل ما تحتاجه الأمة من مطالب وخدمات من بند الزكاة.

فمشروع الزكاة كان يغطي كل حاجات الأمة لأنها كانت قليلة في وقتها، وكان له مصارف أخرى تعضده في ميزانية الدولة، والزكاة كانت تجمع على هيئة مؤسسة أسسها رسول الله ﷺ، وأقام فيها عمالاً يقومون بجمعها، وكان يأمرهم بجمعها وتوزيعها في المكان الذي يجمعونها فيه، وفق الضوابط القرآنية الشرعية وتفسيرها في المذكرة التفسيرية النبوية المحمدية، وإذا فاض عنهم يرسلون الفائض إلى بيت المال في عاصمة الدولة في المدينة، ليتولى خليفة المسلمين إنفاقه في بنوده المحددة والثابتة.

وظلَّ هذا النظام قائماً من بعده في الدولة الإسلامية، ولم يُلْغَ في مصرنا إلاَّ في عصر دولة المماليك، عندما كان السلطان قلاوون المنصوري ملكاً على مصر، في عصره تكاتف الأغنياء وذهبوا إليه واستطاعوا إمالته، وطلبوا منه

أن يمنع أخذ الزكاة عن طريق الدولة وينفقونها بأنفسهم لأنها تقهرهم، فأصدر قرارا بحل لجان الزكاة وإلغاء مؤسسة الزكاة.

أَسْبَابُ فَرْضِ الضَّرائِبِ

فالزكاة كانت تقوم بالواجب في وقتها، لكن لما نضبت الموارد ولم يعد هناك مغانم – لأنه لم يعد هناك حروب – وقلَّ دخل الدولة، ووُجِدَتْ أوقاتٌ عصيبة احتاجت من الدولة أموالاً تغطي بها نفقاتها الحربية، أو حروبها المتعددة مع الجهات الأجنبية، نظر علماء المسلمين في فرض ضريبة – غير الزكاة – وأصَّلُوا ذلك من كتاب الله ﷻ من – القرآن الكريم – ومن السنة النبوية، ومن أقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

وقد جمع وشرح هذه النظرية شرحاً وافياً – الإمام بن حزم الأندلسي في كتابه المسمي: (المحلى) – وهذا لمن يريد أن يستزيد في هذا الموضوع من إخواننا طلاب الدراسات العليا.

فقد شرح نظرية الضريبة شرحاً وافياً، وبيَّن أنها تُكمِّل الزكاة، وقال: **(الضريبة لا تغني عن الزكاة، والزكاة لا تغني عن الضريبة في وقت الحاجة، وكلاهما يُكَمِّلُ الآخر).**

واستند في نصوصه إلى قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾.ثم بعد ذلك ذكرت الآية: ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (١٧٧البقرة).

فكان إيتاء المال في بداية الآية غيرالزكاة، يقول فيها سيدنا عمر ﷺ

عندما حدثت له في زمانه جائحة اجتاحت الناس: **{لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين}**[٢٢٧].

وكان هذا حقًّا للفقراء من أموال الأغنياء في وقت الحاجة، ويقول فيه الإمام على بن أبي طالب كرَّم الله وجهه ورضى الله عنه **{إن الله جعل للفقراء ما يحتاجون إليه في أموال الأغنياء، فإذا احتاج الفقراء فإنما ذلك بزيادة التمتع في الأموال من الأغنياء}**، فجعل ذلك فريضة، واستندوا في ذلك إلى قوله ﷺ:

{في المال حقّاً سوى الزكاة}[٢٢٨]

هذا الحق هو حق الفقير والمسكين إذا لم تكفه الزكاة، فرضها العلماء المسلمون في بعض الأوقات.

فمثلاً عندما تعرضت مصر لغزو المغول أو التتار، جمع السلطان قطز في وقتها علماء الأمة ليشاورهم في فرض ضريبة لتجهيز الجيش، فقالوا: إن الإسلام يبيح لك ذلك بشرط ألا يكون في بيت المال شيء، وألا يكون جندك عندهم ما يزيد عن حاجاتهم، يعني: إبدأ بجندك وخذ ما زاد على حاجاتهم من الذهب والفضة والكراع والسلاح وغيره، ثم افرض على الشعب ما شئت، وعندما اعترض على أخذ ما عند الجند خوفاً من شوكتهم، وقال أفرض الضريبة والجند لهم عذرهم لأنهم سيحاربون، رفض إمام العلماء في ذلك الوقت عز الدين بن عبد السلام ذلك.

ولما أصر الملك على رأيه، خرج مهاجراً إلى بلاد الشام، فنصحه من حوله وقالوا له: لو تركته يخرج، لقامت ثورة عليك لا تستطيع القضاء عليها، فأسرع إليه واسترضاه، ثم بدأ يحصل الأموال من قادة الجند الزائدة

٢٢٧ تاريخ الطبري ، والمحلى بالآثار

٢٢٨ أخرجه الترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن عدي، والدارقطني، عن فاطمة بنت قيس .

عن حاجاهم، والذهب الزائد عن حلى نسائهم، والسلاح الفائض عن حاجاهم، ثم فرض بعد ذلك الضريبة.

وكذلك حدث ذلك مع السلطان بيبرس في دمشق، عندما جاءت المرة الثانية لغزوات التتار، جمع فقهاء الشام ليفرض ضريبة على الناس لتجهيز الجيش فوافقوه، فكتب عريضة وأمرهم أن يوقعوا عليها بالموافقة، ثم قال لهم بعد أن وقعوا: هل بقى عالم لَمْ يحضر؟ قالوا: نعم، الشيخ محي الدين النووي، فأرسل من أتى به، وأمره أن يوقع على العريضة فرفض؛ وقال: لا أوقع عليها إلا إذا جَرَّدْتَ إماءك – وأعلم أهُنَّ مئتان – من ذهبهن، وجرَّدت عبيدك وعددهم ثمانمائة؛ من الذهب الذي يحصلونه ويحرزونه. قال: اخرج من بلدي، قال: سمعاً وطاعة، فخرج إلى نوى، فأراد بعد ذلك أن ينفذ الضريبة فقالوا له: لابد من استرضائه، فأرسل إليه يرجوه أن يرجع، قال: لا أرجع إلا إذا خرج بيبرس من دمشق، فمات بيبرس بعد شهر.

وكان هذا هو الضابط.

الضَّوَابِطُ الشَّرْعِيَّةُ لِفَرْضِ الضَّرَائِبِ

إن ديننا الإسلامي وضع له العلماء الضوابط الشرعية المقننة التي لا تحتاج إلى مزيد، فكما أن الله ﷻ وضع للزكاة ضوابطاً ثابتة ومقنَّنة، تلائم كل إنسان وزمان وكل دخل، فكذلك وضعوا للضرائب ضوابطها، فالضريبة لكي يفرضها ولي الأمر في الإسلام (الحاكم أو نائبه) – شرطها الأول:

أن يكون دخل بيت المال، أو موارد الدولة، لا تكفي الحاجات الضرورية التي تكون الدولة في أمس الحاجة إليها، وغنيٌّ عن التعريف، أن الضرائب تقوم بالمصالح العامة التي لا نستطيع أن نوجِّه إليها مصارف الزكاة، مثل: بناء المدارس، وبناء الجامعات، وشق الترع، وعمل وسائل الموصلات،

من مطارات وسكك حديدية.

كل هذه المصارف لا نستطيع أن نوجِّه إليها من بند مصارف الزكاة، والذي يغطيها هو الضرائب، وكذلك المجاري والكهرباء، وكل الحاجات التي يطلقون عليها البنية الأساسية، أو الحاجات الضرورية التي يتمتع بها جميع أبناء الشعب، فإن الحاجة هنا للجميع، فالكل يتعلم - لا نفرق بين غني وفقير، والكل يستخدم الطرق، والكل يستخدم المطارات، فهذه الأوعية، وهذه المصارف، تغطيها الضرائب، فإذا كانت موارد الخزينة العامة لا تكفي لهذه المشروعات فلا بد من وضع ضريبة لأننا لا نستغني عن هذه الأعمال.

وهذه الضريبة شرطها الثاني:

أن يكون فيها عدالة، فلا تطبق على فئة ويعفى منها فئة - كما هو شأن الزكاة - فإن الزكاة يعفى منها من لم يبلغ ماله النصاب مهما كان شأنه، أما الضرائب فقد يكون فيها بعض الإعفاءات، فبعض الأموال في البنوك لها إعفاء، كشهادات الاستثمار وغيره، لتشجيع الاستثمار، لكن الزكاة ليس على من يَمْلِكُ نصابَها إعفاءٌ لأنها حقُّ الله عز وجل. فالضريبة في شرع الإسلام تكون على جميع من يستطيعون دفعها، لا نفرق بين مستطيع ثري ومستطيع فقير ليس له من يدافع عنه.

الأمر الثالث: لا بد أن تكون عن شورى، أي لا بد أن يقرَّها مندوبو الشعب - وهم في عصرنا مجلس الشعب - حتى لا ينفرد أولو الأمر بها لمصلحة خاصة، وإنما نتأكد أن الضريبة فيها مصلحة عامة لجميع الشعب.

الأمر الرابع:

أن تُنْفَقَ هذه الضرائب، ونتأكد من صرفها على الأمور العامة، التي تَعُمُّ وتَهِمُّ جميع أفراد الشعب.

هذه هى الضوابط التي يباح بها فرض الضرائب في الإسلام. وعلى هذا فالذي يخصم منه ضريبة لا نستطيع أن نفتيه بأن يخصم الضريبة مما عليه من الزكاة، لأن الزكاة حقٌّ الفقراء وحقٌّ الله، والضريبة حقٌّ المجتمع ومقابل الخدمات التي ينتفع بها في مصنعه، أو في عمله، أو في شأنه. فالزكاة حقٌّ لا بد من إخراجه، وقد جَزَمَ الفقهاء بذلك، ولا يمكن التحايل على ذلك، هذا بالنسبة للزكاة والضرائب.

دُوْرُ الزَّكَاةِ فِي حَلِّ مَشَاكِلِ المُجْتَمَعِ

أما بالنسبة لكيفية التكامل بينهما، فهذا عمل يحتاج أن نوصي به إلى مؤسسة أو مؤسسات – على الأقل تكون في كل محافظة مؤسسة – جامعة، تهتم بأمور الزكاة، لأن الزكاة في الوضع الحالي تعالج حالات فردية.

ولما كنا في أمس الحاجة إلى أموالها لنهضة إجتماعية وإقتصادية، فنحتاج إلى تجميع الجهود ولا نتركها للأفراد، فإن الزكاة إذا جمعت بطريقة جماعية نستطيع بها – مثلاً – أن نُصلح الأراضي الزراعية في بلادنا، ونُقيم بها قرى لشبابنا ونملكها لهم، ونُيَسِّرَ لهم عملاً كريماً نستطيع أن نَحِلَّ بها أزمة البطالة، فقد قال الإمام الشافعي ﷺ في كتابه (الأُم):

(خير مصرف للزكاة أن نعلِّم العاطلين حِرَفاً، ثم نقيم لهم حانوتاً – أي: دكانا – ونحضر لهم أدوات صنعتهم ونتركهم يعملون ويتكسبون بعد ذلك)

وهذا لا يمكن أن يقوم به الأفراد إلا إذا اجتمعوا، وكانت هناك مؤسسات للزكاة تقوم بهذه الأعمال الخيرية العظيمة، فإن الزكاة ومعها الأوقاف الخيرية هما اللتان يضطلعان بالنشاط الإجتماعي في الأمة الإسلامية إلى العصر الحديث، فكانت تبنى منها الجامعات، وكانت تؤسس منها

المستشفيات، وكانت تقام منها الملاجيء وكانت تقام منها كل النواحي والمؤسسات الإجتماعية.

ونحن نرى جميعاً الأزهر – وهو مؤسسة علمية أسست على أموال الأوقاف – وكانت تكفل هذه المؤسسة لطلابها كل ما يحتاجونه، من إعاشة وإقامة وكتب ومصروف جيب حتى التخرج من الجامعة ولا يطالبوهم بردها.

فما أحوجنا في نهضتنا الإقتصادية إلى هذه المؤسسة الزكوية، أرجو الله ﷻ أن يجعل ذلك عن قريب.

إقتراحات و توصيات

وهنا أقترح وأوصى السادة المسؤلين وأصحاب القرار بما يلى:

١- البدء في إتخاذ الإجراءات اللازمة لإنشاء مؤسسة للزكاة تتولى جمع الزكاة وإنفاقها في مجالاتها المختلفة.

٢- أن يكون من ضمن مجالات إنفاق الزكاة – في ضوء الأحكام الشرعية المعروفة:

أ – الإنفاق على الفقراء من طلاب العلم في مختلف المراحل التعليمية، للنهوض بالمستوى التعليمي للمجتمع الإسلامي.

ب – المساهمة في مساعدة الشعوب الإسلامية التي تتعرض للعدوان والاضطهاد كالشعب الفلسطيني مثلاً.

ج – العمل على إقامة المشروعات المختلفة من بعض أموال الزكاة وتمليكها لمستحقي الزكاة، للمساهمة في حل مشاكل البطالة في مجتمعنا.

٣- دراسة إصدار قانون للزكاة ينظم عملية تجميع الزكاة من الأموال المختلفة الخاضعة لها، وتوجيه إنفاقها على مجالاتها المحددة، لتساعد

على النهوض والرقيِّ بالمجتمع الإسلامي.

٤- اهتمام وسائل الإعلام بتوعية أفراد المجتمع، بأن سداد كل من الزكاة والضريبة يمثل واجباً دينياً، علاوة على أنه واجب وطني، والإهمال في ذلك يعني ضعف الجوانب الدينية والوطنية للفرد المسلم.

٥- التأكيد على رجال الأعمال وأصحاب المشروعات وغيرهم، بضرورة الحرص على سداد كل من الزكاة والضرائب، لأن الزكاة فرضٌ دينيّ والضريبة واجب وطنيٌّ وقوميّ، ولا يجوز الإستغناء بأحدهما عن الآخر، لأن لكل منهما مجالاته وتخصصاته التى لا يمكن الاستغناء عنها.

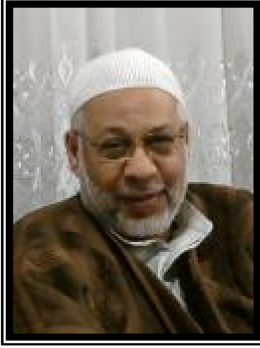
٦- التوصية بتدريس مادة محاسبة الزكاة في كليات التجارة بالبلدان الإسلامية، وذلك لزيادة الحرص على الإهتمام بهذا الركن من أركان الشريعة الإسلامية، وتوفير الكفاءات التي تساعد باقي أفراد المجتمع على تسديد الزكاة المستحقة عليهم.

...............إنتهى بحمد الله وتوفيقه ....

رموز أسماء كتب تخريج الحديث كما ورد بالجامع الصغير نقلاً عن كنز العمال

(خ) للبخاري، (م) لمسلم، (ق) لهما، (د) لأبي داود، (ت) للترمذي، (ن) للنسائي، (٥) لابن ماجة، (٤) لهؤلاء الأربعة، (٣) لهم إلا ابن ماجه، (حم) لأحمد في مسنده، (عم) لابنه في زوائده، (ك) للحاكم في مستدركه وإلا فمبين، (خد) للبخاري في الأدب، (تخ) له في التاريخ، (حب) لابن حبان في صحيحه، (طب) للطبراني في الكبير، (طس) له في الأوسط، (طص) له في الصغير، (ص) لسعيد ابن منصور في سننه، (ش) لابن أبي شيبة، (عب)لعبد الرزاق في الجامع، (ع) لأبي يعلى في مسنده، (قط) للدارقطني في السنن وإلا فمبين، (فر)للديلمي في مسند الفردوس، (حل) لأبي نعيم في الحلية، (هب) للبيهقي في شعب الإيمان، (هق) له في السنن، (عد) لابن عدي في الكامل، (عق)للعقيلي في الضعفاء، (خط)للخطيب في التاريخ وإلا فمبين.

ترجمة المؤلف فضيلة الشيخ فوزي محمد أبوزيد



۞ نبذة: ولد الشيخ فوزي محمد أبوزيد في الثامن عشر من أكتوبر١٩٤٨م ،الموافق ١٥ من ذى الحجة ١٣٦٧هـ بالجميزة، مركز السنطة، غربية، ج م ع، وحصل على ليسانس كلية دار العلوم من جامعة القاهرة ١٩٧٠م، ثم عمل بالتربية والتعليم حتى وصل إلى منصب مدير عام بمديرية طنطا التعليمية، وتقاعد سنة ٢٠٠٩م.

۞ النشاط: يعمل رئيسا للجمعية العامة للدعوة إلى الله بجمهورية مصر العربية، والمشهرة برقم ٢٢٤ ومقرها الرئيسى ١١٤ شارع ١٠٥ حدائق المعادى بالقاهرة، ولها فروع في جميع أنحاء الجمهورية.، كما يتجول بمصر والدول العربية والإسلامية لنشر الدعوة الإسلامية، وإحياء المُثل والأخلاق الإيمانية؛ بالحكمة والموعظة الحسنة. هذا بالإضافة إلى الكتابات الهادفة إلى إعادة مجد الإسلام، وله الكثير من التسجيلات الصوتية والوسائط المتعددة للمحاضرات والدروس واللقاءات على الشرائط والأقراص المدمجة، وأيضا من خلال موقعه على شبكة المعلومات الدولية الإنترنت WWW.Fawzyabuzeid.com وهو أصبح أحد أكبر المواقع الإسلامية فى بابه وجارى إضافة تراث الشيخ العلمى الكامل على مدى خمسة وثلاثين عام مضت، وجاري إضافة الإنجليزية.

۞ دعـــوته: ١- يدعو إلى نبذ التعصب والخلافات، والعمل على جمع الصف الإسلامى، وإحياء روح الإخوة الإسلامية، والتخلص من الأحقاد والأحساد والأثرة والأنانية وغيرها من أمراض النفس، ٢- يحرص على تربية أحبابه بالتربية الروحية الصافية بعد تهذيب نفوسهم وتصفية قلوبهم.، ٣- يعمل على تنقية التصوف مما شابه من مظاهر بعيدة عن روح الدين، وإحياء التصوف السلوكى المبنى على القرآن الكريم وعمل الرسول ﷺ وأصحابه الكرام.

۞ هدفه : إعادة المجد الإسلامى ببعث الروح الإيمانية، ونشر الأخلاق الإسلامية، وكذلك بترسيخ المبادئ القرآنية.

۞ قائمة مؤلفات الشيخ : سبعون كتاباً في ست سلاسل

أولا : سلسلة من أعلام الصوفية : عدد ٥ كتب:

١- الإمام أبو العزائم المجدد الصوفى(٢ط) ٢- الشيخ محمد على سلامه سيرة وسريرة.، ٣- المربى الربانى السيد أحمد البدوى ٤- شيخ الإسلام السيد إبراهيم الدسوقى ٥- الشيخ الكامل السيد أبو الحسن الشاذلى

ثانيا : سلسلة الدين والحياة :عدد ١٥ كتاب:

٦و٧- نفحات من نور القرآن ج١و٢. ٨- مائدة المسلم بين الدين و العلم. ٩- نور الجواب على أسئلة الشباب١٠- فتاوى جامعة للشباب.١١- مفاتح الفرج (٧ط) (ترجم للأندونسية)١٢-تربية القرآن لجيل الإيمان (٢ط) (ترجم للإنجليزية والأندونسية) ١٣- إصلاح الأفراد و المجتمعات فى الإسلام (٢ط).١٤- كيف يحبُّك الله (يترجم للأندونيسية).١٥-كونوا قرآنا يمشى بين الناس (يترجم للأندونيسية)١٦- المؤمنات القانتات ١٧-فتاوى جامعة للنساء ١٨- قضايا الشباب المعاصر.١٩زاد الحاج والمعتمر (٢ط)،(٦٧) بنو إسرائيل ووعد الآخرة.

ثالثاً: سلسلة الخطب الإلهامية: عدد ٧ كتب:

مج١: المناسبات الدينية :٢ط طبعة مجزأة و طبعة مجلدواحد:

٢٠- ج١: المولد النبوى. ٢١- ج٢: الإسراء و المعراج. ٢٢- ج٣ : شهر شعبان و ليلة الغفران، ٢٣-ج٤: شهر رمضان و عيد الفطر. ٢٤- ج٥ : الحج و عيد الأضحى المبارك. ٢٥- ج٦ : الهجرة و يوم عاشوراء. ٢٦- الخطب الإلهامية :مج١:المناسبات الدينية (ثلاث طبعات) مجلد.

ثالثا :سلسلة الحقيقة المحمدية: عدد ٨ كتب:

٢٧- حديث الحقائق عن قدر سيد الخلائق (٣ط). ٢٨- الرحمة المهداة. ٢٩-٣٠ إشراقات الإسراء:ج١(٢ط)، ج٢. ٣١- الكمالات المحمدية، ٣٢- واجب المسلمين المعاصرين نحو الرسول (ترجم للإنجليزية). ٣٣-السراج المنير.، (٧٠) ثانى اثنين.

رابعا : سلسلة الطريق إلى الله: عدد١٢ كتاب:

٣٤- أذكار الأبرار. ٣٥- المجاهدة للصفاء و المشاهدة ٣٦- علامات التوفيق لأهل التحقيق. ٣٧- رسالة الصالحين.٣٨- مراقى الصالحين. ٣٩- طريق المحبوبين و أذواقهم.٤٠- كيف تكون داعياً على بصيرة. ٤١- نيل التهانى بالورد القرآنى.٤٢- تحفة المحبين ومنحة المسترشدين فيما يطلب فى يوم عاشوراء للقاوقجى (تحقيق)., ٤٣- طريق الصديقين إلى رضوان رب العالمين(ترجم للأندونسية). ٤٤- نوافل المقربين.(٦٤)أحسن القول.

خامسا: سلسلة دراسات صوفية معاصرة: عدد ١٤ كتاب:

٤٥- الصوفية و الحياة المعاصرة. ٤٦- الصفاء والأصفياء.٤٧- أبواب القرب و منازل التقريب., ٤٨- الصوفية فى القرآن والسنة (٢ط) (ترجم للإنجليزية). ٤٩- المنهج الصوفى والحياة العصرية. ٥٠- الولاية والأولياء. ٥١- موازين الصادقين. ٥٢- الفتح العرفانى.٥٣- النفس وصفها وتزكيتها.٥٤- سياحة العارفين.٥٥-منهاج الواصلين.(٦٥) نسمات القرب. (٦٨) العطايا الصمدانية للأصفياء.(٦٩) الأجوبة الربانية في الأسئلة الصوفية.

سادساً: سلسلة شفاء الصدور: عدد ٩ كتب:

٥٥- مختصر مفاتح الفرج (٤ط). ٥٦- أذكار الأبرار (٣ط).٥٧- أوراد الأخيار (تخريج وشرح).(٢ط)، ٥٨- علاج الرزاق لعلل الأرزاق (٢ط). ٥٩- بشائر المؤمن عند الموت (٣ط) ٦٠ - أسرار العبد الصالح وموسى عليه السلام(٢ط)، ٦١- مختصر زاد الحاج والمعتمر. (٦٣) بشريات المؤمن في الآخرة. (٦٦) بشائر الفضل الإلهي.

سابعاً: تحت الطبع للمؤلف :

١..الحبُّ والجنس فى الإسلام، ٢- فتاوى جامعة للشباب (ط٢)، ٣- نور الجواب على أسئلة الشباب (ط٢)، ٣- الصوم شريعة وحقيقة، ٤-طريق الصديقين إلى رضوان ربِّ العالمين (ط٢)، ٥- واجب المسلمين المعاصرين نحو رسول الله ﷺ (ط٢)..

أين تجد مؤلفات فضيلة الشيخ فوزى محمد أبوزيد

إسم المكتبة	رقم الهاتف	القاهـــــــــــرة
مكتبة المجلد العربي	٢٥٩١٢٥٢٤	١١٦ ش جوهر القائد الأزهر
مكتبة الجندي	٢٥٩٠١٥١٨	سوق أم الغلام ميدان الحسين
دار المقطم	٢٧٩٥٨٢١٥	٥٢ ش الشيخ ريحان،عابدين
مكتبة جوامع الكلم	٢٥٨٩٨٠٢٩	١٧ الشيخ صالح الجعفرى الدراسة
مكتبة التوفيقية	٢٥٩٠٤١٧٥	١ عمارة الأوقاف بالحسين
بازار أنوار الحسين	٠١٢٢٧٤٧٥٩٣١	٢ زقاق السويلم خلف مسجد الحسين
مكتبة العزيزية	٢٥٩١٥٢٢٤	١١ ميدان حسن العدوى بالحسين
الفنون الجميلة	٢٥٩٠٠٧٨٦	١٣٠ ش جوهر القائد بالدراسة
مكتبة الحسينية	٢٥٩٠٢٥٤١	٢٢ ش المشهد الحسينى بالحسين
مكتبة القلعة	٢٥١٠٨١٠٩	١ ش محمد عبه خلف الأزهر
مكتبة نفيسة العلم	٢٥١٠٤٤٤١	٩ ميدان السيدة نفيسة .
المكتب المصري الحديث	٢٣٩٣٤١٢٧	عمارة اللواء ٢ ش شريف
الأديب كامل كيلانى	٢٣٩٦١٤٥٩	٢٨ ش البستان بباب اللوق
مكتبة دار الإنسان	٣٣٣٥٠٠٣٣	١٠٩ ش التحرير، ميدان الدقي
مكتبة مدبولى	٢٥٧٥٦٤٢١	٦ ميدان طلعت حرب
مدبولى مدينة نصر	٢٤٠١٥٦٠٢	طيبة ٢٠٠٠، ش النصر مدينة نصر
النهضة المصرية	٢٣٩١٠٩٩٤	٩ ش عدلى جوار السنترال
هلا للنشر والتوزيع	٣٣٤٤٩١٣٩	٦ ش دحجازي، خلف نادي الترسانة
المكتبة الأزهرية للتراث	٠١٠٠٥٠٤٢٧٩٧	درب الأتراك، خلف الجامع الأزهر
مكتبة أم القرى	٢٥٨٩٨٢٥٣	١٢٨ ش جوهر القائد الأزهر
المكتبة الأدبية الحديثة	٢٥٩٣٤٨٨٢	٩ ش الصنادقية بالأزهر
مكتبة الروضة الشريفة	٢٦٤٤٤٦٩٩	٢١ش د.أحمد أمين، مصر الجديدة
		الإســــــــكندرية
كشك سونا	٠١٢٢٤٦٠٩٠٨٢	محطة الرمل، أمام مطعم جاد
معرض الكتاب الإسلامى الثقافى	٠١٠٠١٢٣٢٦٩٨	محطة الرمل، صفية زغلول

كشك محمد سعيد موسى	٠١١١٤١١٤٣٠٠	٦٦ شارع النبى دانيال، محطـــة مصر
مكتبة الصياد	٠٣-٣٩٢٨٥٤٩	٤ ش النبى دانيال، محطة مصر
مكتبة سيبويه	٠٣-٥٤٦٢٥٣٩	٢٣ المشيرأحمد إسماعيل، سيدى جابر
الكشك الأبيض	٠١٢٨٨٣٤٣٥٥٥	محطة الرمل– أ/ أحمد الأبيض
		الأقـــــــــاليم
كشك عبد الحافظ محمد	--------	الزقازيق، بجوار مدرسة عبد العزيز على
مكتبة عبادة	٠٥٥-٢٣٢٦٠٢٠	الزقازيق – شارع نور الدين
مكتبة تاج	٠٤٠-٣٣٣٤٦٥١	طنطا أمام السيد البدوى
مكتبة قربة	٠٤٠-٣٣٢٣٤٩٥	طنطا ٩ش سعيد والمعتصم أمام كلية التجارة
كشك التحرير	٠١٠٠٨٩٣٥١٨٢	كفر الشيخ ش السودان أمام السنترال، أ/سامى أحمد عبد السلام
مكتبة صحافة الجامعة	٠١٠٠٢٢٨٥٢٥٣	المنصورة ، ش جيهان بجوار مستشفى الطوارىء أ/عماد سليمان
مكتبة الرحمة المهداة	٠١٠٠١٤٢١٤٦٩	المنصورة، عزبة عقل، ش الهادى، أ/عاطف وفدى
مكتبة صحافة الثانوية	٠١٠٠٥٧٣١٥٥٠	المنصورة ش الثانويه بجوار مدرسة ابن لقمان، الحاج/كمال الدين أحمد
صحافة أخبار اليوم للحاج محمد الأتربى	٠١٢٢٤٩١٧٧٤٤	طلخا، بجوار مدرسة صلاح سالم التجاريه، أمام كوبرى طلخا
مكتبة الإيمان	---------	فايد– الحاج أحمد غزالى بربرى
كشك الصحافة	---------	السويس، ش الشهداء، ح/ حسن محمد خيرى
أولاد عبدالفتاح السمان	٠٩٣-٢٣٢٧٥٩٩	سوهاج ش احمد عرابي أمام التكوين المهنى
كشك أبو الحسن	٠١٠٦٩٥١٨٦١٦	قنا أمام مسجد سيدي عبد الرحيم القناوى
كشك محمد رمضان	٠١٠٩٩٣٠٣٩٣٩	إسنا – القرايا_ أ/ محمد رمضان محمد النوبى

أيضاً بدور الأهرام والجمهورية والأخبار للتوزيع و دار الشعب والقومية للتوزيع والنشر ومن المكتبات الكبرى الأخرى بالقاهرة والجيزة والأسكندرية والمحافظات. ويمكن أيضاً الإطلاع إليكترونيا على نبذة مختصرة عن المؤلفات على أكبر موقع علمى للكتاب العربى على الإنترنت www.askzad.com ، ويمكن تحميل الكتب بشروط الموقع.

الناشر: دار الإيمان والحياة، ١١٤ ش ١٠٥ المعادي بالقاهرة،

ت: ٠٠٢٠٢٢٢٥٢٥٢١٤٠ ، فاكس ٠٠٢٠٢٢٢٥٢٦١٦١٨

إصلاح الأفراد والمجتمعات في الإسلام

تمر البلاد العربية والإسلامية الآن بالكثير من التغيرات من أجل الوصول للحياة السعيدة المنشودة التي أسستها ودعت إليها الشريعة الإسلامية، واللحاق بركب العصر على التعاليم القرآنية والسنة النبوية، في كافة مناحي الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية والدينية وغيرها.

وإن منهج الإسلام لإصلاح البلاد والعباد هو المنهج الأكمل والأصلح لكل العصور والمجتمعات، فهو يواكب أحدث إنجازات العلم، ويأخذ بأرقى الأساليب التي تتم بها وعليها نهضة الأمم والشعوب.

فهذا المنهج الفريد يقوم على أساس بناء الفرد أولاً على القيم الإنسانية الفاضلة، وتؤسس مجتمعاته على العدالة المطلقة والمساواة، ويشيد إقتصاده على حق التملك والنظام المحكم لتوزيع الثروات والمكتسبات والمهام، كما يبني سياسته على الصراحة والوضوح والبعد عن المكر والخداع والنفاق.

وقد جمعنا في كتابنا هذا أهم محاضراتنا المطبوعة والمخطوطة والمسجلة التي تتناول منهج الإصلاح في الإسلام، فكان بحمد الله مرجعاً جامعا لاغنى عنه لكل مسلم غيور على دينه، وحريص على أمته في عصرنا هذا.

ولتتكامل معرفتكم بمنهج الإسلام للإصلاح، أدعوكم لقراءة كتبنا (تربية القرآن لجيل الإيمان)، (مائدة المسلم بين الدين والعلم)، و (كيف تكون داعياً على بصيرة).

إنتظروا كتابنا القادم .. (الحب والجنس في الإسلام)